ظلّ الجليلي



خيرد تايسن

ظل الجليلي

خيرد تايسن

خيرد تايسن

ظل الجليلي



رقم التسجيل

نقله إلى العربية بتصرف

الأب سامي حلاق اليسوعي

لوجوس

الكـــتاب : **ظل الجليلي**

الكـــاتب : **غيرد تايسن**

ترجـــمة : **الاب سامي حلاق اليسوعي**

الجمع والاخراج الفنى والطباعة

لوجوس سنتر

تليفون / فاكس ٢٩٠٦١٦١

ص . ب . ٢٤٥٥ الحرية

هليوبوليس – القاهرة

E-mail : logoscenter@yahoo.com

حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع : ٢٠٠١/٧٧٥١

الترقيم الدولى :1- 70 - 5607 - 977

المحتويات

الفصل الأول

الاستجواب

الظلام يسود الزنزانة. قُبَيل لحظات، كانت الجموع تتدافع حولي. أما الآن، فأنا وحيد، في رأسي لهيب وأعضائي مشلولة. بدا الجنود مهذّبين. شاركوا في المظاهرة وصرخوا مع الناس. لم يفكّر أحد في أنّهم جواسيس، حتى أخرجوا الهراوات التي أخفوها تحت ثيابهم، وصاروا يضربوننا. هرب غالبيّتنا. مات بعضنا تحت وطأة الأقدام، وسقط آخرون تحت ضربات الجنود. لم يكن هناك داع للهرب. فأنا عابر سبيل مع تيمون وملخوس، ولا تهمّني المظاهرة. لم أقلق إلاّ على برأبّا الذي رأيته بين المتظاهرين. وفيما أحاول الوصول إليه أثار الذعر بلبلة وصراخًا وشجاراً وركلاً. عندما استعدتُ وعيي، وجدتُ نفسي في السجن وتيمون أيضًا. هل نجح ملخوس في الفرار؟

الآن أنا جالس القرفصاء في الظلام. أشعر بألم في جميع أنحاء جسمي. لا من الضرب والأغلال وحسب، بل إنّ أساس سبب توتّر جميع أعضائي هو عار تعرّضي للخشونة الوحشيّة، وكذلك خوفي من تلك التي سأتعرّض لها دون أن أستطيع الدفاع عن نفسي.

في الخارج، كان جنديّ يسير جيئة وذهابًا. سمعتُ أصواتًا. فتح أحدهم الباب، وجرّوني مكبّلاً إلى التحقيق في مكان ما بأورشليم، حيث مجلس الحكومة الرومانيّة. جلس ضابط أمامي. كان هناك كاتب يدوّن المحضر. سُئلتُ أوّلاً:

– هل تتكلّم اليونانيّة؟

أجبتُ: جميع المثقّفين عندنا يتكلّمون اليونانيّة.

كان وجه الرجل الذي يستجوبني ناعمًا. وكانت عيناه البرّاقتان تتفحّصاني بانتباه. ربّما استلطفته لو كنت في ظروف أخرى.

– ما اسمك؟

– أندراوس بن يوحنا.

- من أين أنت؟

- من صفورة في الجليل.

- المهنة؟

- تاجر خضار وحبوب.

توقّف الضابط لحظة، وانتظر أن يدوّن الكاتب المعلومات بريشته التي تَصرّ.

- ما الّذي كنت تفعله في أورشليم؟

- أتيتُ لأجل عيد العنصرة.

رفع عينيه وحدّق بي.

- ولماذا تظاهرت على بيلاطس؟

- لم أفعل شيئًا. أُلقِيَ القبض عليّ في المظاهرة مصادفة.

أكان عليّ أن أقول إنّي عرفتُ بين حشد المتظاهرين صديقًا قديمًا؟ بالطبع لا. برأبّا يكره الرومانيّين. ربّما كان اسمه في قائمة المطلوبين. يجب ألاّ يتمكّنوا من الربط بيني وبينه.

- أتؤكّد أنّك لم تصرخ مع الجميع: "لا مال لقيصر؟"

- لا أدري حتّى ما الأمر.

كذبتُ، فضحك الموظّف وهزّ برأسه كمن يوافق. جميع الموجودين بأورشليم في ذلك الحين يعرفون تمامًا أنّ المسألة تتعلّق بمال الهيكل الذي يريد بيلاطس أن يستولي عليه لبناء قنوات جديدة[1].

---

[1]- راجع فلافيوس يوسف: "وبعد هذه القضيّة، أثار بلبلة أخرى حين أخذ من المال المقدّس، كما يقول كوربوناس، للقنوات التي ستجلب الماء من أربع مئة غلوة. وشعر الشعب بالإهانة لهذا التصرّف. ولمّا أتى بيلاطس إلى أورشليم، أحاط الناس بمنبره وصاحوا هتافات معادية. كان بيلاطس على علم بالبلبلة التي يحضّرونها، فأرسل جنوده بين الشعب مسلّحين ومتنكّرين بثياب مدنيّة. وقد مُنِعوا من استعمال السيف، وأُمروا بضرب المتظاهرين بالهراوات

– كان عليك أن تعرف أنّه يجب الابتعاد عن جمهور يتظاهر.

عارضتُ بسرعة:

– لم يكن مع أحد سلاح. كلّ شيء تمّ في سلام إلى أن هجم الجنود.

– لكنّ المظاهرة كانت علينا، نحن الرومانيّين. وهذا يجعل أمرها مشكوكًا فيه. ألم تُعتقل قطّ في شجار بين اليهود وغير اليهود؟ ألست من الذين نعرفهم؟

– أيّة شجارات؟

– أتكلّم على تلك التي تحدث في مدننا، والتي ينخرط فيها طائشون من عمرك. يبدأ الأمر بضربات غبيّة وينتهي بحرب شوارع كما في قيصريّة[٢].

– إنّ صفورة، وهي مسقط رأسي، هادئة. غالبيّة سكّانها يهود، لكنّهم نالوا تربية يونانيّة.

صرخ:

– أتقول صفورة؟ ألم تحدث اضطرابات في صفورة بعد موت هيرودُس؟ مدينتك وكر للإرهابيّين.

– هذا ليس صحيحًا. لقد شبّت الثورة على روما والهيرودسيّين منذ ثلاث وثلاثين سنة، واستولى الثوّار على المدينة بضربة واحدة وأجبروا سكّانها على محاربة الرومانيّين، ودفعنا ثمن ذلك غاليًا. فقد أرسل القائد الرومانيّ

فقط. ومن منصّته، أعطى الإشارة المُتّفق عليها. وفي أثناء هذا الشجار، هلك كثير من اليهود، بعضهم من الضرب، وبعضهم الآخر داسته الأقدام في أثناء الهروب. وخاف الشعب حين رأى مصير ضحايا المجزرة، فكفّ عن الصراخ". (*حرب اليهود*، ٢، ١٧٥-١٧٧).

٢- يخبر يوسف أنّ شجارات شبّت في قيصريّة قبيل انطلاق حرب اليهود، أي في السنة ٦٦ (*المرجع نفسه* ٢، ٢٨٤-٢٩٢). لاشكّ أنّ هيرودس، وهو يهودي، أسّس المدينة، لكنّه بنى فيها هياكل وثنيّة، مما يسمح لغير اليهود بأن يدّعوا ملكيّتها. ويمكننا إثبات وجود صراع حول حق المواطنة في الخمسينات (*المرجع نفسه* ٢، ٢٦٦-٢٧٠)، ولا بدّ أنّ لهذه الصراعات جذوراً أقدم من ذلك.

كوينتيليوس فاروس قطعات جيش لمحاربة المدينة، واستولى عليها وأحرقـــها، وقتل السكّان أو استعبدهم. كان ذلك كارثة حقيقيّة لنا.

كيف يمكنني أن أجعله يبعد عن هذا الموضوع؟ في ذلك الوقت، لم يمت جميع الناس أو يُستعبَدوا. فبعضهم تمكّن من الفرار. وكان من بينهم والد برأبّا. هذا ما رواه لي مراراً. أتُراهم يستجوبونني بسببه؟ أنّا لهم أن يعرفوا صداقتنا؟ على كلّ حال، عليّ أن أحوّل الانتباه عن كلّ صلة بيني وبينه. لذلك أكّدتُ مرّة أخرى:

– جميع سكّان صفورة دفعوا ثمن الانتفاضة. لكنّ القدر نال من فـاروس أيضًا: فقد اختفى بعد ذلك بألمانيا مع ثلاثة جيوش.

– وهذا ما يُسعد الجميع في صفورة؟

ظلّ صوت الضابط يدوّي بغضب.

– لم يستطع أحد أن يُسرّ لذلك. فالجميع ماتوا أو اسـتُعبِدوا، ولـم تعد المدينة إلاّ كتلة خربة. لقد أعاد هيرودس أنتيباس، ابـن هـيرودس، بناءهـا، وأسكن فيها ناسًا يؤازرون الرومانيّين. في ذلك الوقت أتى أبي إليـها. نحـن مدينة جديدة. اسأل الجليليّين عنّا: تُعتبر مدينتنا موالية للرومانيّين. مـن هـذه المدينة أتيت[3].

– سنتحقّق من كلّ شيء. سؤال آخر: ما هو وضع أسرتك في المدينة؟

– والدي قائد عشرة، وعضو في مجلس الشورى.

مدينتنا منظّمة كالمدن اليونانيّة. فيها مجلس شـعب ومجلـس شـورى، وانتخابات وموظّفون حكوميّون. اعتمدت على هذا عمدًا، لأنّـي أعـرف أنّ الرومانيّين يساندون المدن الجمهوريّة ومواطنيها الأغنياء.

– لا بدّ أنّ أباك غنيّ إذا كان من قوّاد العشرة في صفورة. ما هي مهنته؟

---

[3]– في أثناء حرب اليهود، كانت صفورة رومانيّة، خلافاً للجليل كلّه. (راجع فلافيـوس يوسف، *سيرة ذاتيّة* ٣٤٦).

– تاجر حبوب مثلي.

– ومع مَن يتعامل؟

– إنّ الجليل يموّن مدن شاطئ البحر الأبيض المتوسّط بالمنتجات الزراعيّة: قيصرية ودورا وبطوليميا وصور وصيدا. لقد سلّمتُ أيضًا حبوبًا لقطعات الجيش الرومانيّ في قيصريّة.

– سنتثبّت من هذا. أتتعامل أيضًا مع هيرودس أنتيباس؟

– بالطبع. إنّ له أكبر ملكيّة في الجليل. كانت صفورة مكان إقامته قبلاً. وكثيرًا ما عقدتُ صفقات مع خازنيه.

لاحظتُ كم يبدو على ضابط التحقيق الاهتمام بموضوع هيرودس أنتيباس.

– ما رأي أهل صفورة بهيرودس أنتيباس؟

– يمكنه أن يثق بمدينتنا ثقة كاملة. على العكس، لازال أهل الريف يخشون الهيرودسيّين.

أخذ الضابط ورقة وبدا أنّه يقرأها بسرعة. ونظر إليّ نظرة استفسار وتابع حديثه.

– لديّ هنا محضر استجواب عبدك تيمون. اختلافات كثيرة. أتريد حقًّا أن تقول إنّكم مؤيّدون مخلصون لهيرودس أنتيباس؟

استولى الخوف عليّ. لقد استجوبوا تيمون. والعبيد يُستجوبون بالتعذيب. يمكن لتيمون أن يقول أيّ شيء عني وعن أسرتي. شعرتُ بأنّ وجهي يشحب وأنّ الخوف يشلّني.

– هيّا، قل. ما سبب عداتكم لهيرودس أنتيباس؟

_ نحن نساند سلطته. جميع الشخصيات المهمة في صفورة والجليل تسانده.

– ولماذا تسخرون منه في بيوتكم إذًا؟

– كيف؟

– قال عبدك ذلك: إنكم تعلنون أنه ملك فاسد، قصبة تهزّها الريح، ثعلب.

جعلتُ أضحك مرتاحًا.

– كان عليه أن يخلف الملك هيرودس. لكنّ هذا غيّر وصيّته مرّات كثيرة. ولم يرث أنتيباس الوقار الملكي ولا المملكة، ولا حتى أهمّ جزء فيها وأفضله، وإنما الربع فقط: الجليل وعبر الأردنّ.

– والآن يحلم بالحصول على كلّ شيء؟

وساد الهدوء الصالة فجأة. حتى أمين السرّ توقّف عن الكتابة ونظر إليّ، فأجبتُ:

– ربما. على كلّ حال، إنه يحلم بذلك.

– وقصّة القصبة التي تهزّها الريح؟

شعرتُ باطمئنانٍ لأن أنتيباس يهمّهم أكثر منّي. هل يريد الضابط جمع معلومات عنه؟ تابعتُ حديثي بثقة أكبر.

– قصبة تهتز. إنها طريقة للتعبير. حين نقل أنتيباس العاصمة من مدينتنا إلى طبريّة منذ عشر سنوات، وهي مدينة بناها على شرف الإمبراطور، وجّهت إليه الانتقادات. بالطبع، لم نكن سعداء لهذا التغيير في صفورة. فحال التجارة في العاصمة أفضل من الأقاليم. لهذا انتقدناه كثيرًا.

– وما علاقة هذا بالقصبة التي تهزّها الريح؟

– إليك منشأ هذا. سكّ أنتيباس في عاصمته الجديدة نقوداً. بالطبع، نجد على قطع النقود عادة وجوه الأمراء. لكنّ تصوير البشر أو الحيوانات ممنوع في الشريعة اليهوديّة. لذلك اختار أنتيباس ما لا خطر فيه، شيء تتميّز به عاصمته التي على شاطئ البحيرة: القصبة. إنّها تظهر بالضبط مكان الوجه في العملات القديمة. لهذا سخرنا منه، ونعتناه بـ "قصبة تهزّها الريح". هذا كلّ ما في الأمر[٤].

– وبين مَن ومَن يتأرجح أنتيباس؟

٤– إنّ عملة تأسيس طبريّة تحمل بالفعل رسم قصبة شعاراً لهيرودس أنتيباس.

– بين صفورة وطبريّة.
– بين المدن فقط؟
– وبين النساء أيضًا.
– أتقصد قضيّة هيروديّا؟
– نعم. إنّه يتأرجح بين زوجته الأولى، الأميرة النبطيّة، وهيروديّا.
– ألا يتأرجح بين النبطيّين والرومانيّين أيضًا؟ خصوصًا وأنّه متزوّج من ابنة ملك النبطيّين.
ها ها، لهذا يهتمّ الرومانيّون بأنتيباس المهزوز! قلتُ ما يتناسب مع الحقيقة بهدوء:
– لا، أنتيباس صديقٌ وفيّ للرومانيّين مثل أبيه.
– وكيف يمكنه ذلك وهو في الآن نفسه يهوديّ متشدّد؟ إنّه يرفض الصور كما تقول.
– هذا ما يفعله جميع اليهود.
– حقًا؟ روى لنا عبدك تيمون أن في صالة ملحقة بمنزلك صورة لإله!
شرحتُ محرجًا:
– إنه تمثال أهداه لنا صديق وثني نتعامل معه. لم نشأ أن نهينه برفضنا للهديّة.
– مدهش! خبّأتم صور أوثان عندكم.
– حتى أنتيباس لديه صور حيوانات في قصره[٥]. وكما تعلمون، نقش أخوه فيلبّس صورة الإمبراطور على عملته.
– ماذا، صور حيوانات؟ أصحيح ما تقوله؟
– رأيتها بنفسي. يتمتّع الأغنياء في حياتهم الخاصّة تجاه الشريعة اليهوديّة بحرّية أكبر من العامّة.

٥- حطّم الثوّار صور الحيوانات بقصر هيرودس أنطيباس في بداية حرب اليهود، لأنها كانت عاراً للشعب. وقد تلقّى يوسف أمراً من أورشليم بأن يبعدها. وحين وصل إلى طبريّة، كانت مجموعة الثوّار قد سبقته إليها (يوسف، *سيرة ذاتيّة*، ٦٥ وما يليها).

– يا للعجب. وماذا يحصل إذا قيل للناس إنّ أنتيباس يتعاطى مع الأصنام سرًّا، وأنّ كثيرًا من أهل صفورة ليسوا أفضل منه؟

– الصور ليست آلهة. إنها مجرّد أشياء صنعتها الأيدي إنّها قِطَعٌ مثل القطع الأخرى. إذا كانت هذه الأشياء حولنا، فهذا لا يعني أننا نتعاطى مع الأصنام.

– لا أفهم هذا. جميع الناس يعبدون الآلهة من خلال تماثيلها.

– نحن لا نعبد ما صنعه الإنسان البتّة. إنّ الله غير منظور، ولا يمكننا أن نصنع صورة له.

توقّفنا قليلاً. تفحّصني الضابط وهو يفكّر. أليس من الغباء أن يعلن من هو في وضعي ما يجعل اليهود يختلفون عن سائر الشعوب، بما فيهم الضابط الرومانيّ الذي أمامي؟ في آخر الأمر قال لي بهدوء:

– سمعتُ القصّة التالية عن هذا الموضوع، أي الإله غير المنظور: منذ زمن بعيد، انتشر وباء الطاعون في مصر. فالتفت الفرعونُ إلى الإله آمون، وسأله النصح. وأُخبِرَ بأنّ عليه أن يطهّر مملكته منكم، أي اليهود الذين يكرهون الآلهة، فيزول الوباء. وطُرِد جميع اليهود إلى الصحراء، وتُرِكوا فيها يواجهون قدَرَهم. فتاهت غالبيّتهم ويئست بسبب العزلة. لكنّ واحدًا منكم اسمه موسى، شدّد هممهم ودعاهم إلى عدم انتظار تدخّل الآلهة أو مساعدة البشر، فهم متروكون في جميعِ الأحوال، وعليهم أن يثقوا به ويتغلّبوا على بؤسهم الحاضر[٦]. حين سمعتُ هذه القصّة تساءلتُ هل تؤمنون فعلاً بإله؟

إلامَ يصبو من هذه الصورة الساخرة لقصّة في الكتاب المقدّس؟ أيريد إثارتي؟ أتراه يهتمّ بديننا؟ من الصعب تخيّل ذلك!. بماذا عليّ أن أجيبه؟ بكلام عامّ غير محدّد، بأيّ شيء عن الإله غير المنظور الذي لا يمكن لإنسان أن يراه أو أن يفهمه، لا هو ولا أنا، والذي لا أحد يعرفه. بعبارات تحوّلنا عن

---

[٦]– هذه النظرة المعادية لليهود عن قصّة هروب الشعب من مصر سُرِدَت بطرق مختلفة. ما نورده هنا أُخذ عن تاسيت في كتابه *التاريخ*، ٥، ٣.

الأسئلة الهامّة. وخطرت ببالي فكرة: إذا قدته إلى جدال عميق، سأجعله يـــهمل موضوع برأبّا نهائيًا. لهذا أعلنتُ بكبرياء:

– إنّ الله يختلف عن آلهة الشعوب الأخرى. ليس الإله غير المنظور مـــع الأقوياء، وإنما مع النفايات التي نرميها في الصحراء.

لاحظتُ أنّ الضابط ارتعد.

– أتشكّ في أنّ الآلهة مع الرومانيّين؟ كيف تمكّن هـــؤلاء مـــن التوسّـــع بعيدًا؟ كيف يمكن لمدينة صغيرة أن تصير إمبراطوريّة عالميّة؟

– جميع الشعوب يعتقدون بأنّ الآلهة مع الغالب. لكنّا نعلم جيدًا أنّه يمكـــن للإله غير المرئي أن يكون مع المغلوب.

نظر إليّ الضابط دهشًا، وقال بصوت مخنوق:

– في إيمانكم شيء يعارض جميع قوى هذا العالم. ولكن ستجدون أنتـــم أيضًا مكانكم في الإمبراطوريّة الرومانيّة مثل سائر الشعوب. لأنّه من واجبنـــا أن ننشر السلام في العالم، أن نحمي الخاضعين لنا، وأن نحارب الثوّار[٧] فـــي هذا البلد وفي العالم أجمع.

وبعد توقّف قصير أضاف:

– ستستغرق قضيّتك بعض الوقت. سوف نتحقّق مـــن صحّـــة أقوالـــك، ونقرّر عندئذ هل أنت متّهم أم لا.

ثمّ صرفني. قادوني إلى زنزانتي. هذا يعني أنّ عليّ الانتظار! كـــم مـــن الوقت سيدوم حتّى يجمعوا المعلومات عنّي؟ في الحقيقة، كان الرجاء يملؤنـــي حقًا. فأنا من أسرة معروفة، وعلى علاقة طيّبة مع الرومانيّين. ومع ذلك، كان لدي سبب لأقلق: ماذا بوسع تيمون أن يقول لهم أيضًا؟ أيســـتطيع أن يحفـــظ لسانه في شأن برأبّا؟ لم يرَه قط. لكنّه ربّما سمع عنه. لو ظلّت علاقتي ببرأبّـــا مخفيّة، لن يكون في الأمر خطورة. لو...

٧– بهذه الكلمات وصف الشاعر اللاتيني فرجيليوس الرسالة الشاملة للإمبراطوريّة الرومانيّة في التاريخ (٧٠–١٩ ق.م).

اكتأبتُ. بدا مصيري رهينة أحداث تهدّد شعبنا بكامله. فجميع التوتّرات بين اليهود والرومانيّين التي أدّت إلى هذه المسيرات على بيلاطس لاتكفّ عن الازدياد، حتى تؤدّي إلى ثورة علنيّة على المحتلّين. ستحلّ بشعبنا مصائب لا تُحصى، وحروب وقمع[8]، و اعتقالي تافه بالمقارنة معها. لكنّ هذه الأفكار لم تمنحني إلاّ تعزيات قليلة. وبدا لي زمن الانتظار لا نهائيًّا في سجن بيلاطس الكئيب هذا. إنّها فترة مظلمة في حياتي.

٨- بالفعل، خيّم ظلّ الحرب مرّات كثيرة على البلاد. حين أراد الإمبراطور قاليغولا أن يضع تمثاله في الهيكل في السنة ٤٠، حمل كثير من اليهود السلاح. ولم يمنع نشوب الحرب إلاّ موت الإمبراطور المفاجئ شهر كانون الثاني (يناير) ٤٤. وفي السنة ٦٦، حدثت ثورة هامّة. وبعد نجاح ضئيل ضدّ الحاكم سيستيوس غالّوس Cestius Gallus، انهزم العصاة في الحملتين اللتين قادهما فيزبازيانوس وتراجان. وفي السنة ٧٠، سقطت أورشليم. وفي السنة ٧٣ (أو ٧٤)، جاء دور مَسّادة، آخر حصن الثائرين. عايش يوسف بداية هذه الحرب اليهوديّة الشاملة وكان قائداً يهوديًّا، أي في معسكر العصاة. ثمّ سُجِنَ وتحزّب للرومان. وكرّس لهذه الأحداث كتابه: "حرب اليهود".

الفصل الثاني

المساومة

أسوأ ما في الأمر هو أنّي لم أستطع أن أتكلّم على حالي مع أحد. مَن يدري ما أنا فيه؟ أيتوقّع أهلي المكان الّذي أنا فيه؟ هل تمكّن ملخوس من العودة إلى البيت؟ هل تيمون في زاوية أخرى من السجن؟ وجالت في خاطري تصوّرات كئيبة: كم من اليهود سُجنوا هنا وعُذّبوا وقُتلوا؟ كم منهم فُقِدوا؟ ماذا سيحلّ بي؟ الشمس لا تصل إلى هذا الجحر حيث لا يُسمَعُ إلاّ ضجيج الحرّاس، ولا يمكن تمييز الوقت. هذه الزنزانة قبرٌ حُبِستُ فيه حيًا. وفي الجوّ الخانق، شعرتُ بخوف قاتل، فصلّيتُ يائسًا:

عدلُك أيّها الربّ إلهنا فأنا بريء.
وثقتُ بك. اسبرني وجرّبني.
تعرفني أكثر ممّا أعرف نفسي.
دافع عني أمام قضاتهم، ضد شهادات الزور ونميمتهم.
احفظني من مكائد مخابراتهم.
لم أكن قطّ شريك العظماء.
أحتقر من يحتقرون حياة الناس، أولئك الذين يعيشون في الوحل،
الذين يسجنوننا والذين يهينوننا ويسيئون معاملتنا.
لا تدعني أسقطَ بين أيديهم.
أكفّهم ملطّخة بالدماء.
يغتنون من الفساد، ولا يمارسون عملهم إلاّ لتحصيل الفدية.
مَن ينقدهم يتلاشى في سجونهم.
مَن يرفضهم يُطرد.
دعني ياربّ أرى بيتك، حيث يقيم مجدك.
خلّصني من أيدي هؤلاء السفهاء.
أريد أن أرنّم لك وأسبّحك في وسط جماعتك[1].

١- هذه الصلاة مستوحاة من مواضيع المزمور ٢٦

عددتُ الأيّام بفضل حصتّي الضئيلة من الطعام التي تُدفع أمامي بانتظـام. مضى الأسبوع الأوّل ولم يحدث شيء. وتلاه آخر بدا لي سنة. وفي النهايـة، أتوا لإحضاري في الأسبوع الثالث. أيريدون إطلاق سراحي؟ استعدتُ الرجاء. اجتزنا في البداية متاهة من الممرّات، ثمّ دُفع بي إلى صالة كبيرة، فأعمـاني النور المتدفّق إليها من النافذة. وشيئًا فشيئًا، استطعتُ أن أميّز التفاصيل. أمامي كرسي قضاء على منصّة، ورجل قصير القامة جالس، يرتدي حُلّة رومانيّـة بيضاء من القماش النفيس ومزيّنة بالأرجوان، وفي يده اليمنى خـاتم ذهبـيّ، علامة على أنّه فارس رومانيّ. همس لي الجنديّ الذي أدخلني: "الحاكم". إنّـه بيلاطس البنطي إذًا، حاكم اليهوديّة والسامرة[٢]. لقد بلغ التحقيق ذروتـه. هنـا سيتمّ البتّ في أمري. حبّذا لو لم يتسرّب شيئ في شأن برأبّا.

كان بيلاطس يقرأ ملفًا حين دخلتُ، ووقف جنديّان من المرافقة، الواحـد عن يمينه والآخر عن يساره، وكان هناك كاتب من أجل المحضـر. ودون أن يرفع عينيه، بدأ بيلاطس كلامه:

– اندراوس بن يوحنا. قرأتُ محضر التحقيق. أنت تؤكّد على أنّـك لـم تُعتقل في المظاهرة ضدّي إلاّ بمحض المصادفة. منذ ذلـك الوقـت جمعنـا معلومات عنك. لقد عرفنا أشياء كثيرة. لماذا أخفيت عنّا أموراً مهمّة؟

أجبتُ متردّدًا:

– ليست لديّ فكرة عمّا يمكنه أن يكون مهمًّا أيضًا.

– كلّ شيء مهمّ!

نظر إليّ بيرود وتابع كلامه:

٢– تبيّن كتابة وجدَت في قيصريّة أنّ بيلاطس كان حاكماً لا نائباً. في غالب الأحيان، يُعـهد بالمهمّتين إلى ممثّلين من سلاح الفرسان. والفارس مواطن أجره ٤٠٠٠٠٠ قطعة نقديّة. وعضـو مجلس الشعب له مرتبة أعلى من الفارس وينال مليون قطعة. هذه المعطيات صالحة للقـرن الأوّل الميلاديّ.

- ينقص شيء في برنامجك.

- لا أعرف ما يمكنه أن يهمّ السلطات الرومانيّة.

- أين كنت بعد إنهائك للجمنازيوم[3]؟

هذا هو الأمر إذًا! ذات يوم، نصحني واحد بأن أقول الحقيقة أمام الشرطة ولكن بأقلّ ما يمكن. قلتُ:

- كنتُ في الصحراء عند ناسك يُدعى بَنّوس مدّة سنة.

- حسنًا! أولم تمارس إلاّ النسك؟ لا شيء آخر؟

- أردتُ أن أجد طريق الحياة الحقيقيّة. لقد درستُ شريعة إلهنا.

- ولماذا صمتّ على هذا؟

- ولماذا عليّ أن أنكره؟ كانت المسألة دينيّة صرفة.

- هذه "المسألة الدينيّة الصرفة" تسمح أيضًا بتأويل آخر. أولاً: أمضيتَ سنة بين المقاومين. ثانيًا: أُلقي القبض عليك في مظاهرة ضد الرومانيّين. ثالثًا: قاد هذه المظاهرة محرّضون خفيّون.

- أكون ذلك الخفيّ الذي يدير الأمور؟ هذا غير معقول!

- لكنّه ممكن.

- كنتُ في الصحراء لأستطيع التفكير في الخلوة. ليس جميع الذين يعتكفون فترة في حياتهم محرّضين ولا إرهابيّين. أنا مع السلام.

٣- اسم المدارس في اليونانيّة: "الجمنازيوم". في كلّ مدينة من مدن فلسطين وجدَت مدرسة. في بطولمايس، بنى الملك هيرودس الكبير واحدة (حرب اليهود ١، ٤٢٢). أمّا ما يخصّ صفورة، فلا يمكننا إلاّ افتراض وجود واحدة في صفورة. فقد بُني في المدينة لاحقاً مسرحاً، أي مؤسّسة على علاقة وثيقة بالتربية اليونانيّة. في ذلك الوقت، عرف اليهود بالتأكيد مدرسة التوراة. وأدخل كبير الكهنة يسوع بن جمليال تعديلاً على المؤسّسة المدرسيّة اليهوديّة حوالى سنة ٦٣ أو ٦٥.

– لم تتحدّث عن إقامتك في الصحراء. إنّه أمر مشكوكٌ فيه.

بدأت أعرق، كان شعري يلتصق على جبيني، ورائحة ثيابي نتنة. لم أستطع تبديلها ولا أن أغتسل منذ ثلاثة أسابيع. لابدّ أنّ شكلي الخارجيّ مضحك. واختلطت عليّ الأمور في داخلي أيضًا. لاشكّ أنّي أمضيتُ سنة في الصحراء لأسباب دينيّة مثل كثيرين. بحثتُ عن الخلوة في واحة لأفكّر في أمر الحياة وأتساءل عن الإرادة الإلهيّة[4]. لكنّي هناك تعرّفتُ أيضًا ببرأبّا. أيعرف بيلاطس ذلك؟ لقد اكتفى بترديد: "كلّ هذا مشكوك فيه!" فأكّدتُ له:

– لا يكون مشكوكًا فيه إلاّ إذا نظرنا إليه بعيون شكوكة. لم يُلقَ القبض عليّ في المظاهرة إلاّ مصادفة. كان ضميري مرتاحًا. لهذا لم أهرب مثل الآخرين.

وتابع بيلاطس لعبته في إظهار عدم الاكتراث الكامل. ماذا يريد منّي؟ وبعد صمت قصير قال:

– أستطيع أن أفتح قضيّة جنائيّة.

– سيُطلق سراحي.

– ربّما. لكنّي أستطيع أن أرسلك إلى روما لأجل تحقيق إضافي.

– هناك أيضًا سيُطلق سراحي.

– لكنّ هذا سيدوم سنتين. لن تضحّي بسنتيّ سجن.

ونظر إليّ وابتسم كمن يوافق على الفكرة. إلامَ يصبو؟ لا يمكنه أن يرسل جميع المشبوهين إلى روما. من ناحية أخرى، من الواضح أنّه يستطيع أذيّتي، بغضّ النظر عن كوني بريء أم لا. وتابع بيلاطس كلامه:

٤– يمكن ليوسف أن يكون مثالاً على أنّ أبناء العائلات الغنيّة يستطيعون أن ينعزلوا في الصحراء ليدرسوا الديانة فيها. ففي سيرته الذاتيّة، يروي أنّه لم يرتوِ من دراسته لمختلف التيّارات اليهوديّة طوال ثلاث سنوات، فانضمّ إلى المدعو بَنّوس، وهو ناسك في الصحراء يتغذّى من الأعشاب البرّيّة ويمارس –غالباً في نهر الأردن– التطهير الطقسي (١١ وما يليها).

– أقدّم لك عرضًا سخيًّا: أنت حرّ من الآن إذا رضيت بأن تعطينا معلومات عن بعض الحركات الدينيّة في البلاد.

– هذه مساومة!

واشتعلتُ غضبًا وثورة. تمنّيتُ لو أبصق في وجهه. هذا الرجل يحاول أن يساومني بوقاحة، ويتكلّم على الإخلاص.

– لنقل إنّ هذه قضيّة تخدم مصلحة الطرفين.

– لا أريد التجسّس.

– لا حاجة بنا لاستعمال كلمة "جاسوس" في هذه الحالة. انتكلّم بالأحرى على "أبحاث". يمكنك ألاّ تذكر أسم شخص او تُخبر عنه.

يا للسفاهة! وكأنّني لا أعرف أن الأمر سيّان حين أبدأ بتقديم تقارير عن المجموعات الّتي لا تتفق آراؤها مع آراء المحتلّين الرومانيّين. سيطرتُ على نفسي وبذلتُ جهدًا لأتكلّم بهدوء قدر الإمكان:

– ما من واحد من أبناء بلدي يميّز بين التجسّس والبحث.

– سنعتبرك...

وأدار بيلاطس رأسه قليلاً، ثمّ بدا عليه وكأنّه وجد الكلمة.

– ... مستشارًا في الشؤون الدينيّة.

صمتُّ.

– حسنًا! كما تشاء. سنتّخذ إذًا إجراءات ضدك، ونفحص إقامتك في الصحراء أو في أماكن أخرى فحصًا دقيقًا.

– مساومة إذًا!

هل اكتشف بيلاطس شيئًا عن علاقتي ببرأبّا؟ ما هي حدود سلطته؟ تُروى عنه أمور سيئة، إشاعات عن خشونته وعنفه. ألا يستطيع أن يصفّيني جسديًّا؟ ألا يقدر أن يدبّر في أيّة لحظة شهادات زور عليّ؟ أن يجبرني على الاعتراف بأيّ شيء في التعذيب؟ وماذا لو رضختُ؟ لكنّي امتنعتُ بكلّ قواي عن هذه الفكرة.

– أنت تثور يا أندراوس. أفهمُك. لازلت شابًا. لكنّ خبرتي علّمتني أنّ الناس يتّخذون قراراتهم بصعوبة او تُركَت لهم الحرّيّة. يجب مساعدتهم.

ظلّ صوته يجلجل عن بعد بجفاف كما في بداية المقابلة. وخيّل لي أنّ مصيري لا يعنيه في شيء. في الواقع، يبدو أنّه لا يعبأ إذا قبلتُ عرضه أو لا، وهذا ما أخافني.

– سمِّ هذا مساومة من طرفي. ولكن حاول فقط أن ترى الأمور من وجهة نظري. أنا مسؤول عن النظام والسلام في هذا البلد. إنّها مهمّة صعبة. لماذا؟ لأنّ الرومانيّين لا يكفّون عن جرح مشاعركم الدينيّة حتى حين لا يتمنّون ذلك. خذ من مسألة القنوات مثالاً. كانت فكرتي أن أبني لأورشليم قنوات تزوّدها بالماء، وكان على أفضل مهندسيّ وكبار المتعهّدين عندي أن يهتمّوا بالأمر. لكنّ المال لا يكفي للتمويل. فقال لي الخبراء إنّ من مهامّ صندوق الهيكل دعم تمويل المدينة بالمياه[٥]، وفيه ما يكفي من المال. فجميع اليهود يدفعون ضرائب سنويّة للهيكل. أذهب إذًا إلى الهيكل بفكرة تمويل مشروع جرّ المياه من مدخوله. فهذا يتلاءم مع شريعتكم تمامًا. وماذا حدث؟ شعرَت ثلّة من المتعصّبين المتديّنين بالكارثة، فأطلقوا شعارًا: "لا مال مقدّس لبيلاطس الوثنيّ هذا! لا درهم من صندوق الهيكل للرومانيّين". كأنّ الأمر هو مصادرة مال الهيكل لأغراض غير دينيّة! وكأنّ الأمر لا يتعلّق بمدّ قنوات مياه يستفيد منها الهيكل والمدينة بكاملها! وهكذا بدا علينا، نحن الرومانيّين، أنّنا مستبدّون لا نكنّ لشريعتكم أيّ اعتبار، وننوي حتّى نهب مال الهيكل.

هذا ما سعى إليه إذًا من قصّة جرّ المياه. أراد أن يكون شعبيًّا فأخفق إخفاقًا ذريعًا. أعليّ أن أساعده الآن على تحسين دعايته؟ هدأت الإثارة التي لاحظتها في صوته منذ قليل. وتابع بيلاطس حديثه:

٥– في معاهدة الضريبة للهيكل (شيكِليم) بالتلمود البابلي، ذُكِرَ بوضوح أن قنوات المياه واجب من واجبات صندوق الهيكل (٤، ٢).

– كان ذلك إخفاقًا ذريعًا. على الرغم من ذلك، علينا أن نبذل قصارى جهدنا لنحافظ على السلام في هذا البلد. فهناك فرص يجب الاستفادة منها. وثقتي تستند على فكرتين: من جهة، المبدأ الثابت للسياسة الرومانيّة في شأن الشعوب الخاضعة. نحن نعتبره سرّ نجاحنا في تحويل العداوة إلى صداقة. أيّ شعب يحالف الرومانيّين أفضل من الذين قاوموه بعناد؟ ما سيكون حال الإمبراطوريّة اليوم لو لم تكن لديها البصيرة في مزج الغالب مع المغلوب[٦]؟ لم يكن اليهود أعداءنا دائمًا، بل على العكس، تحرّروا من وصاية ملوك سورية لكونهم حلفاء روما[٧]. فبفضل مساندتنا استطاعوا الحفاظ على ثقافتهم ودينهم. وبعد ذلك، حين دعانا جيرانكم لحمايتهم من هجماتكم العسكريّة، سقطتم تحت سيطرتنا. وتمّ ذلك في اللحظة المناسبة لإزالة خطر حرب أهليّة كادت تلقي بلادكم في الشقاء[٨]. لكنّا لم نمسّ دينكم حتى في تلك الظروف! وستستمرّ سياستنا: احترام إيمانكم وإلهكم وآدابكم ومشاعركم. نحن نحترم حتى الغريب منها علينا، ولا نريد إلاّ أن تفعلوا بالمثل تجاه ما هو مقدّس لدينا. أن تأخذوا في عين الاعتبار التكريم الذي يكنّه جنودنا للإمبراطور، وأن ترضوا بحقّ جميع الناس في أن يعبدوا آلهتهم. يجب أن يكون الاحترام متبادلاً. والآن

٦- إنّ العبارتين الأخيرتين هما سرد حرفيّ لفيلسوف رومانيّ اسمه سينيك (حوالى ٤ق.م. – ٦٥م) ذكرهما في كتابه "في الغضب" ٢، ٣٤-٤

٧- في ١٦١ ق.م. وقّع يهوذا المكّابي، زعيم الثورة على السوريّين، معاهدة وصاية مع الرومان (١ مكّابيّين ٨، ويوسف، تاريخ اليهود،١٢، ٤١٤-٤١٩). وجدّد سمعان هذه المعاهدة في ١٣٩ ق.م (راجع سفر المكّابيّين الأوّل ١٤: ١٦ وما يليه، ١٥: ١٥ وما يليه).

٨- اخضع خلفاء المكّابيّين، خصوصاً اسكندر ينّي (١٠٣-٧٦ ق.م)، المدن غير العبرانيّة في إقليم اليهوديّة والجليل. وفي السنة ٦٣ ق.م. أيّام حكم بومبيوس، جرى نزاع على الملكيّة بين أرسطوبول الثاني وهيركان الثاني، فاستغلّ الرومان الفرصة لضمّ المملكة اليهوديّة الصغيرة إلى إمبراطوريّتهم، وتحرير المدن غير العبرانيّة في إقليم اليهوديّة.

الفكرة الثانية. علمتُ من حواري مع كبار كهنتكم بأنّكم تقبلون سلطتنا في الأمور الأساسيّة. فقد رضي الله منذ زمن بعيد بأن يسودكم شعب آخر. لقد تحمّلتم الفرس واليونان والكلدان. لِمَ لا الرومانيّين أيضًا وهم أكثر الإمبراطوريات السابقة انتباهًا إلى الشعب المحتلّ؟ إنّكم تقولون: "كلّ ما يحدث سببه الإله الواحد الوحيد الذي نعبده في أورشليم".

وتوقّف قليلاً وكأنّه يمهلني لأفكّر.

– إذًا، عليكم الإقرار بهذا. لقد أراد أن نبني، نحن الرومانيّين، إمبراطوريّتنا. أراد أن تفقدوا بسببنا هذا الاستقلال الذي نلتموه بفضل عوننا لكم ضدّ السوريّين[9]. ليس للشعب اليهوديّ مبرّر ليرفض أنّنا سادة العالم، مع أنّنا نفهم جيّدًا رفضكم لعبادة الإمبراطور كإله كما تفعل سائر الشعوب الشرقيّة. في الحقيقة، لا يمكن أن تكون هناك مشاكل. ولكن في الواقع، لدينا مشاكل كثيرة. قبل كلّ شيء: ما يقوله لنا رؤساؤكم الدينيّون هو غير ما يمسّ الشعب. لدينا انطباع بأن أشياء كثيرة تتغيّر الآن في دينكم. الأمور تختمر عند الناس. في كلّ مكان نشهد ظهور أفكار جديدة وحركات. أنبياء ووعّاظ يجوبون البلاد. من الصعب علينا أن نفهم جميع هذه التيّارات الجديدة. وليس كهنتكم أفضل منّا في ذلك. فقد فقدوا دورهم الروحيّ عند بعض الطبقات. لكنّ استقرار البلاد يتعلّق بهذه الطبقات. نحن بحاجة إلى معلومات عنها، وعلى استعداد لاحترام مشاعركم الدينيّة وإزالة كلّ ما يعكّر صفوكم بدون جدوى. لأجل هذا علينا أن نعرف ما يجري بين الشعب. خبراؤنا في الدين اليهودي قليلون جدًّا. نحن بحاجة إلى من يكون في الميدان. هذه المعلومات فقط تمكّننا من وأد الصراع في مهده.

– ولماذا عليّ أن أكون ذلك الإنسان بالضبط؟

٩–هذه هي النظرة الّتي يقدّمها يوسف بعد حرب اليهود الخاسرة (٦٦–٧٠). فقد وضع على لسان هيرودس أغريبا الثاني خطاباً للزعماء في بداية حرب اليهود. (حرب اليهود. ٣، ٤، ٥–٤٠١).

- أنت مثقّف. تتكلّم لغتنا ولغتهم، وعارف في قضايا اليهوديّة وديننا أيضًا. إنك تتحدر من أسرة موالية للرومانيّين، ولست متعصبًا. إنك مع السلام. فمسألة أن لديك صنمًا صغيرًا في حجرة ملحقة يجعلنا نستلطفك. لقد طلبتُ أن يؤتى لي برجل مثلك منذ زمن بعيد. إنّك الإنسان المناسب.

- لكنّي لا أريد!

لم أكن أريد حقًّا. فهذه ازدواجيّة لا تُطاق! كيف يمكنني أن أوفّق بين صداقتي لبرأبّا وعملي لحساب الرومانيّين؟ سأقع في مأزق بكلّ سهولة. عندئذ قال لي بيلاطس بهدوء:

- فكّر! هناك دائمًا خلل ما، حتّى وإن أطلق سراحك. ما عليّ إلاّ أن أنشر في قيصريّة بأنّك مشبوه لعلاقتك بالإرهابيّين. بدون شك، لن يساعدك هذا في تجارتك، وسيحلّ الخراب بك وبوالدك.

مساومة أيضًا. أحسستُ بشعور احتقار عميق يزداد فيّ. كلّ شيء يتمّ بالتكتيك والحساب عند أصحاب السلطة هؤلاء. وتظلّ مشاعرهم الحقيقيّة وأفكارهم خفيّة. هناك شيء واحد أكيد: إرادتهم في الحفاظ على السلطة. هل عرف بيلاطس أفكاري؟ قال ملحًّا:

- أوجد لي واحدًا في هذا البلد ينجز لنا أمرًا بدون مساومة. لا بدّ أنّك تعتبرني الآن وحشًا، كما يعتبرني الآخرون عديم الإنسانيّة. فمنذ زمن قريب، سمعتُ ما يقوله يهود الإسكندريّة عن طريقتي في الإدارة: إنها ليست إلاّ سلسلة من الاختلاسات والعنف والسلب والوحشيّة والتعذيب والإعدامات بدون محاكمة، وفظائع رهيبة لا نهاية لها[١٠]. أوافق على ذلك. فأنا على استعداد لفعل أيّ شيء حين يمسّ الأمر السلام. لكنّي لستُ وحشًا على هذا النحوَ.

١٠- قول لفيلون الإسكندريّ Legatio ad Gaium, 302 وهو يهوديّ معاصر للمسيح عاش في الإسكندرية.

وضحك. لا بدّ أنّه لا حظ بنفسه عدم قدرة كلماته على الإقناع. ربّما كان هذا تكتيكًا صرفًا. فسعيتُ إلى كسب الوقت.

– كيف سأقيم علاقة بجميع هذه الحركات؟

مهما يكن في الأمر، كان عليّ ألاّ أوحي بأنّي على علاقة بها.

– لا تهتم. ستمكث قليلاً في السجن أيضًا. سنعاملك معاملة حسنة. يجب ألاّ ينقصك شيء. وسنسعى إلى تسريب معلومة تفيد بأنّ الرومانيّين اعتقلوا شابًا عُرِف عنه تعلّقه بدينه وإخلاصه إليه، وأنّ أموره تسوء، وأنّه ينادي علنًا بعدم حقّ الرومانيّين في أن يكونوا ببلد هو من ملكيّة الله. باختصار، سنصنع لك هالة، ثمّ نطلق سراحك. ستثق بك كلّ الجماعات المتشدّدة، وما عليك إلا التجوّل في البلد وتقديم تقارير لنا عن حالة الفكر الديني للشعب. ما يهمّنا قبل كلّ شيء هو ما يشكّل خطرًا على استقرار البلاد، وما يمكنه أن يشكّك بسلطتنا. سيشرح لك معاوني متيليوس، الذي تعرّفت إليه، ما عليك أن تفعله، وسيعطيك جميع البيانات التي لدينا حتى الآن. اتّفقنا؟

– أريد أن أفكّر أيضًا بعض الوقت.

– حسنًا، فكّر في المسألة، وتذكّر جيّدًا أنّي لستُ وحشًا على الرغم ممّا يقال.

واستعاد وجهه مرّة أخرى تعابيره الساخرة. هل انتهت المقابلة؟ لا. كلّمني بيلاطس ثانية:

– قرأت في محضر استجوابك قصّة الصوَر التي في قصر أنتيباس. هل رأيتها؟

– نعم. ويمكن لكثير من الناس أن يشهدوا على ذلك.

– يا للمرائي! يضع صور حيوانات عنده، ويعترض حين أريد أنّ أعلّق فقط صورة للإمبراطور في مكتبي[11]. هذا يخالف شريعتكم! يا للخبث. يُثار

١١- يروي فيلون هذا الاختلاف.

على الرموز التافهة للتقادم في عملتي[١٢]، ولا يمكن دفع الضرائب للهيكل إلاّ بعملة صوريّة. وما الذي نقش عليها؟ الإله ملكارت، صنم[١٣]. وفي بهو الهيكل، يُبدّل المال بهذه العملة الوثنيّة. حين أمرّ من هناك، غالبًا ما تتملّكني الرغبة في قلب طاولات الصيارفة. ومع ذلك، لا يحتجّ أحد. أمّا على قطعي النقديّة، يا للصراخ! لندَع هذا الموضوع جانبًا.

تكلّم بيلاطس غاضبًا وبدا كأنّه نسي حضوري. وفجأة، التفت إليّ، ودوّى صوته مرّة أخرى هادئًا باردًا قاتلاً فأخافني.

– فكّر جيّدًا في قرارك، ولا تنسَ أنّي لست الوحش الذي يراه الآخرون فيّ. لستُ إلاّ حاكمًا رومانيًّا يريد المحافظة على النظام في هذا البلد.

قادوني، ووجدتُ نفسي جالسًا في زنزانتي المظلمة. لقد أروني المنفذ الذي يَسمح لي بالخروج. لعنتُ حالي، وفي عجزي، توجّهتُ مرّة أخرى إلى إله آبائي.

حرّرنا يارب من هذا الفساد.

ما من صالح، جميع الإنسانيّة ملعونة.

يخدعنا العظماء بكلام دعايتهم، ويسخرون منّا.

شفاههم تتلفّظ كلمات حسنة، لكنّهم لا يفكّرون إلاّ بالاستبداد.

يعلنون السلام ويشهرون السلاح.

يتكلّمون على التسامح ولا يفكّرون إلاّ بسلطتهم.

اجعلهم يختنقون في حديثهم، وكلامهم المتناقض،

الذي لا يتحدّث إلاّ عن مصلحة الدولة، ولا يصبو إلاّ إلى سحق أعناقنا.

١٢– بيلاطس هو أوّل حاكم في اليهوديّة تجرّأ على استعمال رموز وثنيّة على عملته: عصا العرّافين وإناء الشرب الطقسي. وقد تحاشى الحكّام قبله وبعده جرح مشاعر اليهود الدينيّة بالصور الوثنيّة التي لها علاقة بعبادة الأوثان.

١٣– راجع الصوَر في A. Ben David. Jerusalem und Tyros. 1969

حطّم كبرياء هذه السلطة وشؤم سيطرتهم.

تكلّم يارب:

"لصالح المسحوقين والسجناء، سأنهض وأخلّص من يتوقون إلى الحرّية".

أنت تحفظنا ياربّ وتحمينا من الأشرار والطغاة.

أنت سندنا بين مَن لا مقدّسات لديهم.

العهر انتشر في كلّ مكان، لكنّا نعتمد على كلمتك،

إنّها نور في الظلمات[14].

١٤- من مواضيع المزمور ١٢.

الفصل الثالث

قرار أنـدراوس

أندراوس جاسوس بيلاطس؟ أبدًا! كلّ ما فيّ يثور على هذا. يستطيع بيلاطس أن يحتفظ بي في قاع هذه الحفرة المنخفضة سنوات. لن أرضى أبدًا أن أسلّم أحدًا للرومانيّين. لا شكّ أن هؤلاء جلبوا الراحة والسلام لبلدنا. ولكن ما هذا السلام الذي بيع بثمن الطغيان والظلم؟ ما هذه الراحة المهدَّدة دائمًا إذا لم يُجبر الناس على الصمت بالقوّة؟ هذه هي الأفكار التي تزاحمت في رأسي. ما العمل إذًا؟ ماذا سيحدث لو قلتُ لا؟ ألن يعذّبني بيلاطس لينتزع منّي معلومات عن أصدقائي وأسرتي وربّما عن برأبّا؟ ألن يصفّيني جسديًّا بالسرّ ليمنع أن يعرف أحد شيئًا عن مساومته؟ أو هل سيصلبني علنًا ليخيف الناس؟ أسيخرّب أسرتي؟ ماذا سيحلّ بتيمون؟ لازال صدى الكلمات الأخيرة لمقابلتنا يتردّد في أذنيّ: "لستُ الوحش الذي يراه الآخرون فيّ". ألم يكن هذا تحذيرًا واضحًا؟ ألا يعني هذا: إحذر لنفسك! ربما أكون أوحش مما يظنّه الآخرون؟ آه لو أستطيع أن أنتزع من هذا العذاب ويُلقى بي في أيّ مكان حيث لا يمكن للمساومة أن تنال منّي! ولا يحكم عليّ أحد ولا يهدّدني قطّ، حيث تصمت جميع هذه الأصوات المستولية عليّ فأجد السلام.

رغبتُ أن أموت. ألم يعلّمني الفلاسفة أن هناك حلاً في أسوأ الأحوال[1]؟ هناك دائمًا باب مفتوح: الموت. فيه يكمن الخلاص من أوحش الطغاة. ولكن، هل الانتحار حلّ سليمٌ؟ إن الرومانيّين معجبون بكاتون وبروتوس اللذَين انتحرا حين وصلا إلى طريق مسدود. ويمكننا أن نجد هذه الفكرة أيضًا عند بعض

١- كانت الفلسفة الرواقيّة واسعة الانتشار في الطبقات المثقّفة بالمجتمع الروماني. وهي تعلّم السيطرة على الذات وإتمام الواجبات. وتعتبر الانتحار شرعيًّا إذا كان المخرج الوحيد لوضع لا رجاء فيه. نجد هذه الفكرة أيضًا لدى بعض اليهود: ففي أثناء حرب اليهود، السنة ٧٣ (٧٤)م، انتحر المحاصَرون في قلعة مسّادة، بعد أن بلغوا اليأس، لكي لا يلقي الرومانيّون القبض عليهم أحياء. وبحسب يوسف (حرب اليهود ٧: ٤٠٠)، هلك هناك ٩٦٠ شخصًا بين رجل وامرأة وطفل.

اليهود. لكنّ نظرتنا للأمور تختلف جوهريًا. لقد نلنا من الله رسالة في أن نحيا. لا يمكننا أن نرفضها بحجّة أنها صعبة جدًا. لأنّه مَن يستطيع أن يعرف ما خبّأه الله لنا وهو الذي يعضد الهالكين والمنبوذين؟ لقد وجد أجدادنا أيضًا أنفسهم متروكين. هجرتهم أعداد آلهة العالم التي عبدوها وهجرهم الناس. تاهوا في الصحراء مشرّدين يائسين لكنّهم لم يستسلموا. وصدّقوا موسى حين كلّمهم على رسالة يجب عدم خيانتها. آه لو كانت لديّ حريّة التشرّد في العزلة. في تلك اللحظة، خطرت ببالي فكرة التظاهر بقبول عرض بيلاطس لأختفي في الصحراء دون أن أترك أثرًا. أعرف كيف أعيش هناك. لقد علّمني بنّوس ذلك. يمكنني أن أذهب إليه. ربما استطعت الآن فهم عقيدته. في ذلك الوقت، كانت هذه العقيدة غريبة عليّ.

ما الذي دفعني إليه قبلاً؟ كنتُ أعاني حينها من قلق يصعب عليّ فهم أسبابه. لقد نشأتُ في أسرة متحرّرة. كنّا نؤوّل عادات اليهوديّة وقناعاتها فلسفيًا. كان أبي يقول دائمًا إنّ الكتاب المقدّس يشرح أفكار الفلاسفة اليونان بطريقة تصويريّة. أذكر يومًا كنّا نتأمّل فيه شروق الشمس. تسلّقنا جبلاً لننتظره. واخترقت الأشعّة فجأة ضباب الصباح، فحوّلت شكل الطبيعة إلى تباينات رائعة في الألوان والأنوار. قال أبي: "ما أشدّ فهمي لعبادة الوثنيّين الشمس. فما هي إلاّ انعكاس للإله الحقيقي. جعلهم نورها يكتشفون آثاره. لا بدّ أنهم خلطوا بين الخالق والمخلوق، لكنّهم يملكون الإحساس بجمال هذا العالم[٢]". كان يحبّ الأشياء الجميلة. لهذا قدّم له ضيف تمثالاً صغيرًا لإله. بالنسبة إلى أبي، إنّه مجرّد تمثيل لرجل وسيم لا أكثر. خبّأه في حجرة منعزلة. كان على ثقة من أنه حين تلج فكرة وحدانيّة الإله القلوب، يصير بالإمكان تمثيل جميع حقائق العالم دون حرج[٣].

٢- نجد هذه الفكرة في كتاب الحكمة (١٣: ٦-٩). وهو نصّ كُتِبَ في القرن الثاني قبل الميلاد، دوّنه اليهود في الشتات، وربما في مصر.

٣- في الواقع، عرفت الديانة اليهوديّة في القرن الأوّل الميلادي فنًّا مزدهرًا تجاوز المنع المطلق للصور، وتُعتبر فسيفساء دورا أوروبوس على الفرات (سورية) إحدى بدائع هذا الفن.

في هذا الجوّ نشأتُ. لكنّي اكتشفتُ أن جميع الناس لا يفكّرون مثل أهلي. تعلّمتُ كيف أتعرّف إلى إيمان البسطاء دون الحاجة إلى إثبات مساواة إيمانهم مع الفلسفة اليونانيّة. إنّهم يعتبرون وحدانيّة الإله أمرًا بديهيًّا، ولا حاجة للدفاع عنها أو تبريرها. المهمّ في نظرهم هو إتمام إرادته وحفظ شريعته يوميًّا. لقد اكتشفتُ عالمًا جديدًا. عندئذ ولدت لديّ الرغبة في معرفة إيماني اليهودي معرفة عميقة. أردتُ أن أعود إلى أسسه في حياتي كلّها. حلمتُ بما هو واضح وجذريّ. سمعتُ عن بنّوس. ما أغراني هو أنّه يعلّم في الصحراء خارج حدود الحياة الطبيعيّة. وهو أيضًا يعتقد أنّ علينا، نحن اليهود، أن نعود إلى الانطلاق من البداية. فكما عبرنا الصحراء قبلاً لنصل إلى هذا البلد، علينا أن نعود إليها لنسمع مرّة أخرى الصوت الذي انطلق من العلّيقة الملتهبة: "أنا هو الكائن". كانت أفكار بنّوس جذريّة: على العالم أجمع أن يعود إلى نقطة البداية لا اليهود فقط. لأنّ عالمنا أخفق. إنّه مصنوع من الظلم والقهر والاستغلال والخوف. بسبب تناقضاته هذه، سينهار تحت قضاء الله. عندئذ يبدأ عالم جديد. لا زلتُ أسمع صوته يقول:

عندئذ يخلق الربّ ملكوتًا أبديًّا لجميع الناس،

هو الإله الذي أعطى الشريعة.

الجميع يأتون ليعبدوا الربّ وسيحتشدون في بيته.

لن يكون هناك إلاّ هيكل واحد، وجميع الطرق تؤدّي إليه.

الجبال ستتمهّد واليمّ سيصلح للإبحار.

ستعيش جميع الشعوب في سلام، وستختفي الأسلحة.

ستوزّع الثروات بعدل، ويسكن الله بين الناس.

تأتي الذئاب والحملان معًا وتأكل العشب في الجبال،

ويرعى الفهد مع الغزال، وتنام الدببة بجانب العجل،

ويتغذّى الأسد من تبن المذود كالبقرة،

ويقودهما صبيّ بحبل.

وتنام التنانين والأفاعي مع الرضيع ولا تؤذيه.
لأنّ يد الله ستكون عليهم[٤].

هذا كلّه أحلام جميلة! أحلام بالهروب إلى عالم جديد أفضل! وهو ليس أفضل من حلمي في الهروب إلى الصحراء. يا للخيال! لقد علم الرومانيّون بإقامتي هناك، وسيبحثون عنّي في كلّ مكان، وسأجعل بنّوس يهلك معـي. وربما تمكّنوا من تقفّي أثر برأبّا. كنتُ أقيم عند بنّوس منذ فترة حين انضمّ إلينا برأبّا. هو أيضًا جليليّ من صفورة مثلي. كان عروسًا حين نجا أهله من كارثة مدينتنا. فقدوا بيتهم وأموالهم، وسكنوا بؤساء في غيشالة بالجليل الشمالي. لقد تأثّرت حياة الأسرة كثيرًا بالهروب من صفورة والمعاملة البربريّة التي عوملت المدينة بها. يرفض أهل بيته الرومانيّين رفضًا قاطعًا، وكذلك الأمراء الهيرودسيّين الذين يُنظر إليهم على أنّهم ألعوبة للرومانيّين. هذا لا يعني أنّهم يرفضون الغرباء، ولكن لا يمكن قبول هؤلاء لأنّهم لا يجلبون إلاّ الاستعباد والقهر.

ما الذي أتى يبحث عنه برأبّا في الصحراء؟ أأراد أن يختبئ من الرومانيّين؟ هل ارتكب جريمة ضدّهم؟ لا أدري. شيء واحد كان واضحًا: بينما كنتُ أبحث عن وطن في العالم اليهوديّ الواسع، اتّخذ هو قراره، فقد وجد مكانه، ولا يهتمّ إلاّ بتأكيده ضدّ إغراء العالم الرومانيّ واليونانيّ. كان يشعّ ثقة، وهذا ما جذبني إليه. كان يعرف أي معنى يعطيه لحياته وأيّ مضمون، بينما كنتُ أفتّش عن شيء ما. كانت ردود أفعالنا على تعاليم بنّوس مختلفة. لم يسحرني الإعلان عن عالم جديد، فقد تعلّمتُ في البيت حبّ هذا العالم، بينما تعلّم برأبّا احتقاره. كان يتحزّب بحماسة لفكرة الكون الجديد، ولم يخالف بنّوس

---

[٤]- مستلّة من الصلوات الوثنيّة. القسم اليهودي من هذه الصلوات انتشر انتشاراً واسعًا في العصور القديمة. ألّف في القرن الثاني ق.م. مثل سائر مجموعة الكتاب الثالث. وتعود مواضيع هذه النبوءات إلى عصر أشعيا (١١: ١ وما يليها).

إلاّ في نقطة واحدة: بالنسبة إليه، لا يمكن لهذا العالم المتجدّد أن يأتي وحده. يريد الله أن نفعل شيئًا لأجل ذلك. بمعنى آخر، أن نُحضيره بالقوّة[٥]. فاليهود الذين فرّوا من مصر ذهبوا هم أيضًا إلى عالم جديد. لكنّه لم يُعطَ لهم. كان عليهم أن يتعبوا. كان عليهم أن يحاربوا أعداء آخرين، وأن يختبئوا وراء متاريسهم لمقاتلة الخونة.

على الرغم من استلطافي لبرأبّا، كنت أرتعد لفكرة خلق هذا العالم الجديد بالعنف. فالقوّة تُهلِك والسلطة تُفسِد. ومع ذلك، كان رفيقي يسحرني بإرادته في عمل شيء. كان يرفض الانتظار، وعلى قناعة بأن العالم يسنح الفرصة مهما كان فاسدًا. لكنّي لم أقتنع من إمكانيّة نجاح مشروعه، الذي اعتبرته محض خيال. فالرومانيّون أشدّاء.

في وضعي الحالي، بدأتُ أفهم رفاق الصحراء بوجه أفضل. لم يُرِد بنّوس أن يتعامل مع عالم المساومة والقهر هذا. أما كان من الأفضل له أن يتركه ويتخلّص من أوحاله وأقذاره ويرميها في نهر الأردن؟ ما الذي يستوجبه عالمنا غير الانهيار؟ لو كانت لديّ القدرة، لأنزلتُ عليه ناراً من السماء لتلتهم بيلاطس وجنوده. وأفهم برأبّا أيضًا: أما كان يجب أن يُفعل شيء ضدّ الرومانيّين؟ أليس الدّفاع عن النفس واجب؟ ولكن، أليست كلّ مقاومة مكشوفة هي فعل يأس صرف؟

عندئذ أتتني فكرة. ألا يجب التظاهر بقبول اللعبة الكريهة مع أناس مثل بيلاطس؟ إذا كان بيلاطس يعمل بالمساومة، ما الذي يستوجبه غير الخدعة؟ أليس من واجبي أن أوافق على عرضه وألاّ أعطيه إلاّ المعلومات التي يهمّنا، نحن اليهود، أن يعرفها الرومانيّون؟ ربما أستطيع كتم المعلومات الأخرى.

٥- يمثّل برأبّاس هنا فلسفة يهوذا الجَليلاوس الذي سبّبت ثورته على الرومان دمار صفورة. ويخبرنا عنها يوسف في تاريخ اليهود ١٨، ١ وما يليها، وفي حرب اليهود ٢، ١١٧ وما يليها. وهذا الإعلان تقليديّ: "لا تساهم الألوهة في هذه المهمّة (النضال من أجل الحريّة) إلا إذا شاركنا بوجه فعليّ".

أجل ... ألا أستطيع أن أعرف من الرومانيّين أشياء كثيرة من شأنها أن تفيد مواطنيّ؟ بالتأكيد، هذه لعبة مشكوك في أمرها! لعبة الكذب والنفاق. أيمكن قبولها؟ أيمكن الكذب عند الحاجة؟ ما الذي حدث مع إبراهيم؟ ألم يقدّم امرأته على أنّها أخته ليتفادى أن يقتله رجال فرعون لأنّه زوجها[٦]؟ كان هذا بالفعل كذب! ألم ينتزع يعقوب البركة بالحيلة والخداع؟ ومع ذلك بورِك[٧]. ألم يكن داود جنديًا عند الفلسطينيّين[٨]؟ ومع ذلك صار ملكًا عظيمًا لليهود! ألا يبيّن لي تاريخ شعبي أنّ الأبطال لم ينالوا البركة وحدهم، بل الصغار أيضًا والمضطَهَدين والذين يناضلون لأجل البقاء أكثر من الدفاع عن كرامتهم! ألا يتمّ في مصيري ما كان دائمًا من نصيب شعبي: واجب التخلّي عن مبدأ سام في سبيل البقاء والنجاة من الموت؟ ألستُ إبراهيم الهارب ويعقوب المضطَهَد وداود زعيم العصابة؟ حين دمجتُ مصيري بهذه الطريقة مع مصير شعبي، شعرتُ بسلام كبير. أخيرًا تكوّنت لديّ قناعة: لا أخون خاصّتي إذا قبلتُ مساومة بيلاطس. لأنّ مصير شعبي يتحقّق فيّ.

ظللتُ يقظًا فترة طويلة. وحين نمتُ رأيتُ حلمًا: كان بيلاطس يقف أمامي في حلّته الرومانيّة المطرّزة بالأرجوان، ويردّد باستمرار: "لستُ وحشًا! لستُ مفترسًا!". وتشوّهت ملامحه، ولمع نابان كبيران في وسط فمه. فشدّ قبضته، وبدا مكان الخاتم مخالب تبرق، وجعل جسمه ينتفخ حتى صار حيوانًا ضخمًا، وحشًا مزمجرًا يقف أمامي، يهدّد بمخالبه العالم أجمع باحتقار ولا يكفّ عن الصراخ: "لستُ وحشًا! لستُ مفترسًا!". أردتُ الفرار فرفضت ساقاي أن تتحركا. عجِزتُ عن الحركة. في هذه الأثناء تقدّم الوحش، وجعل يشمّ قدميّ. ثمّ لمس بمخالبه ركبتيّ، ونهض أخيرًا ليمسكني من عنقي. وفجأة تقوقع وحنى ظهره وصار صغيرًا جدًا، وجعل يئنّ ويتعفّر في التراب. تلاشى جبروته وكبرياؤه وكأنّ قوّة خفيّة واقفة خلفي أجبرته على الخنوع. التفتُّ، كان خلفي

٦- سفر التكوين ١٢: ١٠-٢٠

٧- راجع سفر التكوين ٢٧

٨- راجع ١ صموئيل ٢٧

رجل واقف يحيط به حرّاس يحملون كتبًا دوّنت عليها جميع شرور الوحش، لا ما يخصّ بيلاطس وحسب، بل وجميع الإمبراطوريّة الرومانيّة أيضًا. وقُـرِأت الواحدة تلو الأخرى، وفي كلّ مرّة، يئنّ الوحش ويتعفّر في التراب. وفي آخـر الأمر تمّ الحكم: طُرِدَ الحيوان وقُتِلَ وتسلّم الرجل الذي يحيط به الحرّاس زمام السلطة.

استيقظتُ. ألم أقرأ شيئًا كهذا في الكتب؟ الآن أذكر ذلك. كان هـذا حلـم دانيال، وفيه تخرج أربعة حيوانات من الهوّة[9]. لكنّي لـم أرَ فـي حلمـي إلاّ آخرها. تشوّشتُ. فمن العادة أن تُشـرح الحيوانـات الأربعـة علـى أنّـها إمبراطوريّات البابليّين والماديين والفرس واليونان. والحلم يؤكّد أنّه ليس لجميع هذه الممالك جوهر. وستدمّرها مملكة الرجل بكاملها بواسطة شخص غـامض أتى من السماء في هيئة إنسان. لقد فهم بعضهم أنّ الحلم قد تحقّق. وبعد انهيار الإمبراطوريّة اليونانيّة، برزت الإمبراطوريّة الرومانيّة، ونشرت السلام حيـث لم يكن حتى ذلك الحين إلاّ الحرب والدمار. إنّها إمبراطوريّة إنسـانيّة. لكـنّ حلمي يبيّن العكس. آخر الحيوانات هو الإمبراطوريّة الرومانيّة. فـهي أيضـًا وحشيّة. ستأتي المملكة الإنسانيّة الحقيقيّة لاحقًا.

وجدتُ أنّي لازلتُ تحت سيطرة الوحش، لكنّي واثق الآن من أنـه لـن ينتصر. فهناك مَن هو أقوى منه. صحيح أنّه لا زال يسودني، وله سلطة علـى جسدي المقيّد، لكنّه فقد سيطرته على كياني الداخليّ. فمن هناك أتاني الحلـم. أليس من واجبي أن أنتصر على هذه المملكة بالحيلة؟

وعند بداية الفجر، أرسلتُ أخبر بيلاطس بموافقتي على عرضه شـرط أن يُطلَق سراح تيمون معي.

٩- راجع سفر دانيال ٧

الفصل الرابع

مهمة الاستخبار

أنا حرّ أخيرًا! لقد أطلقوا سراحي في نهاية الأمر. أمّا تيمون، فظلّ في السجن. كانت آخر أيّام الاعتقال محتملة. بالطبع، أعادوني إلى زنزانتي المعتمة. لكنّي استطعت أن أغتسل. كان يحقّ لي أن أتناول من طعام الجنود نفسه، وأعطوني ثيابًا جديدة قبل إطلاق سراحي. كان عليّ أن أسير بضع خطوات في الهواء الطلق لأجعل من شخصيّة السجين البائس رجلاً أعرفه. سرت في أزقّة أورشليم أتمتّع بالضجيج وروائح الأسواق، وأراقب الناس الذين أصادفهم في طريقي: حجّاج وتجّار وفلاّحون وكهنة وجنود، باختصار، حشد يميّز طابع المدينة. ما أحلى رؤية الشمس مرّة أخرى! شعرت بأشعتها تغمر جسدي ووجهي ويدي، وتتلاعب في شلاّل من الظلّ والنور وتتدفّق في موجات حارّة. وخيّل إلي فجأة أنّي أكتشف في جميع الأشياء فرحًا صامتًا مخبّأ لا ينتظر إليّ ليعبّر عن نفسه. وصرت أدمدم تلقائيًّا:

أيها الربّ إلهنا،
السماء تعكس جمالك والأرض صداك.
كلّ حبّة تراب مسكن لك وكلّ يوم يمجّدكَ.
أنت تملأ الكون بهاء.
لغته بدون كلمات لكنّ كلّ شيء فيه يسبّحك بأصوات لا نسمعها.
ها إن الشمس تتابع مسارها وكأنّها مولّهة بدغدغة الأرض،
والكواكب ترافقها فلا يخفى عليها شيء[1].

كان عليّ أن أصحو بعد قليل لأعود إلى الواقع. أقحمت نفسي في قضيّة تحفّها المخاطر لكي أرى الشمس ثانية. يستحيل أن أنسى حين وجدت نفسي أمام الضابط الذي استجوبني أوّل مرّة، واسمه متيليوس. قال لي مسرورًا:

– أنا سعيد يا أندراوس لأننا سنتعاون. لنعالج الموضوع. نتمنّى الحصول على معلومات عن بعض الأشخاص غريبيّ الطباع.

١- من المزمور ١٩

ودحرج مصوّرًا على الطاولة وأشار إلى الطرف الشمالي الغربي للبحر الميّت.

– أتعرف هذا الإقليم؟

شعرت بالضيق من سؤاله، لأنّي قضيتُ سنة مع بنّوس بالقرب من البحر الميّت. لذلك فضّلتُ تصنّع الجهل. ربما هناك بعض الأشياء التي أعرفها، والتي يمكن أن أقدّمها في ما بعد على أنّها ثمرة أبحاث دؤوبة. اكتفيتُ بالقول:

– لا أعرف الإقليم إلاّ كعابر سبيل.

– هنا، في هذه الواحة، مركز الأسّينيّين. أتتنا المعلومات التي لدينا حتى الآن أتتنا من المسافرين الرومانيّين. بحسب قولهم، يعيش هؤلاء الأسّينيّون هناك عزّابًا بدون أولاد ولا ملكيّة خاصّة وسط أشجار النخيل على شاطئ البحر الميّت. ويبدو أن الذين ينضمّون إليهم أشخاص كرهوا الحياة العاديّة، أو مَن جرى لهم حادث مأسوي كرّههم طعم الحياة[2]. اذهب قليلاً إلى هناك وانظر مَن أولئك القدّيسون. يبدو أنّهم مسالمون وليس لديهم سلاح. لا يبرزون أي قَسَم، يدينون الاستعباد ويحرصون على احترام جميع الشرائع الدينيّة[3]. نودّ أن نعرف مَن هم هؤلاء الذين يرفضون أن يعيشوا مثل سائر الناس. ماذا يفعلون في الصحراء؟ أهُم ضحايا النحس؟ منهارون عصبيًّا؟ ألا يلجأ إليهم بعض من يريدون الفرار منّا لشرّ صنعوه؟ أيمكننا أن نثق بمَن يرى أنّهم أصحاب مبادئ مسالمة؟ حاول أن تحصل لنا على بعض المعلومات في هذا الشأن.

٢– إنّ وصف التجمّع الأسّيني أتانا من بلينوس الشيخ (*التاريخ الطبيعي* ٥، ٧٣). وسمحت تنقيبات البحر الميّت في قمران بتحديد الأماكن. بالإضافة إلى ذلك، وجد في مغارة مجاورة كميّة من الكتابات الأسّينيّة تسمح بتكوين فكرة دقيقة عن أسلوب حياة هذه الجماعة في الصحراء.

٣– يقول فيلون في هذا الشأن: "عبثًا نبحث عندهم عن صنّاع خناجر أو رماح أو سيوف أو خوَذ أو دروع أو تروس، أو باختصار، صانع سلاح أو آلات حرب وأدواتها، أو حتى أدوات سلم يمكن استعمالها استعمالاً سيئًا. ليس لديهم عبد وجميعهم أحرار. يساعدون بعضهم بعضًا ويدينون السادة لا لأنّهم ظالمون في شأن المساواة وحسب، بل لأنّهم كفّار إذ يخونون قوانين الطبيعة التي أنجبت الناس وأطعمتهم سواسية كالأم، وجعلتهم إخوة حقيقيّين، لا اسميًّا بل واقعيًّا". هذا النص من الكتابات اليهوديّة النادرة في العهد القديم الذي يدين العبوديّة بوضوح ويقول إنّها ظلم.

– هذا شبه مستحيل! لا يقول الأسّينيّون شيئًا البتّة للغرباء. لقد أقسموا على أن يحفظوا ما يخصّ جماعتهم سرًّا[٤]. إنّه لأمر معروف. حتّى نحن اليهود لا نعلم عنهم أشياء كثيرة.

– لذلك من المهم أن نعرف شيئًا. اذهب إذًا واعرف أيّة أسرار مخفيّة في هذا. ربما لا تكون إلاّ أسرارًا دينيّة.

– من الصعب الوصول إليهم.

– نعلم أن بالقرب من البحر الميّت أسّينيّين آخرين يعيشون متفرّقين في البلاد. ربما استطعنا معرفة شيء عنهم[٥].

– سأحاول، ولكن علينا القول، ربما لا يعلم هؤلاء جميع الأسرار.

– نستطيع أن نحصل منهم على شيء بكلّ تأكيد. حتّى نحن استطعنا التقاط بعض المعلومات. فقد روى لنا كهنة من أورشليم أن الأسّينيّين يرفضون العبادة في الهيكل ودورَ الكهنة الحاليّين. وهذا حدث منذ حوالي مئتيّ سنة. فقد عزل واحدٌ كبيرَ الكهنة الّذي كان من بيت صدّوق. ولكي يعبّر هذا عن معارضته، اعتكف في الصحراء، ووجد فيها بعض الهامشيّين فكوّن معهم الجماعة، أي ما ينوب عن الهيكل الذي لا يحق له دخوله[٦]. ما هي قوّة معارضة الهيكل والقائمين عليه الحاليّين؟ ألهذه المعارضة سند شعبي؟ أيمكننا استخدام الأسّينيّين ضدّ كبار الكهنة؟ أم أنّهم ينضمّون في حال الصراع إلى

٤– راجع يوسف، حرب اليهود ٢، ١٤١

٥– على خلاف أسّينيّي البحر الميت (قمران) الذين يظلّون عزّابًا، كان هناك آخرون يتزوّجون ويعيشون متفرّقين في البلد (المرجع نفسه ٢، ١٦٠، ١٦١).

٦– كبير الكهنة الذي طُرد من منصبه هو من نسمّيه: "سيّد العدل". وبحسب الكتابات الأسّينيّة، هو الذي أسّس الجماعات الأسّينيّة وأعطاها شكلها النهائي. وتنسب الكتابات الأسّينيّة عدوًّا له وهو كبير كهنة من مدنّسي المقدّسات، والذي نستطيع من خلال وصفه أن نميّز بدون شكّ أنّه كبير كهنة يهودي. والجدال يدور حول مَن كان. ربما يوناثان الذي كان كبير كهنة في ١٥٢ ق.م. أو خلفه سمعان ١٤٣–١٣٥ ق.م.

صفَ الأرستقراطيّة الكهنوتيّة؟ إضافة إلى ذلك، نعلم أن الأسّينيّين ساندوا هيرودس حين لم يكن بعدُ ملكًا. واحد من أنبيائهم اسمه مناحيم تنبأ له السلطة[7]. ولا يكفّ هيرودس عن ترداد هذه النبوءة. فهو ليس من الأسرة الملكيّة، لكن النبوءة تبرّر سلطانه. أتساءل هل ساند الأسّينيّون هيرودس لأنّه انتقد سلطة كبار الكهنة، أي سلطة أعداءهم؟ ما هو موقفهم الآن من الأمراء الهيرودسيّين؟ علينا أن نأخذ في عين الاعتبار أن نبوءتهم سمحت يومًا لواحد من الهيرودسيّين بأن يصير ملكًا. نحن بحاجة إلى معرفة الكثير عن كلّ هذا. ويقودنا باب النبي إلى نقطة أخرى: نحب أن نعرف بعض المعلومات عن نبيّ يمكن أن تكون له علاقة بالأسّينيّين. إنه يعيش في الصحراء هو أيضًا على بعد بضعة كيلومترات نحو الشمال.

شعرتُ بالرعدة. أيريد الرومانيّون أن يقودوني إلى بنّوس؟ سألتُ بحذر:

– ولماذا يهمكم أمره؟

– يهمّنا لأنّه لا يكتفي بمعارضة المجتمع مباشرة، بل يعادي أنتيباس أيضًا.

أيكون بنّوس؟ معارضة المجتمع؟ أمر ممكن. ولكن ما علاقته بأنتيباس؟ ولمزيد من التأكّد سألتُ أيضًا:

– وما له على أنتيباس؟

حرّك متيليوس يده وكأنّه يريد أن يقول إن الشرح يطول، ثمّ قال بطيبة خاطر:

– ربّما تعرف أن العلاقات بين بيلاطس وهيرودوس أنتيباس حاكم الجليل وعبر الأردنّ ليست طيّبة[8]. فبعد موت هيرودس الكبير، قُسِّمَت فلسطين بين أبنائه الثلاثة، وأخذ أرخيلاوس الجزء الأكبر: اليهوديّة والسامرة. لكنّه عُزِلَ بعد عشر سنوات، ووضع حاكم رومانيّ مكانه. بالطبع، أملَ ابنا هيرودس، أنتيباس وفيليبّس في أن يأخذا الميراث. كان أنتيباس أكثرهما خيبة، لأنّه وعِد قبلا بأن يكون الوريث الوحيد. ومنذ ذلك الحين، يستغل جميع الفرص ليبين أن

٧- راجع يوسف حرب *اليهود* ١٥، ١٠، ٥.

٨- راجع لوقا ٢٣: ١٢

الحكّام الرومانيّين يسيئون إدارة البلاد، وأنه أفضل منهم بكثير بسبب معرفته لأخلاق اليهود وعاداتهم معرفة عميقة. إنه ينقل للإمبراطور كلامًا سيّئًا عن بيلاطس قدر ما يستطيع. وعلم بيلاطس أخيرًا بالأمر. لابدّ أنّك تعرف قصّة التروس التي حفرنا عليها الأحرف الأولى لاسم الإمبراطور. أحضرها بيلاطس إلى أورشليم، وعلّقها على جدران حصن أنطونيا حيث يقيم فوج الجند. لا ندري كيف يطابق هذا ما يمنعه الدّين، أو يُعتبر برهانًا على عبادة الإمبراطور. فقد ظهر محتجّون. رئسهم أنتيباس ليقوم بدور المدافع عن الإيمان اليهودي. ووصل الأمر إلى البرهان على أن هذه طريقة لا شكّ فيها لجرح الشريعة الدينيّة. وهذا يبيّن مرّة أخرى كيف لا يفهم بيلاطس دين رعاياه بوجه حسن. احتجّ أنتيباس رسميًّا للإمبراطور. فتلقّى بيلاطس أمرًا من فوق ليرفع التروس[9]. لم يغفر هذا لأنتيباس، خصوصًا وأننا علمنا بفضلك أنه يأخذ حرّيته تجاه الشريعة. فكّر في صور الحيوانات التي لديه بطبريّة! وليس هذا فقط، فقد تزوّج بامرأة أخيه وهو حي. إنه انتهاك لشريعتكم أيضًا. لقد انتُقِدَ. فماذا فعل أنتيباس؟ حبس الناقد. رجل اسمه يوحنّا، قدّيس، نبي يبشّر في صحراء اليهوديّة. حتى نحن الرومانيّين، لم نسمح لأنفسنا بفعل شيء مماثل إلى الآن. يُقال إن يوحنا هذا لاقى إصغاء كبيرًا عند الشعب. لكنّا لا نملك في وثائقنا إلاّ وصفًا عامًّا عنه. سأقرأه لك:

"يوحنّا الملقّب بالمعمدان، إنسان مثاليّ. يعلّم اليهود على أن يجاهدوا لفعل الخير، أي أن ينصفوا الآخرين ويعبدوا الله. فعليهم إذًا أن يتعمّدوا. بحسب تعليمه، ليس لهذه المعموديّة قيمة عند الله إلاّ إذا تبرّر الإنسان من الداخل بممارسة العدل. فالمعمودية لا تطهّر إلاّ الجسد، ولا تغفر جميع الذنوب[10]."

بصراحة، لا نستطيع استخلاص أمور مهمّة من وصف عام كهذا. يمكننا قول ذلك في كثير من القدّيسين. نحن بحاجة إلى شهادة أدق. فقد علمنا أن

---

[9]- يروي فيلون محاولة إدخال التروس إلى حصن أنطونيا وهي بدون صور، وعليها إهداء من الإمبراطور.

[10]- نصّ نقل حرفيًّا تقريبًا عن يوسف الذي يصف المعمدان بطريقة يفهمها قرّاؤه اليونان والرومان. *تاريخ اليهود*. ١٨، ٥، ٢.

هيرودس سجن المعمدان لأنّه يخشى ثورة الشعب[١١]. نحن نتساءل كيف يثير قدّيس مسالم مثله ثورة؟ أنا واثق من أنّ ما قرأته لك يتناسى أمرًا أساسيًّا. فالنص لا يذكر شيئًا عن ثلاث مسائل: أولاً، لماذا يمارس يوحنا دوره في الصحراء؟ لمَ هذا الاعتكاف عن الحياة العاديّة مثل الأسّينيّين؟ لمَ هذا الاحتقار للناس؟ وخصوصًا، هل له علاقة مع النبطيّين جيرانكم في الجنوب؟ ثانيًا، ماذا حلّ بتلاميذ يوحنّا منذ أن ألقي به في السجن؟ هل نقلوا نشاطهم إلى اليهوديّة إذ صارت أراضي أنتيباس خطرة عليهم؟ أعلينا أن نخشى إثارتهم للبلبلة؟ ثالثًا، ماذا سيفعل أنتيباس؟ أيريد أن يترك يوحنا مسجونًا دائمًا؟ هل تشكّل المعارضة التي سبّبها يوحنّا خطرًا على حكمه؟ بالطبع، يهمّنا كلّ ما يمكنه أن يجرّم أنتيباس. فهو يستغلّ جميع الفرص ليسوّد صفحتنا في روما. نحن ننوي أن نرد عليه بالمثل. ربما استطعنا استخدام قصّة الصدّيق السجين هذه. فهيرودس أنتيباس يتباهى دائمًا بمهارته الكبيرة في معالجة المسائل المعقّدة في الدين اليهودي. يمكنك التجوّل في البلاد إذًا على أنّك تاجر حبوب. وحين تجمع بعض المعلومات الأوليّة، أخبرنا بواسطة البريد الرومانيّ، أو ننتظرك لتقدّم تقريرك في أورشليم، لنقل بعد شهرين.

أردتُ الانصراف لكنّ متيليوس تابع كلامه:

– فكّرتُ كثيرًا في دينكم منذ مقابلتنا الأولى. حين جمعتُ المعلومات الأولى عن الأسّينيّين، خطرت لي الفكرة التالية: ألا تعبّر هذه المجموعة عن شيء أساسيّ لشعبك؟ هؤلاء الناس ينقطعون عن الجميع. ينعزلون في الصحراء، بالضبط مثل شعبك حين هرب في الماضي من مصر إلى الصحراء. ألا يخفي هذا احتقاراً للناس؟ رفضًا للغرباء وللشعوب الأخرى؟ أجل، رفض للإنسانيّة جمعاء؟

استأتُ من كلمات متيليوس. تألّمتُ إذ رأيته يتبنّى هذه الأحكام ضدّنا. لأنّ متيليوس رومانيّ له طاقات، وربما كان أمامه مستقبل زاهر. لم أمقته، فهو مثقّف ويسعى إلى فهم ديننا. ومع ذلك يسيء إذ يستخدمه علينا. أجبته بمرارة:

---

[١١]– هذا هو السبب الذي يعرضه يوسف ليشرح سجن المعمدان وإعدامه. (المرجع نفسه ١٨، ٥، ٢).

– انتقادنا بأننا نكره الناس! يا للافتراء! تعلّمنا شريعتنا أن نحترم صورة الله في كلّ شخص.

وأراد متيليوس أن يبرّر نفسه:

– ولماذا كتب أحد خيرة مؤرّخينا أنّكم تتكاتفون وعلى استعداد لدعم بعضكم بعضًا لكنّكم تكرهون الآخرين كرهًا قاتلاً[12]؟ من أين له هذا الانطباع؟ هذا ما أحاول فهمه. لذلك سألتك هل لهذا علاقة بطردكم من مصر. ألم يخلّف لديكم ذلك مشاعر إماتة وولّد لديكم خوفًا من أن تجدوا أنفسكم مطرودين مرّة أخرى كالخارجين عن القانون[13]؟

بدا أنّ متيليوس يخفي حرجه وهو يلفّ الخريطة ليعيدها إلى مكانها. فشرحتُ له:

– لقد أثّر الخروج من مصر فينا تأثيرًا شديدًا. إنّه يعني التحرّر من العبوديّة والخنوع. نحن لا نذكره لنبتعد عن الآخرين، بل لكي لا نرتكب تجاههم الظلم الذي عانيناه في مصر.

فسألني وهو يعقد رباطًا جلديًّا على فوهة كيس الخريطة:

– وماذا يعني هذا في الواقع؟

– أن نعامل الغرباء عندنا مثل الإخوة. لقد أمرنا موسى: "إذا أقام غريب معكم في بلادكم لا تذلّوه. فالغريب الذي يقيم معك يكون مواطنًا بالنسبة إليك فأحببه مثل حبّك لنفسك، لأنّك كنتَ غريبًا في مصر"[14].

---

[12]– ورد هذا على لسان تاسيت في كتابه *التاريخ* (٥، ١ وما يليها) ونجد في أماكن أخرى انتقادًا بـ "الحقد على البشر". نجد هذا أيضًا عند القدّيس بولس الذي يصف شعبه بذلك (راجع ١طيموثاوس ٢: ١٥).

[13]– حتّى هيكاتايوس (حوالي ٣٠٠ ق.م)، مع أنّه متعاطف مع اليهود، يقول إنّ سبب أسلوب "الحياة الخشنة المرتعدة" لليهود هو طردهم من مصر. (راجع ديودورس ١٥، ٣، ٤).

[14]– سفر العدد ١٩: ٣٣ وما يليها، تثنية الاشتراع ١٠: ١٨ وما يليها.

– ولمَ كلّ الحقد في هذا البلد تجاهنا، نحن الرومانيّين؟

وتابعنا النقاش.

– قيل: "لا تجور على الغريب". هل نجور على الرومانيّين؟ مَن يجور على مَن؟

استاء من نبرتي الهجوميّة، فرفع رأسه ونظر إليّ مواجهة:

– نحن لا نجور. نحن نخلق السلام. نحن لا نختلف كثيرًا عن موسى مشرّعكم. نحن أيضًا نعتقد بأن على الغرباء في إمبراطوريّتنا أن يعيشوا بأمان في حماية القانون.

نظرتُ إليه نظرة شكوكة، كان يضع كيس الخريطة في خزانة بالجدار. وفجأة توقّف وأتى نحوي، ووضع يديّه على كتفيّ وقال:

– منذ مقابلتنا الأولى، قرأت وثائق عن موسى، ووجدتُ رواية أخرى عن خروجكم من مصر[١٥]. كان موسى هذا كاهنًا مصريًّا هاجر إلى اليهوديّة مع مشيّعيه لأنّه لم يقتنع بالديانة المصريّة. لقد انتقد المصريّين لعادتهم في تصوير آلهتهم بهيئة حيوانات، وكذلك اليونان لأنّهم يصوّرونها كبشر. الإله الذي يشمل الكل، البحر واليابسة والسماء والأرض وجميع الكائنات، ليس مرئيًّا ولا يمكن مقارنته مع أيّ شيء مرئي، وعلينا ألاّ نصنع له صورة. لهذا نظّم موسى في أورشليم عبادة بدون صورة، وعلّم كيف يجب على الإنسان أن يعبد الله. لكنّ خلفاءه كانوا كهنة يؤمنون بالخرافات، فدفعوا الشعب إلى أن يتميّز عن الآخرين من خلال الممنوعات في شأن الطعام والختان. فأخفت هذه التقاليد الفكرة الموسويّة العظيمة عن عبادة الإله عديم الصورة. أرى أنّ تقديم الأمور على هذا الشكل مدهش. أعني لو اقتصر الأمر على عبادة الإله عديم الصورة، لتفاهم اليهود واليونانيّون. فبعض الفلاسفة اليونانيّين يؤكّدون هم أيضًا أنّه من السخافة تصوير الله في هيئة حيوانيّة أو إنسانيّة. ما رأيك بهذا؟

١٥– نجد هذه السيرة في كتاب الجغرافيا لسترابون أمازيا Strabon Amaseia (١٦، ٢، ٣٥) الذي ولد سنة ٦٣/٦٤ ق.م.

- هل علّم هؤلاء الفلاسفة الشعب اليونانيّ أن يتخلّى عن صورَه لله؟ هل جعلوا أحدًا يبتعد عن عبادة عدّة آلهة معًا؟ لا! لقد نقصتهم الشجاعة لمعارضة الديانة التقليديّة وفرض فكرة الإله الواحد الوحيد. موسى وحده تحلّى بالشجاعة لفعل ذلك. وقد تبنّينا نتائج ذلك نحن، اليهود[١٦].

تراجع متيليوس خطوة، وأخذ صوته نبرة حماسيّة:

- هذه هي المشكلة بالضبط يا أندراوس! ضع نفسك مكان الآخرين! كيف يمكن لدينكم أن يؤثّر فيهم؟ أنتم تعبدون إلهًا وحيدًا لا أسرة له. إنّه معزول عن الآلهة كما أنّكم معزولون عن الشعوب الأخرى. لو لم تشكّل آلهة الشعوب أسرة، كيف تصير الشعوب أسرة واحدة؟ كيف يمكن للسلام أن يسود بينها؟

اعترضتُ

- لا تشكّل آلهتكم قطّ أسرة سلام. إنّها تتشاجر فيما بينها وتتصارع. إنّ عبادة جميع الناس لإله واحد يمكنها وحدها أن تخلق السلام على الأرض.

- حقًا؟ أليس الذين يرفضون الآلهة الأخرى مثلكم، يرفضون في الآن نفسه الذين يكرّمونها؟ ألا يصبو مَن يعلن كلّيّة قدرة إلهه إلى أن يكون كلّيّ القدرة؟ ألا تفهم أنّ الآخرين يشعرون بالتهديد بسبب ذلك؟

- إذا لم يكن الإله غير المرئيّ مع السادة بل مع الضعفاء، فمَن يهدّد مَن؟

- لم يكن اليهود ضعفاء دائمًا. لقد أسّسوا إمبراطوريّات قويّة.

- لكنّ شعبنا الآن مُستعمَر. مَن نهدّد؟ ولماذا أنا خطر، أنا الذي بين يديك؟

تجهّم وجه متيليوس

- نعم. أنتم شعب مستعبَد. لكن هدف السياسة الرومانيّة هو مصادقة الشعوب المحتلّة. وهو ما أسعى إليه في هذا البلد. لهذا أهتمّ بديانتكم. لقد

١٦- نجد في كتابات يوسف فكرة اكتشاف الفلاسفة للإله الحقيقي. لكنّهم لم يتحلّوا بالشجاعة الكافية مثل موسى لاستخلاص النتائج (ضدّ أبيون ٢، ١٦).

تعلّمتُ اليوم أشياء كثيرة في هذا الموضوع. وأفهم الذين يقولون إن اليهود شعب فيلسوف[١٧]. فحياة الفلاسفة صعبة. وسرعان ما يُعتبرون ملحدين أو مثيري الاضطرابات. لقد طُرِدَ أنكساغوراس وأُجبِرَ سقراط على شرب السمّ. لماذا؟ لأنّ لديهم أفكارًا جديدة وشاذّة. وأنتم أيضًا، اليهود، لديكم فكرة جديدة شاذّة: الإيمان بإله واحد يساعد الفقراء. إنّها نظرة فخمة، لكنّها تضع على كاهلكم حملاً ثقيلاً، وهو أن تكونوا مختلفين عن سائر الشعوب.

– إنّها في غالب الأحيان حمل، لكنّها رسالة عظيمة أيضًا، وهي الشهادة للإله الحيّ حتّى تعرفه جميع الشعوب.

وسألته عن تيمون قبل أن نفترق، فأجابني متيليوس أنّه سيُطلِق سراحه في الغد. فألححتُ ليستعيد حريّته مباشرة. تردد متيليوس، فضغطتُ عليه كما ضغط موسى على فرعون:

– دعنا نرحل! فنقوم بمهمّتنا منذ اليوم.

وفي النهاية رضي.

١٧– رأى تيوفراست الأرسطو طاليسيّ (٣٧٨-٢٨٨/٢٨٧ ق.م.) في اليهود "عرق فلاسفة". أما الكاتب اليهودي أرسطوبول (القرن الثاني قبل الميلاد) فقد قال إن اليهود "مدرسة فلسفيّة".

الفصل الخامس

جماعة الصحراء

اجتمعنا ثلاثتنا مرّة أخرى. في ليلة إطلاق سراح تيمون شرعنا في البحث عن ملخوس، ووجدناه في أورشليم عند أناس نعرفهم. توجّهنا إلى البحر الميّت. كنّا نريد الذهاب إلى الأسّينيّين. المشكلة هي أن نعرف هل سنتمكّن من ذلك. ما العمل؟ كيف يمكننا التغلّب على حذرهم من الغرباء؟ لم أكفّ عن التساؤل هكذا طوال الطريق. هل علينا أن نقدّم لهم هديّة؟ إنّ المال يفتح جميع الأبواب! فلماذا يُستثنى أهل قمران من هذه القاعدة؟ لكنّهم تخلّوا عن الثروة والملكيّة الخاصّة. كلّ شيء ملك للجماعة. وبحسب ما سمعت، تعيش هذه حياة هانئة. فالأسّينيّون يزرعون الأرض ويصنعون الفخّار وينسخون المخطوطات ويهتمّون بتربية الأسماك ويبيعون الملح وقُفَر اليهود المستخرج من البحر الميّت[1]. إنّ لديهم واردات تعصمهم عن المال. أعليّ التظاهر بأنّي أريد الدخول في جماعتهم؟ أليس عليهم عندئذ أن يخبروني عن جميع أسرارهم؟ لكنّي أعتقد أنّهم سيجمعون معلومات عنّي أكثر من حصولي على معلومات عنهم. فعلى ما أعلم، تستغرق الموافقة على الانضمام إليهم عدّة سنوات[2]. يلزمني وقت طويل لأكسب ثقتهم. ربما مكّنني بنّوس من الوصول إليهم: لا بدّ أنّهم يقبلون ناسكًا في الصحراء بسبب تقارب الروحانيّات. كيف أحثّه على القدوم معي إلى قمران؟ عليّ في البداية أن أجده. لكنّ هذا لن يكفي لحلّ جميع المشاكل. ألن يعتبرني جاحدًا؟ يبدو أنّ الوصول إلى الأسّينيّين صعب جدًا.

---

[1]- وجِدَت في قمران ورشة لصناعة للفخّار وأماكن للنسخ. ويمكننا الاعتقاد بأنّهم كانوا يبيعون نسخًا من الكتاب المقدّس. وبالتأكيد، كانوا يزرعون الأرض. وأعطى البحر الميّت دائمًا مادّة الملح وقُفَر اليهود.

[2]- بحسب يوسف (*حرب اليهود* ٢، ١٣٧ وما يليها)، للدخول في الجماعة، يجب أوّلاً قضاء سنة في الخارج (ربما في الصحراء) لاختبار نمط الحياة قبل أن يُقبَلَ المرشّح في سنيّ الابتداء. ولا يصير عضوًا إلاّ بعد ثلاث سنوات.

قادنا الطريق إلى طبيعة جرداء كالبحر الميّت: هضاب رمليّة بائسة لا تسمح بالنظر إلاّ إلى بضعة مئات من الأمتار. لا وجود لشجرة أو عليقة، ويجب الاقتراب من نهر الأردن لرؤية الأحراش نامية. لقد أمضيتُ وقتي مع بنّوس في طبيعة كهذه. ولكنّ نحو الأعلى، في شمال وادي الأردن. تقدّمنا ببطء في هذا الإقليم الكئيب. ما الذي هناك! أرجل أم خدعنا النور البرّاق؟ يستحيل أن نخطئ الآن! فعلى مسافة منّا تحرّك شكل معتم. أتراه تائهًا؟ ليس معه حمار ولا فرس. ومع اقترابنا لاحظنا أنّ الشكل يتحرك ببطء. إنّه جالس على الأرض الآن. حثثنا الخطى. ربّما استطعنا أن نسعفه. لماذا يرفع الرجل يده؟ أيريد أن يعطينا إشارة؟ يبدو أنّه يريد الدفاع عن نفسه. اقتربنا منه كثيرًا واستطعنا تمييزه. جسد نحيل متربّع على الأرض. إنه يحتاج إلى مساعدة بدون أيّ شك! ومع ذلك تابع رفع يديه علامة على الرفض. أيرى فينا أعداءه؟ لصوصًا يسلبونه ويسيئون إليه؟ نزلتُ عن حصاني وأبعدتُ الآخرين، وحملتُ في يدي بطريقة مرئيّة زمزميّة ماء لأفهِمَه نواياي الحسنة. اقتربتُ منه بحذر لكن الرجل تابع الدفاع عن نفسه، وسمعته يصرخ فيّ: "لا! لا!". تردّدتُ. هل يهذي؟ أم أنّه ممسوس بائس دفعه شيطانه إلى الصحراء؟ يحدث أن يهلك أناس من هذا النوع بطريقة مؤلمة إذا لم يُعنى باقتيادهم إلى القرب من الأماكن الآهلة حيث يستطيعون العيش من التسوّل. وفيما أقترِب حاول الغريب الفرار. نهض وهو يترنّح. كان منهك القوى. أمسكتُ به وقلتُ:

– سلام. أنا أندراوس بن يوحنّا.

وصمت الرجل.

– ألا تريد أن تأكل وتشرب؟

هزّ برأسه وتمتم:

– لا يحقّ لي.

نظرتُ إليه دهشًا

– تبدو أنّك في أمسّ الحاجة إلى ذلك.

– لا، لا يحقّ لي. لقد منعوني عن ذلك.

- لا أفهم!

- لا أحد يستطيع الفهم! أرجوك فقط، تابع طريقك واتركني لمصيري. اذهب! فهذا أنسب للجميع!

تضايقتُ من الأمر. أتراه مجنونًا؟ أهو ممسوس بشيطان يدفعه إلى إهلاك نفسه بلا رحمة؟ هل نذر نذرًا؟ أم أنّه من أولئك المتطرّفين الذين يصومون حتى حدود فقدان الوعي لينالوا رؤى ويلجوا الأسرار السماويّة؟ شيء واحد أكيد: إنّه يموت جوعًا وعطشًا. لماذا لا يقبل أيّة مساعدة؟ غيّرتُ أسلوبي، وتكلّمتُ بلجة المتوسّل:

- لقد أخطأنا الطريق. ألا تستطيع أن تساعدنا؟

ارتعد الغريب. لقد أصبتُ الوتر الحسّاس. كثير من الناس لا يقبلون المساعدة إلاّ إذا تركناهم يقومون بدور المخلّص. سألني:

- إلى أين تريدون الذهاب؟

- إلى الأسّينيّين.

عبس

- ألا تستطيع أن تقودنا إليهم؟

هزّ برأسه ثمّ قال:

- سأريكم الطريق، لكنّي لن أذهب معكم. لا أطلب منكم إلاّ شيئًا واحدًا. أتستطيعون أن تبلّغونهم رسالة؟

- بالطبع! ماذا علينا أن نقول لهم؟

- قولوا لهم إنّي، باروك بن براخيا، أتمنّى السلام لإخوتي. أرجوهم أن يقبلوني ثانيةً بينهم. أنا على حافّة قواي، ولن أصمد طويلاً[٣].

٣- كتب يوسف في شأن الأسّينيّين: "يطردون من تنظيمهم مَن يرتكب مخالفات كبيرة. ويهلك المطرود غالبًا في موت بائس، فبارتباطه بنذور وعادات، لا يستطيع حتى مشاركة يهود آخرين طعامهم. وإذ لا يأكل إلاّ العشب، يهلك منهكًا من الجوع. لهذا بالضبط، يعيدون أكثر من واحد قبل النفس الأخير شفقة، معتقدين بأن العذابات التي نالها حتى الموت تكفي لغفران خطيئته (حرب *اليهود* ٢، ١٤٣-١٤٤).

– ألنت أسّيني! أألقوك خارجًا؟ طردوك إلى الصحراء؟ لماذا تتيه إذًا في هذه الطبيعة الكئيبة بدل أن تذهب إلى أريحا أو أورشليم؟

– على المطرود من الجماعة ألاّ يقبل أيّ اتصال مع الآخرين، وألاّ ينال طعامًا منهم ولا حتى كوب ماء. وإلاّ، يفقد الأمل في أن يُقبَلَ ثانية!

– لكن هذا غير إنسانيّ! أيّة جريمة اقترفت لتُعامل على هذا النحو؟

– حين دخلنا في الجماعة أقسمنا على أن نصمت[٤].

هل باروك مجرم؟ لا! إنّه مطرود! أيشعر المجرم بواجب الإخلاص إلى وعوده؟ هل يكون مخلصاً على هذا النحو عند الحاجة القصوى؟ ما هي سلطة الجماعة إذًا على هذا الشاب لكي يقبل الهلاك بهذه الطريقة الرهيبة بدلَ أن ينفصل عنها؟ هذه السلطة تستولي عليه كالشيطان بحيث لا يعرف إلاّ حلّين: إمّا أن يعود إلى جماعته أو يهلك في الصحراء! آه لو أعرف كيف أعيد إليه طعم الحياة! وخطرت ببالي فكرة:

– لو مرّ ناسك في الصحراء من هنا، شخص ينتظر الله مثلك، أيستطيع مساعدتك؟

هزّ باروك رأسه:

– جميع الذين ليسوا من الجماعة هم من أبناء الظلمة.

شعرتُ بالعجز أمام روحانيّة هذه الجماعة، لكنّي لم أستسلم.

– حسنًا! لا تقبل طعامًا أو شرابًا من أحد. ولكن هل عليك أن ترفض يد الله أيضًا؟ إنّه ينبتُ العشب ويعطي الفاكهة دون تدخّل الإنسان. ألا تريد الأخذ من هذا الطعام؟

– لكنّ هنا لا ينبت شيء.

قلتُ له:

– تعال! سأقودك إلى مكان تجد فيه طعامًا لم ينجّسه إنسان.

٤- المرجع نفسه ٢، ١٤١.

علّمني بنّوس كيف نتغذّى من النباتات والجراد والعسل البرّيّ، وقد أخذ ذلك عن البدو[٥]. وفهمتُ من ردّ فعل باروك أنّي انتصرتُ. تناوبنا في حمله على أحصنتنا وتوجّهنا إلى نهر الأردنّ. وبعد قليل، اقتربنا من الحزام الأخضر الذي يعبر الصحراء، ويذكّر باستحالة تصحير الحياة تصحيرًا كاملاً. قدنا باروك إلى حافّة الماء. جثا في وسط النهر وشرب. كان الماء يغمره تقريبًا. وفي تلك الأثناء، جمعت مع تيمون وملخوس بعض الأعشاب والفاكهة والجراد اللذيذ إذا كان مشويًّا. وأكل باروك. أكل من كلّ ما قدّمته الطبيعة له. أكل وشرب. كانت رؤيته متعة لنا. وكأن الحياة غلبت الموت.

جلسنا في ظلّ جمّيزة، والصحراء تمتدّ أمامنا وكأنها خراب كارثة تمّت منذ قديم الزمان. ووراؤنا جنّة عدن الأردن. يا للمعجزة. أن نرى النباتات والعلّيقات والأشجار تنبثق في هذه الطبيعة. يكفي قليل من الماء لتحويل هذا الحقل البائس إلى حديقة غنّاء. وفكّرتُ فجأة بأنّ الحياة تنمو دائمًا على حواف الموت، حيث تصير الغابة صحراء، ويتحوّل الماء إلى بحر ميّت، والنور إلى حرارة مرهقة.

كان من الواضح أنّا لا نستطيع ترك باروك في هذه الصحراء. سيموت. ما العمل؟ أعلينا أن ننقل رسالته؟ أعلينا مساعدته على العودة إلى جماعته؟ كانت مشاعري تثور على فكرة كهذه. تملك هذه الجماعة سلطة غريبة عليه، قاتلة. أترى السلطة هي بزار الحياة الخفيّة هذه؟ ولكن أيّ خراب أو موت لا تولّدهما؟ وتساءلتُ أيضًا هل سيقبلونه. ما الذي فعله؟ أتراه ارتكب خطأً رهيبًا فعلاً؟ حتى في هذه الحالة يمكن لباروك أن يساعدني. يمكنه أن يعطيني كمّيّة من المعلومات عن الأسّينيّين مع قليل من التحفّظ لأنّه انفصل عن جماعته. لا بدّ أنّه تعلّم أشياء كثيرة، وما عليّ إلا أن أجعله يقولها. كان في إجابته على سؤالي شيء من التهرّب:

٥- يروي يوسف أنّ بنّوس كان يتغذّى "ممّا ينبت لوحده" (سيرة ذاتيّة ١١) ويمكننا أن نقارن طعامه مع يوحنّا المعمدان (مرقس ١: ٦)

- لا أستطيع أن أقول شيئًا عن هذه النقطة. لأنّي أفشي بذلك أشدّ أمور جماعتنا سرّية.

ألححتُ:

- لماذا تحجبون كلّ أسراركم؟

- على من يأتي إلينا أن يتخلّى عن الحياة العاديّة إلى الأبد. لأنّه اكتشف الطريقة التي يُهلك بها الناس أنفسهم دون أن يعوا. يجب ألاّ يكون له علاقة بهم، فهم يدفعونه إلى هجر الطريق الذي سلكه يومًا. عليه أن يحرق جميع الجسور ويقطع كلّ الاتصالات. يقسم بدخوله الجماعة على ألاّ يحبّ إلاّ أعضاءها، وأن يكره جميع أبناء الظلمة، وألا يكترث بأيّ شيء خارج الجماعة، وإنّما بها فقط[٦].

- تقسمون على كره الآخرين؟

- نعم.

كان تيمون وملخوس يذوقان الفاكهة التي وجدناها وهم يتابعون الحوار بانتباه. وقد أحبّا التين الشوكي بوجه خاص، وتركا الجراد المشوي. وتدخّل تيمون في المحادثة:

- هل تكرهنا فعلاً؟

حرّك باروك رأسه وتمتم:

- أكره أبناء الظلمة الذين يحتقرون وصايا الله.

وتدخّل ملخوس أيضًا:

- أتريد حقًا أن تعود إلى أولئك الناس؟

- وماذا أستطيع أن أفعل غير ذلك؟

- ألا تستطيع العودة إلى قريتك؟

٦- راجع القوانين (١، ٩-١١). بحسب القانون الأسّيني، من واجب الأسّينيّين أن "يحبّوا جميع أبناء النور، كلّ واحد وفقا لما ينصبح الله به، وأن يكرهوا أبناء الظلمة، كلّ واحد بحسب ما يستوجب غضب الله".

– تركتُ كلّ شيء. بعتُ ميراثي وأعطيتُ المال للجماعة. أنا مستسلم لها كلّية.

– أليس لديك أهل، إخوة أو أخوات؟

– انقطعتُ عن أسرتي. يستحيل العودة إلى الوراء. إمّا أن أعود إلى الجماعة أو أستمرّ في الحياة بالصحراء.

وطأطأ رأسه وصمت. سكت تيمون وملخوس أيضًا، وكأنّ صمتنا ذاب بصمت الصحراء. وفي النهاية قلتُ:

– أنا أيضًا هجرتُ الحياة العاديّة يومًا مثلك يا باروك. توجّهتُ إلى ناسك في الصحراء. كنت أبحث عن الحياة الحقيقيّة. واكتشفتُ أنّ الإنسان لا يفلت من تناقضات الوجود حتى في العزلة. سأقترح عليك أمرًا: تعال معنا. يمكنك أن تعيش عندنا. سنساعدك على أن تنطلق مرّة أخرى.

رفض باروك:

– علينا ألاّ نثق بأحد خارج جماعتنا.

رددتُ عليه:

– لكنك وثقت بنا يا باروك.

أجاب بارتباك:

– ربما أنتم على حق.

– أيمكنك أن تثق بالأسّينيّن حقًّا؟

فصرخ:

– إنّه بالضبط سبب نقاشنا. أردتُ جماعة يوثق بها.

وفجأة، صار يتكلّم بحرّية، وروى قصّة طرده. كان يتكلّم بجمل مبتورة، والإثارة تدفعه باستمرار إلى قطع كلامه. لكنّا مع ذلك فهمنا.

– على من يدخل الجماعة أن يتخلّى عن جميع أمواله. لهذا يُسمّى أعضاء المجموعة: "الفقراء بالروح". يُعتَبَر الغنى خطوة نحو الهلاك. ولكن في الابتداء، يرى الجدد ألواحًا نحاسيّة غريبة لا يتمكّن من قراءتها إلاّ

المشرفون[٧]. وهي تحوي معلومات عن كنوز رائعة، وتصف بالضبط أين يمكن الحفر للحصول عليها. ويُذكر فيها أيضًا نوعيّة المعادن وكمّيّتها. لم يرَ أحد هذا الكنز، لكنّ الجميع يؤمنون بوجوده.

عندئذ فكّر باروك بأنّ الجماعة تخلّت في الواقع عن فقرها. كيف يقولون عن أنفسهم: "فقراء"، وهم يحتفظون بأموال تفوق مدخول اليهوديّة والجليل والسامرة مجتمعة؟ كان الأجدر بهم أن يستخدموا المال لمساعدة الفقراء. وجرى نقاش تجرّأ باروك في أثنائه أن يعلن فرضيّة عدم وجود الكنز أصلاً. ربّما يُخبَر المبتدئون بذلك ليسهل عليهم التخلّي عن أموالهم. إذ يجب إقناعهم بأنّهم محميّون من العوز الماديّ. لكنّه لم يقبل بأنّ تبنى حياتهم الجماعيّة على الأوهام. فإمّا إثبات وجود هذا الكنز فعلاً أو عدم الإخبار عنه. لم تتحمّل غالبيّة أعضاء الجماعة شكّه في وجود غشّ ما، فطُرِدَ مباشرة بحجّة أنّه ينال من سلام الجماعة.

سألته بالتفصيل عن الأسباب التي تستوجب الطرد، فذكر بعضها:

– طرد لمدّة سنة وتخفيض في حصّة الطعام مدى الحياة، في حال عدم التصريح بصدق عن الأموال عند الدخول في الجماعة. نصف سنة للكذب أو الغضب على واحد من الجماعة أو إذا تجوّل المرء عريانًا. شهر للخلل بالنظام في حال اجتماع الجماعة. على سبيل المثال، إذا ابتعد واحد بدون إذن أو تفل في أثناء الاجتماع أو ضحك بصوت عالٍ. عشرة أيّام طرد لمن ينام في الاجتماع أو يحرك يده اليسرى وهو يتكلّم[٨].

قلتُ:

– عقوبات قاسية. أتريد حقًّا أن تعود إلى هذه الجماعة؟ لماذا أنت متعلّق بها؟ لماذا دخلت فيها؟

٧- في إحدى مغر قمران، تم العثور على ألواح نحاسيّة سمّيت: "ملفوفات النحاس" كُتِب عليها بالعبريّة معلومات عن كمّية الثروة المخبّأة، والتي لم يتم العثور عليها حتى الآن. ربما تعلّق الأمر بثروة الأسّينيّين، أو ثروة الهيكل، أو ثروة خياليّة.

٨- وجِد قانون العقوبات هذا في قانون البدعة (راجع القوانين ٦، ٢٤ . ٨، ٢٥).

– أوّل ما سمعته عن الأسّينيّين هو أنّهم يرفضون الاستعباد. ينبذونه لأنّهم يروا فيه خرقًا للمساواة بين البشر. إنّه يتعارض مع قوانين الطبيعة. فهذه ولّدَت جميع الناس وأطعمتهم. كلّهم إخوة إذًا. لكنّ الغنى وحده فرّق بينهم. هو الّذي حوّل الثقة إلى حذر، والصداقة إلى حقد[9]. سحرتني أفكار كهذه. أين نجد جماعة ترفض الاستعباد؟ ولا في أيّ مكان.

– ألم تبدّلوا استعباد البشر بعبوديّة للشريعة أشدّ منه قساوة؟

– تعترض جماعتنا على أسلوب الحياة الاعتيادي! مَن أراد أن يتميّز عليه أن يلحّ بشدّة على ما يباينه عن سواه. يجب على شريعتنا أن تكون قاسية!

وأضاف بعد استراحة قصيرة:

– أنت لا تنظر إلاّ إلى الجانب المؤلم في حياتنا، ولا ترى الباقي: فرح الخلاص من عالم يسحق فيه الناس بعضهم بعضًا، ويستغلّون ويعذّبون. نحن ننتظر تغيّرًا عظيمًا للكون، ونعيش منذ الآن بالطريقة التي سنحياها في العالم الجديد. هذا ما نرتّله في نشيد رائع تركه لنا مؤسّس جماعتنا[10]:

أسبّحك يارب لأنك انتشلت حياتي من الموت.

حرّرتني من الجحيم، فها أنا في عالم جديد، أعيش بحسب شريعته.

أعلم أنّي أستطيع العيش بالرجاء مع أني من التراب جُبِلتُ.

فأنت تحرّرني من زلاّتي لأدخل في جماعة الصدّيقين.

نرتّل أحيانًا هذا النوع من الأناشيد في أثناء تناول الطعام[11]. نحن نحبّها بوجه خاص. لقد تطهّرنا جميعنا. نخرج من حمّام بارد ونبدّل ثياب العمل،

٩– المقطع الأخير هو من فيلون بتصرّف. بالفعل، انشهر الأسّينيّون برفض الأشكال غير الإنسانيّة للملكيّة وللاستعباد. ففي الكتابات المكتشفة بقمران، لا يُشار قطّ إلى هذه النقطة. لكنّ جماعة الصحراء لم تعرف الاستعباد.

١٠– تحوي أناشيد التسبيح المكتشفة في مغاور قمران الأسلوب الشعري للمزامير غير القانونيّة. ويعود تاريخ بعضها إلى "سيّد العدل". والنصّ هنا مُستنبط من النشيد الثالث (النشيد ٣، ١٩ وما يليها).

١١– يصف يوسف وجبات الأسّينيّين هذه في حرب اليهود (٢، ١٢٩–١٣٣). ونجد وصف للوليمة المشيحيّة المنتظرة في القوانين (٢، ١١–٢١).

فيحضر الخبّاز الخبز ويعطي الطبّاخ كلّ واحد طعامه، ويبارك الكاهن الأكل. كلّ شيء يتمّ بهدوء. لا يلاحظ المراقب الغريب أموراً كثيرة. لكنّا نعيش هذه الوجبات الجماعيّة كمذاق أوّلي لوليمة المستقبل. ففي العالم الجديد، سيجلس المشيح معنا إلى المائدة. وكما قلتُ قبلاً، لا يمكننا إفهام ذلك لمن ليس منّا. لا يشعر بهذا الفرح إلاّ من ينتمي إلى الجماعة.

قاطعته:

- سأشعر بهذا الفرحِ أيضًا إذا أتيت وأكلت معنا.

نظر إليّ باروك دهشًا. أخذت ببطء بعض البلحات من حقيبتنا وقدّمتها له. نظرتُ إليه مع تيمون وملخوس نظرة رجاء. هل سيأخذ منها؟ تردّد. لم يقل واحد منّا شيئًا. كان كلّ شيء صامتًا. وحام التوتّر فوقنا. قدّمت له البلحات مرّة أخرى فأخذها وقال: "شكرًا". وقسّمها بيننا، فضحكنا وأكلنا. صار باروك واحدًا منا. وعدنا في اليوم نفسه من الصحراء إلى الحياة، أي إلى أريحا. ظلّ باروك معنا. وفي أثناء المقابلة الطويلة، علِمتُ كلّ شيء عن الأسّينيّين، أكثر مما رجوتُ. سحرتني هذه الجماعة حتى وإن بدت لي غريبة الطباع. وفي فندق أريحا، طلبت ورقة بردي، ودوّنتُ أوّل تقرير عنهم. كان النزلاء، وغالبيّتهم من التجّار، يرتاحون في ظلّ الفندق. أمّا أنا، فجلستُ في غرفة صغيرة وكتبتُ.

عن الأسّينيّين

يشكّل الأسّينيّون جماعة منظّمة جدًا ترتكز على المسائل الدينيّة. انعزلوا في الصحراء لأنهم يعتقدون أنّهم لا يستطيعون إتمام وصايا الله في الحياة العاديّة. وهم يختلفون خصوصًا عن سائر اليهود بتقويمهم: يحدّدون أعيادهم وفقًا للحساب الشمسيّ، بينما يتبع الباقون الحساب القمري. وبالنتيجة، لا يستطيعون المشاركة في العبادة بالهيكل. فأيّام الاحتفالات عند الآخرين هي أيّام عاديّة عندهم. وعلى العكس، أيّام أعيادهم هي أيّام عاديّة للآخرين[12]. ليست

١٢- أسباب التقويم الشمسي مشروحة في "كتاب الفلك" بالسفر الأوّل لأخنوخ (١ أخنوخ ٧٢-٨٢) المكتشف أيضًا في قمران. لكنّ هذا المؤلّف كان منتشرًا خارج قمران أيضًا مثل مؤلّفات أخرى تعتمد على التقويم الشمسي.

علاقاتهم مع الأرستقراطية الكهنوتيّة في أورشليم متوتّرة كما من قبل. صحيح أنّهم لا يشاركون في تقديم الذبائح، لكنّهم يرسلون التقادم للهيكل.

إنّهم لا يشكّلون أيّ خطر على الدولة. فعند الدخول في الجماعة، يُقسم جميع الأعضاء على ألاّ يرتكبوا أي عمل من أعمال قطّاع الطرق (إذًا ولا أي مساعدة ضدّ الرومانيّين). لا يخبّئون أسلحة، ويكتفي كلّ واحد بحمل سيف لحماية نفسه في حال الخطر [١٣].

يشرح الأسّينيّون شريعتنا في شأن الزواج بطريقة صارمة. إنّهم يرفضون تعدّد الزوجات، ويقولون إنّ الله خلق البشريّة رجلاً وامرأة لا رجلاً وامرأتين. إذا كان على المرأة أن تتّخذ زوجًا واحدًا فقط، فالعكس صحيح أيضًا. وهم يقولون بكلّ منطقيّة، إذا كان الرجل لا يستطيع أن يتزوّج عمّته أو خالته، فالمرأة أيضًا لا تستطيع أن تتزوج عمّها أو خالها. إنهم يرفضون الطلاق أيضًا[١٤]. نظرًا إلى هذه الطريقة في شرح الزواج، لا يمكنهم إلاّ نقد أمرائنا الهيرودسيّين: عاش هيرودس الكبير مع عدّة نساء معًا. وتزوّج أبناؤه غالبًا بنات إخوتهم أو أخواتهم. من الواضح إذًا أن يدينوا زواج هيرودس أنتيباس من زوجة أخيه.

ومع ذلك، لم أكتب أن الأسّينيّين يكرهون الرومانيّين. لا بدّ أنّهم تخلّوا مؤقّتًا عن المقاومة المسلّحة. لكنّهم يحلمون بحرب كبيرة في آخر الأزمنة حيث يتّحد أبناء النور ليقهروا أبناء الظلمة ويبيدونهم. المسألة الوحيدة هي معرفة متى يفكّرون أنّ الأيّام الأخيرة قد حانت. عندئذ، عندئذ فقط، يمكنهم أن يصيروا خطرين[١٥]. لم أذكر أيضًا انتقادهم الجذري للسلطة والغنى كما صاغته جماعتهم. فأصحاب السلطة لا يمكنهم إلاّ نبذ مَن يكوّنوا إثباتًا حيًّا لإمكانيّة العيش بدون ملكيّة خاصّة: إنّهم شديدوا الخطر عليهم. وصمتّ أيضًا

١٣– بحسب يوسف (حرب اليهود ٢، ١٤٢)، على الأسّينيّين أن يقسموا "بألاّ يسرقوا البتّة". ولا يحملون في السفر إلاّ "سلاحًا واحدًا للدفاع عن أنفسهم ضدّ اللصوص"، لأنّهم يعتمدون على إيجاد مكان يستقبلهم عند الأسّينيّين الآخرين (المرجع نفسه ٢، ١٢٠).

١٤– نجد شرائع الزواج هذه في مخطوط دمشق (٤، ٢٠ و ٥، ٢ و ٥، ٧–١١).

١٥– وصف آخر الأزمنة موجود في كتابات اكتُشِفت في مغاور قمران، ملفّ قواعد الحرب.

العيش بدون ملكيّة خاصّة: إنّهم شديدوا الخطر عليهم. وصمتُّ أيضًا عن الانتظار بتلهّف لقرب انقلاب الأمور ومجيء ملك وكبير كهنة مشيحانيّ. فأهل السياسة يعتبرون دائمًا أنّ كلّ نبوءة تتكلّم على تغيير هي خطيرة. وقد رأينا أباطرة يمنعون جميع التنبوءات.

كنت غارقًا في تفكيري بالأسّينيّين حين حدثت جلبة أمام الفندق. لقد جرى أمر ما. أصغيتُ فلم أسمع إلاّ أجزاء جُمَل. قُتِلَ إنسان. سمعت أصواتًا غاضبة ثمّ تذمّر وفي آخر الأمر همس غير مفهوم. هممتُ بالخروج فهرع إليّ باروك وقال:

– أتعرف آخر الأخبار؟ لقد قتلوه.

– مَن؟

– يوحنّا النبيّ.

الفصل السادس

تحليل الجريمة

كان باروك يلهث:

– لقد أعدم هيرودس أنتيباس يوحنا المعمدان! كلّ المدينة تتناقل الخبر.

صُدمتُ. قصّة رهيبة أخرى! عليّ أن أعرف المزيد. يا لحسن حظّ بيلاطس! في يده الآن الانتصار على أنتيباس. وصل به الأمر إلى قتل صدّيق! تجمّع حشدٌ في الساحة أمام الفندق. كان الشاب الذي أتى بالخبر الفظيع في الوسط يردّ على الأسئلة المنهمرة عليه قدر ما يستطيع. شققتُ لنفسي طريقًا إلى حيث يصلني صوته. كان الشابّ يتكلّم ويحرّك يديه:

– هيروديّا، امرأته الجديدة وراء المسألة! تريد أن تتزوّجه مهما كلّف الأمر مع أنّ هذا يخالف شريعتنا، لأنّ عليها أن تطلّق أوّلاً أخًا لأنتيباس من والده[1]. هذه المرأة لا تخشى شيئًا. إنّها المذنبة في موت النبيّ. أرادت أن تُسكت الانتقادات على زواجها الثاني.

صفّق الجمهور. وقال شخص آخر:

– هيروديّا شديدة الاحتيال وهيرودس رجل طيّب. بكلّ تأكيد، لم يكن لديه شيء ضدّ المعمدان. لا بدّ أنّه لم يأمر بإعدامه إلاّ مرغمًا. ربّما وعد امرأته في يوم كان فيه سعيدًا بأن يلبّي لها واحدة من رغباتها، فطلبت منه عندئذ رأس المعمدان.

في هذه الأثناء صاح ثالث:

لا يمكن لامرأة أن تفعل كلّ هذا وحدها! كانتا اثنتين: هيروديّا وابنتها سالومة. لقد حضر أعيان الجليل وعبر الأردنّ وليمة، وساد الهرج والمرج. كان أنتيباس يشرب كثيرًا من الخمر. عندئذ بدأت سالومة بالرقص وسُرَّ الجميع. فوعدها أنتيباس بتلبية أيّة رغبة لديها حتى إعطائها نصف مملكته. لا بدّ أنّه توقّع شيئًا مسالمًا. واحدة من رغبات فتيات في سنّها. لكنّ سالومة أصغت إلى إرادة أمّها، وأرادت رأس المعمدان.

---

[1]– قيل في سفر الأحبار: "وعورة زوجة أخيك لا تكشف، فإنّها عورة أخيك" (١٨: ١٦). تزوّجت هيروديّا أوّلاً أحد أبناء هيرودس الكبير واسمه هيرودس فيليبس.

كان الأمر واضحًا لي. فالقصّة ليست إلاّ من ثرثرات البلاط[٢]. سيُقال في النهاية إنّ سالومة أغوت عمّها أنتيباس. جميع هذه القصص تتوافق مع النمط المعروف: لنشر مؤامرة في البلاط، نحتاج إلى امرأة خبيثة وأمير طيّب، وضحيّة، ووعد قُطِع في لحظة طيش، الخ. لا يمكن للحقيقة أن تكون بهذه البساطة. التفتُّ إلى الذي تكلّم أوّلاً، وشعرتُ بأنّ كلّ ما قاله مبالغ فيه.

- من أين لك هذه المعلومات؟
- وصل منذ قليل إلى أريحا موظفون لأنتيباس.
- ألا زالوا هنا؟
- إنهم يقيمون في قصر هيرودس الشتوي[٣].
- أتعرف مَن هم؟
- أظنّ أن أحدهم يُدعى كوزى. إنّه وكيل هيرودس.

خبر حسن. أعرف كوزى جيّدًا! تعاملتُ معه مرّات كثيرة في تجارة الحبوب. لا يمكن لأحد أن يكون على علم أكثر منه بما حدث عند هيرودس. أرسلتُ تيمون فورًا إلى قصر هيرودس يحمل إليه رسالة تخبره أنّي في أريحا. وهل يمكن الحديث معه؟ ردّ عليّ فورًا بأنّه يَسعَد لاستقبالي. كان يمرّ من هنا في طريقه إلى طبريّة. أيمكنني أن آتي وأتعشّى معه ومع امرأته؟

استقبلني مع زوجته حنينة في صالة رائعة. كانت هناك ثلاث أرائك حول طاولة صغيرة كما في دار رومانيّة. صُنِعَت الأرض من الفسيفساء الرائعة وهي تصوّرمشاهد طبيعيّة[٤]، والجدران مغطّاة بمرمر ورديّ وأزرق كجوهرة

٢- في إنجيل مرقس (٦: ١٧-٢٩) يمكننا أن نجد نتيجة ثرثرة البلاط هذه التي انتشرت بين الشعب البسيط، وصارت موضوع تخيّلات حقيقيّا. بهذه الطريقة شرح أهل فلسطين أسباب موت المعمدان. ويوسف هو أقرب إلى الحقيقة حين يؤوّل السبب الحقيقي إلى خوف هيرودس من انتفاضة.

٣- بنى الملك هيرودس قصرًا شتويًّا في أريحا تمّ ترميمه مجدّدًا.

٤- لا تحوي فسيفساء قصر هيرودس إلاّ مشاهد طبيعيّة. يبدو أنّه راعى الشريعة في هذا المكان. وغير ذلك، فقد أُثبِتَ تاريخيًّا أنّ الناس كانوا يظنّون أنّ جدران قصر هيرودُس مغطّاة بالمرمر الحقيقيّ، بينما هي مدهونة. هذا ما يمكن لزوّار مسّادة أن يتثبّتوا منه. ومسّادة ملجأ محصّن لهيرودس على شاطئ البحر الميّت.

حقيقيّة، اللهمّ إلاّ إذا كانت مقلّدة بواسطة الدهان. تمدّدنا لتناول الطعام[5]، وقـدّم لنا العبيد الأطباق، سلطة وحلزون وبيض وأرزّ بالعسل، مع بعـض الزيتـون والسلقان والخيار والبصل[6]، بالإضافة إلى النبيذ الفاخر. لم أتناول طعامًا بـهذه اللذّة منذ إقامتي في السجن. يا للمذاق الطيّب! وجَبَ عليّ أن أتماسك لكـي لا أبدو شرهًا. كان على الكؤوس التي شربنا بها عبارة يونانيّة محفورة[7]:

ماذا أتيتَ تفعل هنا؟

كن سعيدًا.

إنها من كوزى بدون شك! فمن سفر الجامعـة اقتبـس إحـدى حِكَمِـه المفضّلة: "اذهب وكل خبزك مع أصدقائك واشرب خمرك بقلب مسـرور"[8]. بوجه عام، إنّه يحبّ كتابات سليمان كثيرًا. أمثاله وأناشيده وحِكَمَه. كان كوزى صدّوقيًا[9]، وهو نوع من الإيمان منتشر في طبقات مجتمعنا الراقية. الاستمتاع بالحياة شعاره، وهو يستمتع بها مع زوجته الشابّة.

بدأت محادثتنا حول مواضيع عديمة الأهميّة. كان من الواضح أنّ كلانـا يريد أن يتكلّم على موضوع الساعة، ومع ذلك بدأنا في الحديث عـن أمـور أخرى. إنّ كوزى على اطّلاع جيّد بالأمور:

– حدثت لبيلاطس مشاكل أخرى في أورشليم. أتعرف تفاصيلها؟

٥- من عادة الرومانيّين أن يتناولوا طعامهم مستلقين على جنبهم أو ظهرهم (ملاحظة المترجم).

٦- بحسب بلينوس الشّاب (الرّسائل ١، ١٥)، هذه الوجبة حقيقيّة.

٧- نعرف هذا النوع من الكؤوس، وهو من صناعة سوريّة وتاريخه القـرن الأوّل الميـلاديّ. راجـع A. Deissmann: Licht von Osten, 1923, p. 104.

٨-.سفر الجامعة ٩: ٧

٩- بحسب يوسف (تاريخ اليهود، ١٣، ٢٩٣ = XIII, 10, 6)، كان الصدّوقيّون يجمعون أتباعهم من بـين الأغنياء. إنّهم لا يؤمنون بالقدر (تاريخ اليهود، ١٣، ١٧٣ = XIII, 5, 9) ولا بالحياة بعد الموت (حرب اليـهود، ٢، ١٦٥ و مرقس ١٢: ١٨-٢٧ وأعمال الرّسل ٢٣، ٨)، ولا يقرّون إلاّ بالتوراة كتابًا مقدّسًا.

اضطربتُ. أيعرف أنّي أقحِمتُ في الأحداث؟ هل عليّ أن أقول له؟ على كلّ حال، سيسمع عن ذلك بدون شكّ في وقت أو في آخر. لهذا قلتُ له:

– قُتِل خمسة من رجال شرطته في مظاهرة عليه. كنتُ قريبًا من هناك، فألقي القبض عليّ في مروري.

ورَويتُ له الحكاية. لاحظتُ أنّه يلتهم كلامي التهامًا. كانت تهمّه جميع أخبار بيلاطس السيّئة لأنّه متحزّب لأنتيباس. كنتُ مرتبكًا: إلى أيّ مدى يمكنني أن أسوّد صفحة بيلاطس دون أن أتعرّض للخطر؟ يمكن لبيلاطس أن يعلم بما نشرته عنه. لذلك رجوتُ كوزى:

– بحقّ الله لا تقل لأحد أنك سمعتَ القصّة منّي. يمكن لبيلاطس أن يكون قاسيًا. عليه ألاّ يعلم أبدًا بما قلته لك.

هزّ كوزى رأسه موافقًا وقال:

– باختصار، أخطأ مرّة أخرى. سمعتُ لتوّي أنّه قتل حُجّاجًا جليليّين مع حيوانات ذبائحهم[10].

– ماذا؟ أيريد أن يثير كلّ البلد عليه؟

– إن الجوّ متوتّر. يمكن لأحداث تافهة أن تثير ردود أفعال بالغة الأهميّة، إضافة إلى أنّ المسألة تتعلّق بجليليّين، أي ما يخصّ أنتيباس. سوف نحتجّ على ذلك.

عندئذ تدخّلت حنيئة:

– لا تتظاهر كما لو لم يحدث هذا في أوانه! لقد أعدم أنتيباس نبيًّا وبيلاطس بعض الحجّاج. إنّ الأمرين سويّان. لا يمكن لأحد أن يثرثر على الآخر أمام الإمبراطور أو والي سورية. فالذئاب لا تلتهم بعضها بعضًا.

وافق كوزى:

١٠- راجع لوقا ١٣: ١ وما يليها.

– حسنًا! من مصلحتنا أن يعاني بيلاطس بعض المشاكل. فنحن لم ننتهِ بعد من حكاية يوحنّا المعمدان.

سألتُ:

– أتعرفه؟

– بالطبع! إنسان عجيب! خصوصًا ثيابه! وبر الجِمال وحزام من جلد فقط، وغير ذلك، شعر طويل ولحية وطعام نباتي.

فكّرت في بنّوس وقلتُ:

– بعض هؤلاء ليسوا أشرارًا. فغالبًا ما يكمن تحت القوقعة رجل طيّب! ما الانطباع الّذي يولّده لديك يوحنّا؟ الودّ؟

– بين البينين. كصدّوقيّ، لا أستطيع تحمّل أنبياء آخر الأزمنة هؤلاء. أوّلاً إنّ عددهم زيادة عن اللّزوم. ثم إن نهاية العالم لن تحين. ومع ذلك هناك ما يشعرني بالودّ تجاهه. تعلم أنّي تحرّري في ما يخصّ الديانة. لا أطيق متديّنينا، وهم يعاملوني بالمثل. في نظرهم، لسنا إلاّ يهودًا من الدرجة الثانية. حول هذه النقطة بالضبط، كان يوحنّا مدهشًا. فقد وعظ أنّ الله لا يفرّق بين المتديّنين والفاترين. فالأوّلون ليسوا إلاّ من نسل الأفاعي وأبناء ثعابين إذ يرجون الفلات من الدينونة. على جميع الناس أن يتغيّروا جذريًّا، سواء كانوا أتقياء أو كفّارًا. فالكلّ معرّضون لخطر الدينونة القريبة.

– لماذا قتله أنتيباس؟ ما الذي وراء هذه القضيّة؟ يقول الناس إنها غلطة هيروديّا.

اعترضت حنينة:

– بالطبع! الخطأ يقع دائمًا على المرأة.

ضحك كوزى:

– زوجتي حسّاسة جدًا لهذه النقطة. أنت تعرف أنّ أنتيباس كان متزوّجًا من أميرة نبطيّة، ابنة الملك الحارث الرابع. على الصعيد الدبلوماسي، كان هذا ضربة معلّم. الحارث جارنا في الجنوب، وله ميول سيئة في الامتداد نحو

الشمال. كان هدف الزواج إخفاق هذه الميول: لا يُحارِب الصهر ليُنتزَع البلد منه. لهذا وافق الرومانيّون على الأمر، مع أنّهم لا يحبّذون عمومًا الاتصال بين أمرائهم والملوك المستقلّين. عندئذ حدثت قصّة هيروديّا.

سألتُ:

- أكان الأمر حبّ من أوّل نظرة؟

أجابت حنينة:

- كانت بالفعل قصّة حب! وإلاّ لعمل أنتيباس حسابًا للمساوئ السياسيّة الناجمة عن ذلك.

وأضاف كوزى:

- لم يكن الأمر حبًّا فقط. هناك أسباب سياسيّة أيضًا. لو كان الاثنان متّفقين تمامًا فلأنّ لهما الطموح نفسه. أنت تعلم أنّ هيرودس غيّر وصيّته مرّات كثيرة. كان يعيّن في كلّ مرّة وصيّاً عامًا. وأنتيباس واحد منهم أيضًا. عند توزيع الأملاك، لم يستطع إلاّ أن يفرض نفسه ملكًا على الربع. كانت هيروديّا متزوّجة من أخي أنتيباس، احد الأوصياء العامين السابقين. وعند التقسيم الأخير، نال زوجها نصيبًا أسوأ. إنّه لم يرث شيئًا! وبما أنّ هيروديّا من بيت الأشمونيتيّين من طرف أمّها مريمّة، فهي أميرة حقيقيّة. على العكس، الهيرودسيّون دخلاء. ماذا تريد أميرة حقيقيّة أن تصير؟ ملكة بالطبع! وبما أنّها لا تستطيع ذلك من زواجها برجلها الأوّل، ربما تمكّنت منه باقترانها بأمير. ليس مصادفة أن هام الواحد في الآخر حين عزم هيرودس على السفر إلى روما، يُقال إنّه أمِلَ في خلافة الحاكم فاليريوس فيصير بذلك ملك اليهوديّة والجليل. كلاهما كان ينوي الترقّي.

اعترضت حنينة:

- ولكنّ الزواج كان بالضبط إخفاقًا سياسيًّا لأنتيباس.

فشرح كوزى:

- حدثت بعض المتاعب. أولاً أخذ أنتيباس امرأة أخيه، وهذا يخالف شريعتنا. ثانيًا، أخذت هيروديّا المبادرة. فهي التي أدارت القضيّة، وهذا يخالف

التقاليد اليهوديّة[11]. ثالثًا، أرادت هيروديّا أن يطلّق أنتيباس زوجته الأولى بينما تسمح الشريعة اليهوديّة بالعيش مع عدّة زوجات في آن واحد. جميع هذه المخالفات للشريعة أثارت استياء الناس. وجعل المعمدان نفسه الناطق باسم المعارضة الداخليّة.

عندئذ بدأت حنينة تتحمّس:

– يمكننا الحكم على الأمور من وجهة نظر أخرى. لم تطالب هيروديّا إلاّ بحقوق كلّ امرأة في الإمبراطوريّة الرومانيّة. ففي روما، يمكن للمرأة أن تطلب الطلاق. أما عندنا، فالرجل وحده يستطيع أن يطلّق امرأته. هذا ظلم. على الطرفين أن يتمتّعا بالحقوق نفسها. لم تصبُ هيروديّا إلى أكثر من ذلك. ويُقال الأمر نفسه في النقطة الأخيرة. بروما، ليس من حقّ الرجل أن يكون لديه أكثر من امرأة في آن واحد. أعتبر هذا تطوّرًا. وهو يبيّن بوضوح أنّ للمرأة قيمة مساوية للرجل. كانت هيروديّا على حقّ حين رفضت أن تكون الزوجة الثانية إلى جانب الأولى. باختصار، أرادت إدخال بعض التطوّر إلى بلد متخلّف. وماذا حصل؟ خرج نبيّ من جحره ليسدّ أمامها الطريق! حقًا، لا أستطيع أن أرى في يوحنّا نبيًّا عظيمًا كما أراد البعض أن يصوّره لنا.

ووافق كوزى مفكّرًا:

– مهما كانت طريقتنا في الحكم على القضيّة أخلاقيًّا، لم يقلّل أنتيباس سياسيًّا من شأن ردّ الفعل الشعبيّ.

قلتُ:

١١– لا يختلف تصرّف هيروديّا عن نساء أخريات في عصرها: سالومة أخت هيرودس الأوّل ودورسيلاّ تطلّقتا أيضًا. وهو الأمر الّذي لامَه يوسف ووصفه بأنّه يخالف شريعة اليهود (تاريخ اليهود ١٥، ٢٥٩ = XV 7, 10 و ٢٠، ١٤٣ = XX, 72). فقد قال بوضوح عن هيروديّا إنّها خالفت شريعة آبائها بطلاقها (تاريخ اليهود ١٨، ١٣٦ = XVIII 5, 4). مما يبيّن أنّها كانت تعي معنى فعلتها. ومن الممكن أنّها لم تخالف التقاليد الشرعيّة اليونانيّة الرومانيّة وحسب، بل الآراميّة أيضًا. فقد أُثبِتَ أنّه حتى القرن الخامس قبل الميلاد، كانت جماعة اليهود المصريّة في وادي الفيلة تقبل طلاق المرأة. ولدينا شهادة مماثلة في فلسطين أيّام ثورة بار كشبة (١٣٢–١٣٦ م).

– في هذا المجال، نرى صوراً قديمة جدًا تعود إلى الظهور بين الشعب: إيليًا الذي عارض التأثير الوثني لإيزابل. هكذا تصرّف المعمدان حين قام بدور المعادي لهيروديًا. تؤكّد الإشاعات إنّه إيليًا وقد عاد إلى الأرض. بهذا يكون أنتيباس مع الظلم تمامًا.

تابع كوزى:

– كانت الردود السياسيّة كارثة أيضًا. لقد علمت زوجة أنتيباس النبطيّة بطلاقها الحتميّ فتحسّبت له ولجأت إلى والدها[12]. ومنذ ذلك الحين، صار لدينا عدو لدود في الجنوب. إنّ وضع أنتيباس مهدّد، لأنّ عليه منذ الآن أن يعدّ العدّة لحرب خارجيّة. فحموه السابق لن يسامحه أبدًا على إهانته لابنته، وهو ما لا تراه شريعتنا ضروريًّا. وفي الداخل، عليه أن يواجه معارضة قويّة تخفي هيجان التعصّب الديني.

– هل يمكن لهذه المعارضة أن تصير خطيرة؟ ماذا كان بوسع نبيّ وحده أن يفعل؟

– فكّر في مصير أرخِلاوس[13]. لقد فقد عرشه منذ خمس وعشرين سنة. كان لعزله عدّة أسباب. لا شكّ أنّ من بينها زواجه التعِس بغلافيرا. إنّه يذكّر في كثير من تفاصيله زواج أنتيباس بهيروديًا. كان على أرخِلاوس أيضًا أن ينفصل عن امرأته الأولى ليتزوّج غلافيرا. وأهمّ من ذلك: اقترنت غلافيرا في زواجها الأوّل بإسكندر، أخي أرخِلاوس من أبيه، أحد أبناء هيرودس الذين لم يعدمهم. كان إذًا زواج بامرأة أخ، وهو ما لا تسمح به شريعتنا إلاّ في حال موت الشقيق دون أن يكون له أبناء[14]. وهو ليس حال غلافيرا لأنّها أنجبت أولادًا، وبالتالي، لا يحق لأرخِلاوس أن يتزوّجها. لقد أساء إليه هذا القران غير الشرعيّ كثيرًا. انخفضت شعبيّته بسرعة، وفلح أعداؤه حين ذهبوا

١٢– هذا ما يرويه يوسف في تاريخ اليهود ١٨، ١١١ = XVIII 5, 1.

١٣– كلّ ما سيلي مأخوذ من يوسف تاريخ اليهود ١٧، ٣٤٩ = XVII 13, 4.

١٤– في شأن تزوّج الأخ بزوجة أخيه (يُقال ابن الحَمْ) راجع سفر تثنية الاشتراع (٢٥: ٥–١٠).

واشتكوا للإمبراطور، فعُزِلَ. كلّ هذا معروف. لو تزوّج أنتيباس الآن مثل أخيه، سيحثّ الأمر أعداءه الداخليّين على تدبير عزله.

- ألم تخشوا أن يثير المعمدان نفسه انتفاضة وأن يتعامل مع أعداء خارجيّين[15]؟

- ما من خطر البتّة. كان يمكن أن يحدث اتّحاد مؤسف بين المعارضة الداخليّة والأعداء الخارجيّين دون تحالف بينهم. فإحدى أقوال يوحنّا المأثورة مأخوذة من أشعيا:

صوت صارخ في البريّة،

أعدّوا طريق الربّ واجعلوا سبله قويمة"!

تخيّل لو ظهر الحارث في الصحراء بجيشه ويوحنّا يرنّم سرًّا: " أعدّوا طريق الربّ". بالطبع. يتحدّث يوحنّا عن الله. وعلينا أن نعدّ له الطريق في الصحراء. لكن الّذين يؤمنون بالخرافات بعض الشيء سينقلون الخبر بسرعة: "إنّه يعني الحارث الذي يأتي حاملاً قضاء الله على أنتيباس". هذا الشعار يبعث اليأس في أيّ جيش يهودي. سيفرّ ونُصاب بهزيمة ساحقة.

- أليس الخطر مستمرًّا؟ فقد ولّد هيرودِس لنفسه أعداءًا جددًا بإعدامه للمعمدان.

وافقني كوزى الرأي:

- لا زال الوضع متوتّرًا. ويرجو أنتيباس أن يُصمِت من ينتقدون زواجه.

- أتظنّه سيتمكّن من ذلك؟

هزّ كوزى كتفيه

- ربّما، لكنّ هذا ليس أكيدًا.

كان لمخاوفه أسبابها. فزواج أنتيباس بهيروديّا يسبّب الشرّ لملك الربع. فقد أعلن فيما بعد حموه السابق سلطته على منطقة الحدود الجنوبيّة، ومُنيَ

١٥- بحسب يوسف، أعدم هيرودس يوحنّا المعمدان لأنّه خشي انتفاضة (تاريخ اليهود ١٨، ١١٨ - XVIII 5, 2). يبدو أنّ هذه المعلومة لا تعارض تاريخيًّا ما ورد في التقليد الإنجيلي الذي يروي أنّ المعمدان قُتِل بسبب نقده لزواج هيرودس. هذا الزواج وتحليله كانا مسألة سياسيّة صرفة.

أنتيباس بهزيمة ساحقة، وفرّ بعض جنوده. وبين الشعب، أعلن الجميع أنّ هـذه الهزيمة عقوبة على موت المعمدان. واضطُرّ الرومانيّون إلى التدخّل لحمايـــة الحدود من النبطيّين. وصار أنتيباس يجمع الأسلحة سرًّا ليكون جاهزًا في حال حرب ثانية، لكنّ هذا قضى عليه. حين سأل الإمبراطور أن يوافق على تسميته ملكًا، بتحريض من هيروديّا، جعل أعداؤه، وأوّلهم ابن أخيه، ينشـــرون فـــي روما قصصًا عن أسلحته المخبّأة. ولم يستطع أنتيباس الدفاع عن نفسه، فعُـزِلَ ونُفيَ إلى بلاد الغال. وخُيِّرت هيروديّا بين النفي برفقته أو العودة إلى الجليـل، فاختارت النفي مثبتة بذلك إخلاصًا في الحبّ خلافًا لما تناولتها به الألسن. تـمّ هذا كلّه بعد عشر سنوات[١٦].

أمّا في تلك اللحظة، فكنّا جالسين في أريحا. وجعلت حنينة تدافـــع عــن هيروديّا مرّة أخرى.

– هناك أمر يجب أن يكون واضحًا. ليـــس لـــهيروديّا علاقـــة بـــإعدام المعمدان. أنتيباس يتحمّل كامل المسؤوليّة. لقد أمر بالإعدام لأسباب سياســـيّة بسبب حالة الطوارئ التي خلقها المعمدان نفسه. صدّقوني: ذهب أنتيباس بنفسه إلى السجن عدّة مرّات ليتناقش مع يوحنّا وعبثًا حاول أن يقنعه في الســـكوت عن زواجه. والآن نحمّل هيروديّا وزر الخطأ بكامله.

قلتُ:

– ربما ستهدأ كلّ هذه القضيّة. لكنّ الأمر يتعلّق بمشيّعي المعمدان. أكـان له تلاميذ؟

هزّت حنينة رأسها مؤكّدة:

– تعرّفت إلى واحد منهم. تناقشتُ معه لأعرف هل من العدل أن يُســمح للرجل عندنا بأن يطلّق امرأته لا العكس. أتدري بماذا أجابني؟

مَن طلّق امرأته وتزوّج غيرها فقد زنى عليها.

١٦– نروي هنا سقوط أنتيباس وإرساله إلى المنفى ونعتمد في ذلك على يوسف تاريخ اليـــهود ١٨، ٢٤٠– ٢٥٦ – XVIII 7, 1.

وإن طلّقت المرأة زوجها وتزوّجت غيره فقد زنت[١٧].
لقد أعجبني ذلك. فالاثنان هنا متساويان على الأقل.
ونظر كوزي إلى امرأته دهشاً:
– لكنّه أكثر جذريّة من يوحنّا المعمدان. فهذا يكتفي بحفظ الشريعة التقليديّة، أمّا تلميذه فيريد تغييرها وبطريقة غير واقعيّة تماماً. لأنّ منع الطلاق يعني الابتعاد الكامل عن الواقع.
ودافعت حنينة وقالت:
– ما من طلاق حسن. إنّ انفصال شخصين أمر محزن دائمًا.
أجاب كوزي بطريقة جازمة:
– أظنّ أنّ تلميذ المعمدان هذا هو أيضًا من أولئك المعتوهين الكثر لدينا.
لاحظتُ أنّ حنينة عبست، فخطرت ببالي فكرة أنّ الزوجين يعانيان من بعضَ المشاكل. عليّ أن أغيّر موضوع الطلاق. سألت:
– ما اسم تلميذ يوحنّا هذا؟
– يسوع الناصري على ما أظن.
– وأين يقيم؟
– إنّه يتجوّل في الجليل.
وتنهّد كوزي وقال:
– عندنا. وكأنّ هذا مصادفة! ألا يستطيع أن يذهب ويزرع أفكاره الجديدة في اليهوديّة؟ سيكون عندئذ على بيلاطس أن يهتمّ به.
نبّهت قائلاً:
– إذا كان بدون عنوان ثابت، من الممكن أن يذهب إلى اليهوديّة أيضًا.
وجالت في خاطر كوزي فكرة:
– ماذا سيحدث إذا وضعنا له بعض العقبات في إقليمه؟ سننشر إشاعة بأنّ أنتيباس سيقتل يسوع أيضًا. وفي الآن نفسه، نخبره سرًّا بأنّه يستطيع الاختباء في الطرف الثاني من الحدود[١٨]. سنتخلّص منه عندئذ. ما رأيك أن تهتمّ بالمسألة؟

١٧- مرقس ١٠: ١١-١٢

١٨- يمكن أن تكون محاولة كهذه قد حدثت بالاعتماد على ما ورد في لوقا: ١٣: ٣١-٣٣

سأل وهو يلتفت إليّ.

– لاتبعد الناصرة إلاّ بضعة كيلومترات عن صفورة. أنت تعرف الإقليم جيّدًا.

استولى القلق عليّ. لقد تأزّم الموقف! لوِ علم بيلاطس أنّي أمرّر له نبيًّا ... لا، الأمور ليست على ما يرام. فعارضتُ:

– على يسوع هذا أن يسمع نصيحة الاختفاء من أشخاص يثق بهم. الناصرة قرية صغيرة. ونحن، سكّان المدن، لا نستطيع أن نقول شيئًا للقرويّين. فبالنسبة إليهم، نحن أغنياء ومتعلّمون ونتكلّم اليونانيّة، ونتعاون مع الهيرودسيّين والرومانيّين.

وفكّرَ كوزى:

– يجب إيجاد بعض الأتقياء. ربما الفرّيسيّون. بالتأكيد سيأخذ يسوع تنبيههم على محمل الجد.

كان لديّ اعتراض آخر:

– ألن يثير لأنتيباس مشاكل في اليهوديّة أكثر من الجليل؟ تخيّل لو استخدمه بيلاطس ضدّ أنتيباس؟ لا شيء يناسبه أكثر من أن يرى اليهود يُخبَرون علنًا بأنّ هذا ترك تقاليد أجداده.

ضحك كوزى وقال:

– لماذا لا يصفّي نبيًّا جليليًّا من صفّى حُجّاجًا جليليّين؟ ومن جهة أخرى، لا يقبل أنبياؤنا التعامل مع الرومانيّين لأنيّتنا. أنت لا تعرفهم جيّدًا.

وتابعنا محادثتنا وقتًا طويلاً ونحن نأكل ونشرب. وفي النهاية، أخذ كوزى قيثارته وجعل ينشد أغانيه المفضّلة: وغنّى أناشيد سليمان على شرف حنينة:

جميلة أنتِ يا خليلتي جميلة أنتِ

وعيناك كحمامتين من وراء نقابكِ ...[19].

بدون شك، كانت حنينة امرأة جميلة.

١٩– نشيد الأناشيد ٤: ١

الفصل السابع

يسوع خطر على الأمن العام

عدتُ إلى أورشليم لكي أقدّم تقريري لمتيليوس. فبسبب موت المعمدان، اعتبرتُ أنّ مهمّتي انتهت. كنتُ أرجو أن أعود تاجر حبوب بسيط مرّة أخرى، أسافر في فلسطين مع ملخوس وتيمون. كان الصعود إلى أورشليم شاقًا. فبعد الخروج من واحة أريحا الغنّاء، يدخل المرء في إقليم كئيب تملؤه الجبال الصحراويّة، ويصطدم النظر بصخور عارية، ويخمل الجسم من الحرارة. لكنّا حين نقترب من القمم، نرى علامات الحياة تزداد. منحدرات مغطّاة بالخَضار، وآثار حضور بشري، ودروب تشقّ الطبيعة. ويتعلّق الانتظار بالأفق: ربّما كان هناك عالم جديد بعد الهضاب.

أخيرًا وصلنا. انتشرت المدينة أمام عيوننا، وبرز الهيكل فوق ركام من الدروب والمنازل، وبرقت حجارته في نور الشمس الساطعة، وبدت قاعدته وكأنّها تطلق مبانيها نحو السماء. أحاطت العواميد بالباحات، فحدّدت ساحة كبيرة هي "بهو الأجانب"، مفتوحة للجميع. وفي الوسط، باحة الهيكل الداخليّة المخصّصة لليهود فقط. هناك ينتصب الهيكل الذي لا يدخله إلاّ الكهنة. لكنّهم لا يستطيعون أن يدخلوا إلى قدس الأقداس، المكان السرّيّ الجاثم في قلب البناء. هناك يدخل كبير الكهنة وحده مرّة في السنة ليُصالح الله مع شعبه. وعلى الرغم من ذلك، يتوجّه تفكير المؤمنين يوميًا نحو هذا المكان، لأنّ الله حاضر فيه، ومنه تصدر قوّة تجعل القلوب تلتقي في حنايا بناء لا يمكن رؤيته ولا سماعه ولا معرفته ولا الشعور به.

مكثتُ في مكاني واقفًا. كلّ مرّة أرى فيها أورشليم، أشعر وكأنّي عدتُ إلى بيتي، فتلفظ شِفتاي نشيدًا ألّفه أجدادنا بالمنفى. ما كان بابل في ذلك الحين صار الآن روما. والنفي إلى البلاد الغريبة تحوّل إلى قهر على أرضنا[1].

١- من المزمور ١٣٧ كانت بابل في ذلك الوقت اسمًا يُستعمل بكثرة ليشير رمزيًا إلى روما (راجع سفر الرؤية ١٨ ورسالة بطرس الأولى ٥: ١٣).

على أنهار بابل هناك جلسنا فبكينا عندما صهيون تذكّرنا
على الصفصاف في وسطها علّقنا كنّاراتنا.
هناك سألَنا الذين أسرّونا نشيدًا والذين عذّبونا طربًا.
كيف ننشد نشيد الربّ ونحن في أرض الغربة؟
إن نسيتكِ يا أورشليم فلتُشلّ يدي
وليلتصق لساني بحنكي إن لم أرفع أورشليم إلى أوج فرحي.
يا ابنة بابل الصائرة إلى الدمار طوبى لمن يجازيكِ على ما جازيتِنا به.
طوبى لمن يمسك أطفالكِ ويضرب بهم الصخرة.

أنا غريب في أرضي ما دام الرومانيّون يقرّرون مصيري. لكنّي على ثقة من أنّي سأنهي قريبًا جميع محني. ألم أنجز رسالتي بطريقة مرضية؟ ألم أعرف عن الأسّينيّين والمعمدان أكثر مما رجوت بفضل باروك وكوزى؟ أنا الذي يقرّر ما سأقوله للرومانيّين. إنّي واثق من حسن انتقائي للأمور. لن تذكر شفتاي شيئًا يؤذي بلدي. أبدًا، لا شيء! لا شيء على الإطلاق! دخلتُ عند متيليوس وأنا في هذه الحالة الفكريّة. لقد علم بموت المعمدان، فبدا لي أكثر توتّرًا من لقائنا الأوّل.

- وصلتَ في اللحظة المناسبة يا أندراوس! الوضع خطر. لقد أعلمنا هيرودس رسميًّا بأنّه يتوقّع ثورة لأنّه أعدم يوحنّا المعمدان.

رويتُ له بعض ما علمتُ عن خلفيّات هذا الموت، فأصغى إليّ بانتباه ثمّ قال لي:

- ما يضايقنا هو أنّ هذا الإعدام جرى في وقت تبيّن فيه بعض الظواهر وجود نشاط مقاومة خطيرة. فمنذ وقت قصير، جرت تلك المظاهرة التعيسة على بيلاطس حيث ألقي القبض عليك. وفي أثناء غيابك، حدث شجار بالقرب من أورشليم. قامت فرقة من الجند بتفتيش جليليّين لترى هل يحملون أسلحة، واكتشفت أنّ بعضهم مسلّح. يبدو أنّهم كانوا من الإرهابيّين. وبدأ القتال، فقُتل

عدد من الحجّاج، ربّما كانوا أبرياء ولا يعلمون مَن يرافقهم. والآن، يشعر الناس بالاستياء، لا من الثوّار بل منّا نحن الرومانيّين[٢].

كان متيليوس يكيل الحجرة طولاً وعرضًا. وتابع حديثه قال:

– ولكي يزداد الطين بلّة، هاجم الإرهابيّون منذ فترة، بين قيصريّة وأورشليم، عبدًا للإمبراطور موكّلاً في قضيّة إداريّة بالغة الأهميّة[٣]. لقد تمكّن العبد ورفيقه من الفرار، لكنّ الآخرين استولوا على كميّة كبيرة من المال. أرسلنا على جناح السرعة فوجًا إلى الإقليم، لكنّ الإرهابيّين اختفوا على ما يبدو، ولم نستطع أن نعلم شيئًا من السكّان عنهم. لم يرَ أحد شيئًا، ولا يعرف أحد شيئًا عن الهجوم. فثارت ثورة جنودنا، وأحرقوا جميع القرى المجاورة لمكان الحادث من أجل إهانة الناس. على السكّان أن يختاروا بين تسليم الإرهابيّين أو ...

لم ينهِ متيليوس جملته. من الواضح أنّه يعارض ثأر الرومانيّين. فهو سياسة تخالف جميع قواعد الحيطة. وحكّ حنجرته وختم كلامه:

– كلّ هذه الأمور تبيّن أن المقاومة الإرهابيّة تحضّر ضربة. إنّها تستولي على المال بالسطو المسلّح، وتنقل الأسلحة، ويمكنها أن تستفيد من استياء الشعب حاليًّا للقيام بعمليّات واسعة النطاق. علينا أن ننتبه.

كان متيليوس مصيبًا في مشاعره. البلد في حالة غليان في الخفاء.

– يهمّنا أن نعرف ما يفكّر به تلاميذ المعمدان في هذه الظروف الصعبة. هل سيتحالفون مع الإرهابيّين؟ أم سيتفرّقون ويختفون؟

٢- يمكننا الاعتقاد بأنّ لوقا ١٣: ١ وما يليها يشير إلى حدث من هذا النوع. فقد قتل بيلاطس حجّاجًا وخلط دماءهم مع دماء حيوانات ذبائحهم.

٣- جرى الهجوم على العبيد الإمبراطوريّين في عهد كومانوس (٤٢–٥٨ م). ويقول يوسف في هذا الشأن: "على طريق بيت هورون، أغار اللصوص على صناديق عبد اسمه اسطيفانوس وسرقوه. وأرسل كومانوس ثلّة من الجند وأمر باعتقال سكّان القرى المجاورة واقتيادهم إليه. واتّهمهم بعدم اللحاق باللصوص والإمساك بهم" (يوسف، حرب اليهود ٢، ٢٢٨).

يبدو أنّ الرومانيّين يخافون أن تتّحد مختلف الجماعات وتنال سندًا شعبيًّا. عندئذ ستفلت زمام الأمور من أيديهم، وستؤدّي بهم مخاوفهم إلى اتّخاذ إجراءات أشدّ صرامة، وهذا من شأنه أن يزيد حدّة المقاومة. فسعيتُ إلى طمأنته:

– ما يخصّ الأسّينيّين والمعمدانيّين، أنا واثق من أنّهم لن يتّحدوا مع الإرهابيّين. إنّهما حركتان دينيّتان هدفهما حثّ الناس على العيش بحسب وصايا الله، ولا يسعيان إلى أيّ تغيير سياسيّ.

فاعترض متيليوس:

– ألا يرجون انقلابًا حتميًّا؟

– إنّهم لا يسعون البتّة إلى إثارته، بل ينتظرونه من الله.

– وإذا قال واحد: "ها هي اللحظة التي يغيّر فيها الله كلّ شيء"، ألن يؤمنوا بأنّ نهاية السيطرة الرومانيّة قد حانت؟

كان متيليوس محقًّا. ولكن عليّ أن أحوّله عن هذه الفكرة الصائبة. يجب أن أطمئنه. فبدأتُ خطابًا لأقدّم له الأسّينيّين والمعمدانيّين على أنّهما جماعتان لا خطر فيهما. لكنّ متيليوس ظلّ شكوكًا. فقد استخبر عن الأمر.

– ما يجعلني دائم القلق، هو علمي لماذا ينسحب هؤلاء إلى الصحراء. لقد قرأتُ كتبكم.

وبسبب نظرتي التعجّبيّة أضاف:

– لا النصوص العبريّة بل ترجمتها اليونانيّة[4]. وجدتُ فيها أن للصحراء معنى محدّدًا جدًّا: من خلالها، قاد الله أجدادكم إلى هذا البلد طاردًا جميع

٤– إنّها الترجمة السبعينيّة. وبحسب رسالة أرسطين، تمّت الترجمة في ٧٢ يومًا بواسطة ٧٢ حكيمًا من أورشليم بأمر من الملك بطليمس الثاني (٢٨٣–٢٦٤ ق.م.) لمكتبة الإسكندريّة الملكيّة الشهيرة. وهذه قصّة ملحميّة. الحقيقة هي أن العهد القديم تُرجم للاستعمال الطقسي، من أجل اليهود الذين يعيشون خارج فلسطين ويتكلّمون اليونانيّة دون أن يفهموا العبريّة.

أعدائكم من أمامكم. وعاش فيها داود طريدًا قبل أن يصير ملكًا، وأقلق منها مضجع شاول. ومن الصحراء شنّ اليهود المخلصين الحرب على الملوك السوريّين، وتمكّنوا من طردهم. باختصار، من أراد المعارضة الجذريّة، ينسحب إلى الصحراء وينتظر أن يظهر الله فيها ليزيل جميع أعدائه. يمكننا حتّى القول إنّ إلهكم إله صحراء، ويسكن في سيناء.

اعترضتُ:

– هناك نصّ نبويّ قديم يقول: "أعدّوا طريق الربّ في الصحراء". لقد قاله المعمدان كما الأسّينيّون. ويعتبر الفريسيّون أن هذا الإعداد يتمّ بدراسة الشريعة. قال المعمدان: "أعدّوا طريق الربّ بالتوبة عن خطاياكم، والمعموديّة في نهر الأردن، وتحسين حياتكم[٥]". إنّ حركات كهذه لن تشكّل أيّ خطر على الرومانيّين[٦].

كان متيليوس عنيدًا، ولا يثق في المعمدان. فسألني:

– ألم يكن أنتيباس محقًّا في إعدامه لواعظ الصحراء هذا على أنّه معارض خطر؟

– إنّ أنتيباس يبرّر القهر دائمًا أمام الرومانيّين على أنّه سحق لانتفاضة. إنّ السبب الأساسي لإعدام المعمدان هو أمر شخصيّ يتعلّق بزواجه. ويلحّ

٥- نبوءة النّبيّ هي أشعيا ٤٠: ٣ وتبنّى المعمدان هذه النبوءة (راجع مرقس ١: ٣) كما فعلت جماعة قمران. فقد ظنّ هؤلاء أنّ التطبيق الصارم للشريعة في الصحراء، أي بواحتهم في قمران، يُحضّر طريق الربّ (راجع القواعد VIII ١٢-٢٤).

٦- بعد أربعين سنة، حين انطلقت الثورة الكبيرة على الرومانيّين، انضمّ الأسّينيّون أيضًا إليها. وصار واحد منهم اسمه يوحنّا الأسّيني حاكمًا عسكريًّا للعصيان في إقليم تمنّا (يوسف، حرب اليهود ٢، ٥٦٧). ظنّ الأسّينيّون على ما يبدو بأن زمن آخر معركة بين أبناء النور وأبناء الظلام قد حان. وانقرضوا في الصراعات. وأظهرت التنقيبات في وادي قمران بأنّ معسكراتهم على البحر الميّت دُمّرت في ذلك العصر. وقد أُعدم كثير منهم بعد أن عُذّب تعذيبًا شنيعًا. لكنّ جميعهم رفضوا أن يقبلوا الإمبراطور سيّدًا، وأظهروا أمام التعذيب شجاعة وثباتًا لا مثيل لهما.

تلاميذ المعمدان على هذه النقطة أيضًا. فواحد منهم يعتبر الطلاق تنازلاً سُمِح به لضعف البشر وهو يرفضه من أساسه.

- هل تكلّمت مع هذا التلميذ؟

- لا، لكنّي سمعتُ عنه من مصدر موثوق.

- ما اسمه؟

- يسوع الناصريّ.

وفكّر متيليوس.

- لم أسمع بعد بهذا الاسم. أين تقع الناصرة؟

- في الجليل. ليست بعيدة عن صفورة.

وارتعد متيليوس.

- الجليل! لدينا ما يبرّر الظنّ في أنّ للإرهابيّين مخابئ في الجليل يُطلقون منها عمليّاتهم.

- لا يهتمّ الإرهابيّون قط بشرائع الزواج. يبدو يسوع هذا معلّمًا يهوديًا عاديًا للغاية. بهذه الطريقة يتناقش معلّمونا في جميع المسائل التي تمسّ الحياة الجماعيّة.

- أنت على خطأ. في الوقت الحاضر، يمكن للإرهابيّين أن يهتمّوا هم أيضًا بمشاكل الزواج. إذا كانوا يحضّرون انتفاضة علينا وعلى أنتيباس، عليهم أن يقلّلوا من قيمة هذا عند الشعب. وأيّ طريقة أفضل لذلك من أن يُرفض زواجه علنًا؟

- ومع ذلك لا يمكن ليسوع هذا أن يكون إرهابيًّا!

- بالطبع لا! لكنّ كلّ ما يأتي من الجليل ينبّه آذاننا. لا تنسَ أنّه منذ وقت قريب، حاول الإرهابيّون أن يختبئوا بين مجموعة جليليّة.

- إذا جعلنا نشكّ بجميع الجليليّين على أنّهم إرهابيّون، أليس من الغباء الاختباء بينهم؟

تجاهل متيليوس اعتراضي.

- إنّ أوّل انتفاضة على الرومانيّين كانت من فعل يهوذا الجليليّ[٧]. أنت تعرفه من الاسم، وتعلم أين تظاهر للمرّة الأولى. في صفورة! والآن، ها إنّ من قرية صغيرة بالقرب من صفورة يظهر يسوع هذا، تلميذ ذلك النبيّ الّذي أُعدِم بسبب الثورة.

وتوقّف عن الكلام قليلاً ثمّ التفت إليّ:

- ستكون لديك فوراً مهمّة ثانية. عليك أن تكشف هل يشكّل يسوع هذا خطرًا على الدولة، وهل له علاقة بعناصر المقاومة.

صُدِمتُ. كنتُ أرجو العودة إلى عملي الطبيعي. ما حدث لي الآن هو أكره بكثير من البحث عن معلومات عن الأسّينيّين والمعمدان. الآن يجعلون في المسألة عناصر المقاومة. فاعترضتُ:

- تُعتبر أسرتي في الجليل موالية للرومانيّين. كيف أستطيع كسب ثقة مَن يتحزّبون لمقاومة الرومانيّين؟

- لن تكون هذه مشكلة كبيرة. لقد سعينا إلى النّشر بين النّاس أنّك اعتُقِلتَ في أثناء مظاهرة علينا.

- سيحذرون من كلّ من يأتي من الطبقة المفضّلة.

- بالعكس. يعتمد المقاومون على جيل الطبقات العليا الجديد. نحن نعلم أنّ بعض قادتهم من هذه الطبقات[٨].

فكّرتُ في نفسي: "يا له من محق". برأبّا ينتمي إلى أسرة حلّ بها الفقر، لكنّه من الوسط الذي أنتمي إليه. ومن واجبي الآن أن أتجسّس عليه هو

٧- (راجع يوسف، حرب اليهود ٢، ٥٦). "في صفورة، بالجليل، قاد يهوذا بن حزقيا عصابة مجرمين عاثت في البلاد قبل أن يتمكّن الملك هيرودس من التغلّب عليها. فقد حشد جيشًا كبيرًا، وظهر في المعسكر الملكي، وسلّح مشيّعيه، وألقى القبض على من يسعى إلى السلطة".

٨- بالفعل، كان هناك معاهدة بين شبّان الطبقات الراقية وحركة المقاومة الّتي أدّت إلى اندلاع حرب اليهود في السنة ٦٦

وأصدقائه. يمكن لهذا أن يعرّض حياتي للخطر. فدوافع لجوء قروي مديـــون إليهم في الجبل تبدو واضحة. أمّا إذا أتى عضو من الطبقة العليا لينضمّ إليـهم، فإنّهم لا ينظرون إليه إلاّ على أنّه عدو أو قائد مستقبليّ أو خائن. لا بدّ لهم من أن يحذروني، إلاّ إذا صرتُ معهم بطوعي، وهو ما لا أستطيع فعله. علـيّ أن أجد وسيلة توحي إليهم بالثقة. وخطرت ببالي فكرة:

– ما رأيك لو تظاهرتُ بأنّي أعطي الإرهابيّين معلومات دقيقة عن خطّـة لعمليّة ضدّهم؟ أستطيع عندئذ أن أقنعهم بأنّي أتعاطف معهم حقًّا.

– لا يمكننا أن نعطيهم مخطّطنا!

– هذا ليس ضروريًّا. يمكن أن يكون الأمر عمليّة خياليّة. علـى سـبيل المثال، تشديد المراقبة بين عكّا والجليل. سأعلن لهم ذلك. لو حدث هذا فعــلاً سيثقون بي.

– الفكرة ليست غبيّة! ما رأيك أن تفعل هذا بعد ثلاثة أسابيع؟

– حسنا! من الآن حتّى ذلك الحين، عليّ أن أتّصل بالمقاومين. لن يكـون الأمر سهلاً، لأنّهم يعيشون في مغاور يستحيل بلوغها، ولا يعلم أحد أين. ربما احتجتُ إلى وقت أطول. ألا يُفضّل أن تُقام المراقبة بعد ستّة أسابيع؟

– إطلاقًا! تكفينا العمليّة الأولى. لو تمّت كما أخبرنا وأخفقت كمـــا هـو متوقّع، سيحاول الإرهابيّون المكر وسيندفعون بدون تحضير، وهذا لمصلحتنا.

فهمتُ! الحديث عن العمليّة الأولى يعني وجود ثانية، وهذه ستتمّ بعد سـتّة أسابيع.

ونهض متيليوس ليأخذ لفافة برديّ مغطّاة بالملاحظات.

– عليّ أن أخبرك بأهمّ المعلومات التـي لدينـا فـي محاضرنـا عـن الإرهابيّين:

منذ حوالى أربع وعشرين سنة، حين عُزِلَ أرخِلاوس ابـــن هـيرودس، ضُمّت اليهوديّة والسامرة إلى الإدارة المباشرة للرومانيّين. تطلّب الانتقال إلــى سيطرتنا تغيير نظام فرض الضرائب على الشعب، بحيث يشابه ما فرضناه في

جميع الأقاليم. وتولّى الأمر قيرينيوس حاكم سورية. وقد تعلّمنا من الخبرة في لوسيتانيا مثلاً ودلماطيا، أنّ الإحصاء والجبي الجديد يسبّبان في غالب الأحيان مشاكل كثيرة. كان مثير الاضطرابات في اليهوديّة يُدعى يهوذا الجليليّ[٩] الذي سبّب البلبلة في صفورة ببداية ملك أرخِلاوس. إنّه ينحدر من أسرة عُرف عنها الإجرام. حزقيا أبيه، مجرم من الدرجة الأولى، سبّب مشاكل لهيرودس الملك. وهو تحالف مع أحد الكتبة واسمه صادوق، ونَشَر عقيدة تكون الضرائب للرومانيّين بموجبها مخالفة للوصيّة الأولى في الدين اليهودي. مَن يدفع الضريبة للإمبراطور، يُقرُّ بسيّد آخر إلى جانب السيّد الوحيد الحقيقيّ. الوطن لله. ويحقّ له وحده أن ينال التقادم من منتوجات البلاد، في هيئة هبات للهيكل. دُعيَت هذه المجموعة المقاوِمة في بعض الأحيان الغيّوريين، أي أصحاب الغيرة. إنّهم يتبارون في الغيرة على الله والشريعة اليهوديّة التي يؤولّونها بتطرّف. في ذلك الوقت، أُخمِدَت ثورتهم بالدم. يبدو أن يهوذا قُتِلَ[١٠]. ونظنّ أنّ أبناءه يتابعون الآن مقاومتهم سرًّا[١١].

أضاف متيليوس مفكّرًا وهو يمسك أوراقه بيديه:

- منذ ربع قرن ونحن ندير هذا الإقليم، ولم يسد السلام بعد في هذا البلد. لا زال الغليان متأجّجًا! هناك أمر ليس على ما يُرام في ما نقوم به! ما هو؟ في أيّ شيء يخطئ بيلاطس يا أندراوس؟

٩- راجع يوسف، حرب اليهود ٢: ١١٨، "في عهد هذا الحاكم (كوبونيوس)، حثّ جليليّ اسمه يهوذا أهل البلد على الثورة (في إقليم أرخيلاوس أي اليهوديّة والسامرة) واتّهمهم بالجبن إذ يدفعون الضريبة للرومانيّين ولأنّهم يتحمّلون سادةً فانين بجانب الله".

١٠- لا يشير يوسف إلى الموت الرهيب ليهوذا الجليلي. راجع أعمال الرسل ٥: ٣٧ لهذا الشأن. فما ورد يبدو متوافقًا مع الأحداث.

١١- صُلِبَ ابنا يهوذا الجليليّ: يعقوب وسمعان في عهد الوالي طيباريوس إسكندر (٤٦-٤٨) (يوسف، تاريخ اليهود ٢٠، ١٠٢ = XX 5, 2). وتابعت الأسرة مقاومتها بعد موتهما، وقام بعض الحفدة بدور القادة في حرب اليهود (٦٦-٧٠)، وكان أحدهم مدافعًا في مسّادة، الحصن الذي قاوم الرومانيّين حتى سنة ٧٤.

لم أكن مهيأً لهذا السؤال. هل يقصد متيليوس إهانتي حين يسألني النصائح في أفضل طريقة لقمع شعبي؟ أيريد سبر رأيي في بيلاطس واختبار وفائي للحاكم الروماني؟ أم أنّه يشكّ في صواب السياسة التي سينهجها هو أيضًا؟ عليّ أن أتوخّى الحذر!

– أظنّ أنّ بيلاطس يسلك الطريق الصحيح. لكنّه يختار في بعض الأحيان وسائل سيئة.

– ما تعنيه من هذا؟

– أفكّر على سبيل المثال في مسألة العملة. جميع الحكّام السابقين عدلوا عن تمثيل رموز وثنيّة على قطعهم النقديّة، واكتفوا بتصوير أوراق الشجر أو النخيل أو صور أخرى لا معنى لها. لكنّ بيلاطس سكّ منذ بداية حكمه نقودًا عليها رسم لإناء التقادم وعصا العرافة.

– لكنّ فيليبّس، الأمير الهيرودسي، صوّر على عملته هيكلاً وثنيًا، ومع ذلك ظلّ الناس ينحنون له!

– نحن نعرف كيف نتصرّف مع الهيرودسيّين. أمّا بيلاطس فكان مجهولاً. حين أدخل لدينا أخلاقيّات الوثنيّة ورموزها، ظننّا أنه ينهج برنامجًا خُطّط له.

– لقد أراد فقط أن يرى اليهود يسمحون لغيرهم في أن يحافظوا على أخلاقيّاتهم الوثنيّة ورموزهم لا أكثر.

– لمَ يفعل ذلك بطريقة محرّضة؟ لماذا لا يحفظ إدخال الصور الإمبراطوريّة إلى أورشليم سرًّا بجلبها ليلاً؟ صور في مدينة الله الذي لا صورة له! وماذا حصل؟ اضطرّ إلى نزعها بسبب احتجاجاتنا. أيّ درس تلقّنه من هذا؟ لا شيء! فقد سعى إلى فعل الأمر نفسه مع الدروع التي تحمل اسم الإمبراطور! لماذا يفعل ذلك؟ لماذا يمسّ ما هو مقدّس لدينا؟

بدا أن متيليوس يفهم وجهة نظري تمامًا لكنّه عنيد.

– ولماذا هذه الاحتجاجات على مشروع استخدام مال الهيكل لقنوات المياه؟ أين أخطأنا هنا؟

– في الأحوال العاديّة، يمكن لمشروع جرّ المياه أن يتمّ على أحسن ما يُرام. لكنّ الآن وقتُ الحذَر. إنّ مال الهيكل الّذي يسيل بين يدينا يوميًّا يسمح بالعناية به. المشكلة هي تطهير جوّ الشكّ. هنا مهمّة أكثر إلحاحًا.

لم أجرؤ أن أقول له لم يبقَ لهذا إلاّ حلّ واحد: استدعاء بيلاطس. لقد أكثر في تخريب الثقة. كان عليّ ترك متيليوس يستنتج ذلك بنفسه. فحتى الآن، لازال يقلّب المسألة في جميع الاتّجاهات.

– لو أدركتُ الأمور جيّدًا، كلّ مشكلتنا تدور حول الهيكل. ففي نظر كثير من اليهود، نحن ندنّس قدسيّته. ولكن حاول مرّة أخرى أن ترى الأمور من وجهة نظرنا. نحن نتمنّى احترامه كما نفعل مع جميع هياكل العالم. هذا ما يسعى حاكم البلد إلى إظهاره جهارة في جميع الأماكن الأخرى حين يقدّم التقادم للإله المحلّي. إنّه يشارك في الطقوس، ويتمّ استقباله بين جماعة المؤمنين بالإله. لماذا نادرًا ما يحدث هذا عندكم؟ لماذا لا تسمحون لمَن ليس يهوديًّا أن يدخل الهيكل؟ جميع الآلهة الأخرى تُسَرّ حين يأتي الغرباء ويقدّمون التقادم على هيكلها! لا إله قليل الضيافة إلاّ إلهكم[١٢].

– إنّ إلهنا لا يكتفي بطلب التقادم أو البخور. لايمكن أن يقدّم الذبائح إلا من يحترم وصاياه يوميًّا. إنّ ديننا على علاقة وثيقة بنمط حياة، وهذا لا يتمّ في مكان آخر. لا تطلب آلهة الشعوب الأخرى من الناس أن يقوّموا حياتهم وفقًا لوصاياها. إنّها تقبل التقادم من أيّ كان.

١٢– يمكن للغرباء أن يقدّموا الذبائح في هيكل أورشليم. فهم يشترون حيوانات الذبيحة، ويقدّمها الكاهن في الداخل بغيابهم، لأنّه لا يحقّ لهم أن يدوسوا الأرض المقدّسة. في ٦٦ ميلاديّة، كان إلغاء هذه الذبائح إشارة إلى الانتفاضة على الرومانيّين (راجع يوسف، *حرب اليهود* ٢، ٤٠٩ وما يليها). كان من بين التقادم الملغاة، تلك التي تتمّ مرّتين في اليوم لأجل الإمبراطور وشعب روما (المرجع نفسه ٢، ١٩٧). في البداية، أمر الإمبراطور بهذه التقدمة على حسابه (راجع فيلون *Legatio ad Gaium* 157). وبعد ذلك، صارت الجماعة اليهوديّة تتحمّل المصاريف (يمكن استنتاج هذا من يوسف، *ضدّ أبيون* ٢، ٧٧).

– لكنّك ترى جيّدًا أنّكم لا تسلكون بحسب الوصايا. فأنتم أيضًا لديكم آلهتكم الصغيرة!

– نحن على يقين تامّ من أنّا لا نحترم الشريعة. لهذا السبب للهيكل أهميّة عظيمة. فكبير الكهنة يدخل قدس الأقداس مرّة في السنة لينال من الله الغفران عن جميع المخالفات التي ارتكبها الشعب تجاه الشريعة الإلهيّة. ولا يقتصر الأمر على الشعب جملة. فكلّ واحد يستطيع أن يصالح الله بإحضار تقدمته للهيكل كفّارة عن خطيئته. إنّ تعلّقنا بالهيكل يعني بالضبط أننا نأخذ الوصايا على محمل الجدّ. فما من مصالحة بدونه!

– هل يُعلّم كَتَبَتُكم هذا أيضًا؟

– جميع اليهود يوافقوني الرأي.

– حتّى يوحنّا المعمدان؟ ألم تروِ لي بأنّه طلب من الناس أن يتعمّدوا في نهر الأردن لينالوا الغفران عن خطاياهم؟ ألا يشكك بدينكم في فعله هذا؟ ما دور الهيكل إذا كان بإمكاننا نيل غفران الخطايا بدونه؟ وما هو شأن الأسّينيّين أيضًا؟ إنّهم يظهرون عدم مشاركتهم في العبادة عمدًا!

كان عليّ أن أهنّئ متيليوس. إنّه على حق، فهنا تناقض. وانطلق متيليوس في الكلام:

– إذًا، لديكم أناس يقلّلون من شأن الهيكل في ناحية ما، وتقولون إنّهم قدّيسون، ومن ناحية أخرى، نُهين، نحن الرومانيّين، قدسيّة هيكلكم ببعض الأفعال الرديئة فنُعتبر أشرارًا.

عارضتُ:

– ولا واحد من قدّيسينا يقرّب من الهيكل رمزًا وثنيًا! هذا هو الفرق!

أجاب متيليوس بإثارة وهو يتابع سيره في الغرفة طولاً وعرضًا:

– ربما. الآن أعرف لماذا تصطدم سياستنا دائمًا بقدسيّة هيكلكم! لأنّكم أنتم أيضًا تتجادلون في شأنه. بما أنّكم تتساءلون في هذه القدسيّة، يكون ردّ فعلكم عنيفًا نحو الخارج. إنّ تعصّبكم في الدفاع عنه ضدّ ما قيل إنّها تهجّماتنا يُطبّق تمامًا عليكم.

كان متيليوس يلفظ كلماته بحدّة وكأنّه قام باكتشاف عظيم. في رأيي، إنّه لا يعطي دور الرومانيّين حقّ قدره.

- ربما أننا نتناقش في مسألة الهيكل. لكنّا نفعل ذلك تمامًا لعظمة قيمته. ولأنّ إلهنا غير مرئيّ ويريدنا أن نعبده بدون صورة، لا تكفّ قلوبنا عن التوجّه إلى المكان المرئي الوحيد حيث وعد بأن يكون فيه قريبًا.

تحادثنا طويلاً عن وضع البلاد الدينيّ والسياسيّ. كان متيليوس رجلاً ذكيًّا، يفهم مشاكل ديننا بسرعة. كنتُ أثق فيه ثقة عمياء بنقطة واحدة: رغبته في الحفاظ على السلام والنظام في البلد بأقلّ ما يمكن من القمع أو سفك الدماء. كانت نواياه حسنة، ومع ذلك يخدم نظامًا بدا لي في الحلم وحشًا يمسكني دائمًا بمخالبه وبدون رحمة.

اختبرت هذه الوحشيّة اليوم أيضًا. ففي اللّحظة الّتي رجوتُ فيها أن أفلت منه، أمسك بي ثانية. لقد اقترح عليّ مرّة أخرى أن أخون شعبي، وفي هذه المرّة أقرب الناس إليّ. كلّ ذلك باسم السلام والنظام! أيكون هذا السلام إنسانيًّا؟ لقد رأيتُ في حلمي رجلاً انتصر على الوحش وحرّرني من كابوس. لكنّي لا ألحظ شيئًا الآن. كنت سعيدًا في العودة إلى مكان إقامتي مع تيمون وملخوس، والترويح عن نفسي ببعض المحادثات التافهة. لكنّي لم أستطع أن أنسى برأبّا الذي أعرفه، ويسوع الذي لا أعرفه، والذي عليّ أن أجمع معلومات عنه في الأسبوع القادم. أيّ إنسان هو؟ ناسك مثل بنّوس؟ نبيّ مثل المعمدان؟ معتوه؟ إرهابيّ؟

الفصل الثامن

البحث في الناصرة

أخيرًا عدتُ إلى بيتي في صفورة. سمعَت أسرتي عن اعتقالي، وطـــارت من الفرح لرؤيتي. لم أقل شيئًا عن الثمن الذي كان عليّ أن أدفعه لنيل الحرّيّة. فقد أقفلَت حكمة الحيطة فمي وكذلك الخجل. كم تمنّيت لو لم يكن كلّ هذا سوى خطإٍ أو واحدٍ من تلك الأحلام السيّئة التي تتلاشى عند اليقظة! لكنّـــه ليـس حلمًا. إنّه حقيقة.

اتّفقنا مع باروك على أن يشارك في تجارتنا. إنّه ذكـــي ويجيـد الكتابــة والحساب، خصوصًا أنّه تعلّم عند الأسّينيّين كيف يدير المخزون. فهو وكيـــل جيّد. لكنّني أريد العودة مباشرة إلى الجوهر، إلى أبحاثي عن يسوع. أوّل مـــا يجب القيام به، وهذا أمر مفروغ منه، هو زيارة قريته. لابـدّ أن لديـه فيـها أقرباء أو معارف على الأقلّ. وصادف أنّنا نشتري الزيتون منها غالبًا، نعصره في صفورة ونبيع الزيت ليهود المدن السوريّة فنحقّق أرباحًا كبـــيرة. هـؤلاء الزبائن يفضّلون شراء زيت الجليل لأنّهم يعتبرونه طاهرًا إذ لم يمسّه الوثنيّون. وكانوا يدفعون لزيتنا "الطاهر" ثمنًا أغلى من زيت منافسينا الوثنيّيـــن[1]. لقـد ازدهرت تجارتنا لسبب البِرّ.

ذهبتُ إذًا إلى الناصرة مع تيمون وملخوس. نحن نشتري الزيتون عـــادة من صاحب أرض كبيرة في المنطقة. لكنّي وددتُ في هذه المرّة أن أتعامل مع العامّة. لم يكن الأمر صعبًا. للحال أعلن فلّاح اسمه تلماوس عـــن اسـتعداده لبيعي محصوله. إنّه يعيش مع زوجته سوسن في بيت فقـــير. كلاهمـــا فـــي الخمسين من العمر ووحيدان. ألم يُرزقا أولادًا؟ أم أنّ الأبناء كبروا؟ تســـاومنا طويلاً. لم أضغط عليه كثيرًا لأنّي حرصتُ على أن يظلّ رائق المزاج، لأنـــال منه بعد ذلك أكبر قدر ممكن من المعلومات. تمّت الصفقة فجعلنا نثرثر. كنّـــا جالسَين مع زوجته أمام الدار نتحدّث عن الطقس والحصاد وتجـــارة الزيـــت،

١- في أثناء حرب اليهود، حقّق يوحنّا الغيشالي رئيس الثوّار أرباحًا طائلة من بيع الزيـــت الطاهر لليهود السوريّين. كان يبيعه أغلى بثمانية أضعاف ممّا اشتراه (حرب اليهود ٢، ٥٩١ وما يليها).

بينما يحمّل تيمون وملخوس الزيتون على حميرنـــا. بـــدا تلمـــاوس وسوســـن مرهقَين، وصارا يتذمّران:

– الآنِ علينا أن نفعل كلّ شيء وحدنا.

نظرتُ متسائلاً فشرح لي تلماوس:

– كان لدينا ثلاثة أبناء أشدّاء. لكنّهم ليسوا هنا الآن.

– يا للهول! أماتوا؟

– لا. جميعهم أحياء. لكنّهم رحلوا ذات صباح وتركونا وحيدَين.

– هل تشاجرتم؟

– إطلاقًا. كنّا متفاهمين تمامًا. ولكن ما أكثر ما يحدث في أيّامنا!

وتدخّلت سوسن:

– لا يمكننا أن نقول إن هذه غلطة الشباب. فأوّل من اختفى من قريتنـــا كان أليازار. رحل ذات يوم مع زوجته وأولاده.

– ولماذا يختفي الناس هكذا؟

– كان أليازار فلاّحًا صغيرًا يعيش من أرضه حياة شحيحة. ومنذ بضعـــة سنوات، حصدنا تباعًا عدّة محاصيل رديئة. فأكل أليازار بذاره لكي لا يمـــوت جوعًا. وبسبب النقص العام في البقول، غلا ثمن البذار الجديد. مَن بقي لديـــه بعض منه ربح مالاً كثيرًا. أمّا الفقراء، فصار حالهم من ســـيّء إلـــى أســـوأ. واقترض أليازار المال، وعجز عن السداد. ما العمل؟ أعليـــه أن يبيـــع أولاده بسوق العبيد في صور كما يفعل آخرون؟ أبدًا! أيبيع نفسه مع أسرته ليـــهوديّ أكثر ثراء لكي لا يستردّ حرّيّته إلاّ بعد سبع سنوات[٢]؟ هل ينتظـــر أن يجـــرّه

٢– يجب عتق العبيد اليهود بدون مقابل كلّ سبع سنوات، إلاّ إذا اختـــار هـــؤلاء بمطلـــق حرّيتهم أن يبقوا في الخدمة دائمًا (سفر تثنية الاشتراع ١٥: ١٢ وما يليها). ويجب عدم بيعـــهم إلى غير اليهود لأنّهم يفقدون بذلك الضمانة القانونيّة في الانعتاق. على العكس، يظـــلّ العبيـــد الوثنيّون في الخدمة إلى الأبد. كان كثير منهم يهتدي إلى اليهوديّة، ليتمتّع من هذا الاهتداء بحقوق العبيد اليهود. بوجه عام، نستطيع أن نلاحظ أنّ اليهوديّة لم تمارس الاستعباد إلاّ بدرجة ضعيفـــة إذا ما قارنّاها مع القدماء. فحتّى في فترة الاستعباد المحدّدة، كان من حقّ العبيد أن ينـــالوا يـــوم راحة وهو السبت.

الدائنون إلى القاضي فيُسجَن من أجل الدَين، ويرى زوجته تغوص في الشقاء؟ كان أليازار عزيز النفس. واجه مصائبه واختفى في الجبل مع أسرته.

أعرف ما يعنيه هذا. هناك اختفى برابّا أيضًا بعد أن ترك بنّوس. لقد التحق أليازار بالغيّورين. في الجليل، جميع الناس يعلمون ما يعنيه هذا. لذلك أجبتُ:

– حسنًا أن يختفي مع أهله! هكذا لا يمكن أن تُمارس ضغوط على الأسرة بسببه؟ لقد سمعتُ مؤخّرًا عن حالة مشابهة في مصر[٣]: هرب رجل فقير خوفًا من العقاب لأنّه تأخّر في دفع الضرائب. حين رأى الدائن ذلك، اعتقل بالقوّة امرأة المديون وأولاده وأهله وأقاربه، وضربهم وأساء إليهم ليقرّوا أين مكان الهارب أو ليدفعهم مستحقّات الدين. لكنّهم عجزوا عن الأمر الأوّل كما الثاني، لأنّهم لا يعلمون إلى أين ذهب، وهم أيضًا فقراء. لكنّ الدائن لم يطلق سراحهم، بل عذّبهم وأهلكهم بطريقة بشعة. كان يضع على ظهورهم سلالاً مملوءة رملاً، ويقودهم في العراء إلى ساحة السوق، معرّضًا إيّاهم إلى لسع الهواء البارد أو حرقة الشمس، وإلى الخجل من الناس لكي يهينهم إلى أقصى درجة. لا بدّ أن هذا كان درسًا قاسيًا لمن شهدوا الأمر. وبالفعل، حدث أن انتحر بعض المديونين بالطعن بالسيف أو شرب السمّ أو الشنق. فقد بدا لهم أنّ الموت بدون تعذيب أمر حسن في شقائهم. لكن أعضاء الأسرة الأحياء يُعتقلون تباعًا، كلّ واحد بدوره، كما في ترتيب الخلافة: الأهل المقرّبون أوّلاً، ثمّ أقرباء الدرجة الثانية والثالثة حتى البعيدين. وحين ينتهي الأهل يُهاجم الجيران. وهكذا فقدت عدّة قرى ونواحٍ سكّانها، لأنّ جميعهم فرّوا ليختبئوا.

أصغى الزوجان إليّ بانتباه.

– لو وصل هذا التصرّف إلينا، ستخلو القرى عن قريب كما في مصر. كثير من الناس سيختفون كما فعل أليازار.

غامرتُ في سؤال آخر:

٣– نجد هذه القصص عند فيلون (De specialibus legibus III, 159-162)، وهو يشير بدون شكّ إلى حوادث معروفة في مصر. ويشير متّى (٥: ٢٥–٢٦ و ١٨: ٢٣–٣٥) إلى أنّه يمكن لحال المديونين في فلسطين أن تكون ميؤوسًا منها. المخالفة هنا يجهلها القانون اليهوديّ ممّا يثبت أنّ القانون الأجنبي كان يحدّد التشريع.

– ألأسباب من هذا النوع اختفى أبناؤكم؟

أجاب تلماوس:

– لا! نحن فقراء، لكنّا تمكنّا من تدبير أمورنا. كان يمكن لأبنائنا أن يبقوا. لكنّ جارنا أليازار أعطاهم المثل. لقد أفهم القرية كلّها أن هناك حلاً حين لا نعرف ماذا نفعل.

وصادقت سوسن وقالت:

– ربما استطاع أولادنا أن يدبّروا أشياء كثيرة لولا مَثَل أليازار. لكنّهم فهموا منذ ذلك الحين أنّ عليهم ألاّ يتحمّلوا كلّ شيء.

وتابع تلماوس:

– كان ابننا البكر فيلبّس أوّل المختفين. لقد وقّع وآخرين في القرية على عقد زراعيّ مع مالك كبير. كان عليهم أن يعطوه نصف محصول المزرعة، ويأخذوا النصف الآخر. هذا جعلهم يدبّرون أمرهم بين سنوات الخير وسنوات القحط. اعلَم أنّ المالك يسكن بعيدًا عن هنا، في بتولمايس (عكّا) على ساحل البحر الأبيض المتوسّط، ويدير ملكيّته بواسطة وكيل. في كلّ سنة، يرسل من بتولمايس وأحدًا ليأخذ نصف المحصول، ممّا سبّب أحيانًا بعض الاعتراضات. فالمالك لا يكترث إطلاقًا للمردود الحقيقي للمحصول. ما يهمّه هو أن يقبض. إذا تمكّن من بيع محصوله باكرًا وفي أوقات ملائمة، يمكنه أن يربح أكثر ممّا لو ترك الحصاد ينضج حتّى يفيض السوق بالبقول. إذا تمّ الحصاد باكرًا تكون الأسعار أكثر ارتفاعًا. وعلى العكس، فإنّ مصلحة المزارعين هي أن يحصلوا على أكبر كميّة ممكنة من المحصول، لأنّهم سيعيشون منه. لهذا يريدون أن يحصدوا آخر ما يمكن. إذًا، ردّ ابني وشركاؤه أوّل الوكلاء خاوي اليدين. فأرسل المالك اثنين آخرين مهدّدًا فلاّحيه بالشكوى إلى المحاكم وبخراب بيوتهم إن لم يسلّموا المحصول حالاً. فاستاء فيلبّس وشركاؤه، وضربوا الرسولَين وطردوهما من القرية[4]. منذ ذلك الحين، صاروا متّهمين. ماذا عليهم أن يفعلوا؟ من عادة محكمة بتولمايس أن تعطي المالك الحقّ دائمًا، خصوصًا حين

٤– يسمح مثل الكرّامين القتلة (مرقس ١٢: ١–٩) باستنتاج قضايا من هذا النوع. وقد حفظت لنا أوراق بردي من القرن الثالث ق.م. رسائل من زينون يحاول فيها عبثًا أن يتسلّم المردود، فقد طُرِد القائم بأعماله من القرية.

يعاني ساكن مدينة من مشكلة مع فلاّحين. لم يبقَ لديهم إلاّ إمكانيّة واحدة: الاختفاء في الجبل.

- لديّ أصدقاء أيضًا اختفوا في الجبل.

قلتُ هذا وأنا أفكّر في برأبّا. بالطبع، لم يصر غيّوراً بدافع الحاجة، بل عن قناعة. نظر إليّ تلماوس نظرة تقدير لأنّي لم أدن ابنه:

- كثير من الناس يعتبرون أهل الجبل قطّاع طرق. لكنّهم ليسوا إلاّ يائسين في وضع لا خلاص منه. إنّ أليازار وفيلبّس شهمان.

وتابعت زوجته الحديث:

- لا يهربون جميعهم إلى الجبل. فحال ابننا الثاني يازون مختلفة. لكيّ ندبّر معيشتنا، علينا أن نقبل بعض الأشغال إلى جانب عملنا في المزرعة، أي الأعمال الموسميّة والمياومة. كان يازون يذهب في غالب الأحيان إذًا إلى ساحة السوق حيث يجتمع جميع الذين يبحثون عن عمل[٥]. هناك يأتي المزارعون الأغنياء والوكلاء ليشغلوا ما يحتاجون إليه من الناس. هذا يوجب في بعض الأحيان انتظاراً طويلاً جدًّا. وكان يحدث أن يمكث هناك طوال اليوم دون أن يجد عملاً، ويُنعَتَ بالكسول إضافة إلى هذا، مع أنّه لم يسعد بشيء أكثر من الشغل! حين يجتمع هناك مع سائر العاطلين عن العمل، يتحدّثون في ما بينهم عن المدن الكبيرة حيث فُرص العمل أكثر من هنا. كلّما قلّ العمل كثُرت أحلامهم. وحان يوم فكّر فيه يازون أنّ لا نصيب له هنا. كان يعرف أنّه سيرث قطعة من أرضنا، لكنّها صغيرة جدًا لا تكفي لإطعام أسرة بكاملها. لم يعد يعرها اهتمامًا ورحل إلى الإسكندريّة. في السنة الماضية، كتب لنا يقول إنّ الأمور حسنة، وحين سيجمع بعض المال سيزورنا. ومنذ ذلك الحين، لا شيء عنه.

كانت الدموع تملأ مقلتيها. نظرتُ إلى تلماوس سائلاً فشرح لي:

- الأمر الأسوأ هو حين غادرنا برتلماوس أيضًا. لم تستطع زوجتي أن تقبل ذلك.

- ولماذا رحل؟ حين ذهب الأوّلان صار لديه من أرضكم ما يكفيه لإطعام أسرة صغيرة.

٥- يشير متّى (٢٠: ١-١٦) إلى أنّ العطالة عن العمل كانت مشكلة اجتماعيّة حقيقيّة.

أجابت سوسن:

– لهذا لا أفهم شيئًا. رحل أولئك بدافع الحاجة. كانا مُجبرَين. كان يمكن للأخير أن يبقى. من المفروض أن يظلّ واحد منهم على الأقلّ بالقرب من أهله.

قال تلماوس بهدوء:

– بالطبع سيعود. فقد أتى مرّة لزيارتنا. لم يرحل للضرورة. هذا صحيح. لكنّ شيئًا من الاحتياجِ دفعه. إنّه شابٌ حسّاس. كان شديد التعلّق بأبناء جارنا أليازار. ولم يفهم قطّ كيف صاروا قطّاع طرق. لقد تألّم من هذا كثيرًا. وحين تركَنا أخواه نال صدمة ثانية. صار يشكّ في العالم ويراه ظالمًا. وفكّر أنّه لا يمكن لهذا الوضع أن يدوم. لا يمكن للأغنياء أن يسحقوا الفقراء دائمًا، ولا أن يفضّل القضاة الكبار دائمًا، ولا أن يستمرّ قهر الغرباء للبلد دائمًا. يجب أن يتغيّر هذا يومًا. فالظلم في الأرض يصرخ نحو السماء، والله يرى كلّ شيء ويسمعه. لن يسمح لهذا بأن يدوم. سيقلب الأوضاع بحيث يشبع جميع الناس، ويجد الشبّان مكانًا لهم في هذا العالم، ويترك الأغنياء أماكنهم ويفقد القاهرون سلطتهم. سيأتي الله بنفسه ليمارس سلطته.

– إنّ الذين ينتظرون ملكوت الله كثيرين. لكنّ هذا لا يجعلهم يتركون أهلهم.

– هذه هي المشكلة. لم يفعل ذلك من نفسه. لقد أقنعه واحد من القرية اسمه يسوع. إنّه يطوف في الإقليم ويعلن أنّ ملكوت الله بدأ منذ الآن. ولا حاجة لانتظار آخر الأزمنة لتتغيّر الأمور. فالانقلاب العظيم في صدد الحدوث، وهو أهمّ ما في العالم، أهمّ من العمل والأسرة، من الأبِ والأم. لقد نقل لي برتلماوس بعض كلمات يسوع في زيارته. إنّها عبارات حسنة:

طوبى لكم يا من تبكون الآن، فإنّكم ستضحكون[٦].

بهذه الأقاويل يتنقّل يسوع في البلد ويدعو بعض الشبّان العاجزين عن التحمّل: تعالوا اتبعوني! كلّ شيء سيتغيّر. لن يظلّ الفقراء على حالهم، وسيشبع الجياع، ولن يبكي المعذّبون.

٦– راجع لوقا ٦: ٢٠–٢١). إنّ العبارة الموازية عند متّى تجعل من الفقراء بالمعنى الاقتصادي فقراء بالروح (٥: ٣).

وتدخّلت سوسن وهي في حالة إثارة:

- إنّ يسوع هذا مضلّل خطير يفسد الشباب. الأمر واضح: "طوبى لكم يا من تبكون الآن فإنّكم ستضحكون!" وما نتيجة هذا واقعيًّا؟ يبكي الأهل أبناءهم التائهين. يعِدُ بأنّ كلّ شيء سيتغيّر. فما يغيّر هذا في الواقع؟ إنّه يخرّب الأسر وحسب لأنّ الأولاد يتركون أهاليهم.

ودافع تلماوس عن ابنه:

- أليس من الأفضل أن نراه يتبع يسوع من أن يختفي في الجبال؟ أليس من الأفضل له أن يعيش في رجاء جديد بدل أن يفقد عقله؟ أليس من الأفضل أن يبقى في الجليل بدل أن يهاجر؟ لم أفقد الأمل. يمكنه أن يعود في أيّ لحظة.

أجابت سوسن:

- ولماذا لا يريد البقاء معنا؟

أشاح تلماوس وجهه لأنّه لا يريد أن يتناقش أمام غريب. لكنّ امرأته اندفعت غاضبة، وجعلت تصرخ:

- حين أتى، أجبرتُه على الكلام. قلتُ له: ما تفعله ليس أخلاقيًّا. لقد هرمنا. ربّيناكم أنت وإخوتك وها إنّكم تتركونا هنا! أتدري ما قال؟ ذات يوم، جاء واحد إلى معلّمه ليتبعه لكنّه أراد أوّلاً أن يدفن أهله. فقال له يسوع: "دع الموتى يدفنون موتاهم[7]". وحثّه على اتّباعه مباشرة. أليس الأمر خالٍ من الإنسانيّة؟ لا يستطيع الأهل الاعتماد على شيء البتّة! أليست قيمتنا، نحن الأهل، مثل قيمة الجيَف فلا يُراد دفننا؟ عندئذ ذكر لي عبارة أخرى ليسوع ليست أقلّ تشكيكًا من الأولى:

مَن أتى إليّ ولم يرغب عن أبيه وأمّه وامرأته وبنيه وإخوته وأخواته بل عن نفسه أيضًا، لا يستطيع أن يكون لي تلميذًا[8].

ما الذي يبقى من الحياة إذا كنّا لا نستطيع الاعتماد حتّى على ذوينا؟ من المحزن أن نرى هؤلاء الشبّان يهملوننا. وتبرير تصرّفهم بكلمات من هذا النوع أمر مريب.

سألتُ:

٧- متّى ٨: ٢١-٢٢

٨- لوقا ١٤: ٢٦

– مع أنّ يسوع من قريتكم. ماذا يقول ذووه في عقيدته هذه؟

ضحكت سوسن:

– إنّهم يعتبرونه مجنونًا! ذات يوم، أرادوا أن يُعيدونه إلى البيت بالقوّة فعجزوا، لأنّه تجمّع حوله مستمعون كثيرون. فأرسلوا إليه عندئذ يقولون: إنّ أمّك وإخوتك هنا ويريدون أن يكلّموك. بماذا أجاب؟ سأل سؤالاً: مَن هي أمّي ومن هم إخوتي؟ ثمّ أشار إلى مستمعيه وأضاف: "مَن يفعل مشيئة الله هو أخي وأختي وأمّي[9]".

وأجهشت سوسن في البكاء، فلفّ تلماوس عنقها بذراعه وداعب شعرها ببطء، والدموع تترقرق في عينيه هو أيضًا. في تلك الأثناء، انتهى تيمون وملخوس ودعياني إلى الرحيل. كان علينا العودة إلى صفورة قبل غروب الشمس. فودّعنا بعضنا بعضًا.

في الواقع، لدى يسوع ما ينفّر. إنّ فيه أمورًا كثيرة تذكّر بالأسّينيّين. ففي كلا الحالين، توجد السيطرة نفسها على الشبيبة، والانقطاع الجذري عن المحيط، واحتقار الغنى. وهنا كما هناك، رجاء بانقلاب كبير. ومع ذلك، هناك اختلاف مهم. ليس وراء يسوع أيّة جماعة منظّمة تملك كنوزًا مخبّأة. إنّه لا يقدّم بيتًا ولا ضمانًا. الحقّ يُقال، إنّه لا يقدّم شيئًا البتّة. كما أنّه لا ينعزل في الصحراء، بل يتنقّل في الأرياف. يبدو أنّه يبقى في غالب الأحيان بالقرب من بحيرة جنّاسَرِت بين كفرناحوم وبيت صيدا. لو حدث أن التقيتُه، عليّ أن أسلّم على برتلماوس. هذا ما طلبتْه منّي سوسن في لحظة الوداع. هل يشكّل يسوع خطرًا على أمن الدولة؟ لا أستطيع الحكم في ذلك. لكنّه يشكّل بالتأكيد خطرًا على عائلات الناصرة. وتذكّرتُ نبوءة قديمة تتحدّث عن نهاية الأزمنة: "ويشتم الابن أباه، وتقوم البنتُ على أمّها والكنّة على حماتها، وأعداء الإنسان أهل بيته[10]". هل تتمّ الآن هذه الكلمات عن انقسام الأسرة؟

٩– مرقس ٣: ٢١، ٣١–٣٥ لا بدّ أنّه كانت ليسوع في حياته علاقة متوتّرة مع أقاربه، مع أنّ بعضهم انضمّ إلى الجماعة المسيحيّة فيما بعد (مثال يعقوب أخا يسوع، راجع غلاطية ١: ١٩)

١٠– ميخا ٧: ٦ ولوقا ١٢: ٥٣ يجعلنا نفترض أنّ النبوءة في كتاب ميخا قد تمّت في تبشير يسوع.

الفصل التاسع

في مغاور أربيلا

اغتنمتُ أوّل فرصة لأقوم برحلة عمل من صفورة إلى بيت صيدا. اجتزتُ سهل أزوشي متّجهًا نحو بحيرة جنّاسرت مع تيمون وملخوس، على أن أزور كوزى وحنينة في طريق العودة. كنتُ آمل أن ألتقي يسوع في مكان ما على شاطئ البحيرة الشماليّ، أو أن أقتفي أثره على الأقل. ومع ذلك، لم تكن لديّ أيّة رغبة في التعرّف إليه. يبدو أنّنا سنظلّ غرباء. فنحن من عالمين مختلفين تمامًا. أنا من أسرة نبيلة تسكن أكثر مدن الجليل الشماليّ تحضّرًا، وهو من وسط متواضع، من قرية عديمة الأهميّة. لازالت تصريحاته الحقودة الشرسة تتردّد في أذنيّ، تلك التي أخبرني عنها تلماوس:

"لأن يَمُرّ جَمَل من ثقب الإبرة

أيسر من أن يدخل الغنيّ ملكوت السماوات[1].

ما من أحد يستطيع أن يعمل لسيّدين،

لأنّه إمّا أن يبغض أحدهما ويحبّ الآخر،

وإمّا أن يلزم أحدهما ويزدري الآخر.

لا تستطيعوا أن تعملوا لله وللمال[2].

الويل لكم أيّها الأغنياء، فقد نلتم عزاءكم[3]".

أليست هذه الحِكم انعكاسًا لحقد الشعب الفلاّح الفقير على أهل المدن الأغنياء؟ حين يكون المرء ثريًّا لا يمكنه أن يسمع أقوالاً كهذه دون أن يحسّ بمشاعر مختلطة. أليس يسوع من أولئك الذين يستغلّون بؤس البسطاء ليثير

١- مرقس ١٠: ٢٥ يقول النصّ إنّه يعسر على الغنيّ أن يدخل ملكوت الله

٢- متّى ٦: ٢٤

٣- لوقا ٦: ٢٤ في خلفيّة هذا النصّ فكرة أنّ لكلّ واحد قدرًا من السعادة. لقد نال الأغنياء نصيبهم والآن حان دور الفقراء.

البلبلة؟ مَن الذي يثير الحقد على أصحاب الملك؟ مَن يوقظ الرجاء الخياليّ بأنّ كلّ شيء سيتغيّر إذا جرّدنا الأغنياء من أموالهم، والمقتدرين من سلطتهم؟ يمكننا أن نفهم لماذا يتبعه شبّان يعيشون في ظروف صعبة.

سرتُ على الطريق بين صفورة وبيت صيدا وأنا غارق في هذا التفكير. كان الطقس جميلاً، والطبيعة الخضراء تبرق في أشعّة الشمس. وعلى الهضاب، لمعت المدرّجات الترابيّة في أشرطة نظاميّة الرصف، ووضعت الأشجار المثمرة بقع ظلال في الضياء. إنّ الجليل بلد بديع حقًّا، يجد جميع الناس فيه ما يأكلونه[4]. ألا يجدر بهذه الأرض أن تكون في تصرّف الجميع؟ كيف لا نفكّر هنا بأنّه لا علاقة للبؤس والشقاء مع خلق العالم؟

يا خالق العالم، يا مَن لا حدود لعظمته،
المتسربل ببهائه والملتحف بالنور،
تُطلّ عبر لغز الزمن وسرّ الكون،
تتجلّى في بهاء العالم، وتختبئ في المخلوقات.
تنام في الصخر وتحلم في الأزهار،
وتستيقظ في الحيوان وتتكلّم مع الإنسان.
تجعل النور حياة والمطر خضاراً،
وتنمّي البذرة والكرمة لجميع البشر،
فقراء وأغنياء، سوداً وبيضًا.
إنّ الأرض ملكك يارب، وهي الحديقة التي تعطينا إيّاها[5].

٤- راجع وصف الجليل عند يوسف: "الجليل خصب في جميع مساحاته وغنيّ بالمراعي، كما أنّ فيه جميع أنواع الأشجار حتّى إنّ الّذي لا يكترث للزراعة يخلبه منظر الخصب. لهذا استثمر سكّانه جميع الأراضي بدون استثناء، وليس هناك جزء قفر. مدنه مكتظّة بالسكّان، وبسبب غنى الطبيعة، لا نجد فيه قرى يسكنها أقلّ من خمسة عشر ألف ساكن" (حرب اليهود ٣: ٤٢-٤٣). ربّما كان الرقم مبالغًا فيه.

٥- عن المزمور ١٠٤

كان يوم رائع حقًّا. وكاد أن يظلّ كذلك لو لم ينتزعني من أفكاري صراخ حادّ. تمّ كلّ شيء بسرعة لا تُصدّق. أغارت ثلّة من المسلّحين علينا. كانوا حوالى خمسين ضدّنا نحن الثلاثة. لم يكن لدينا حظًّا في النجاة. فقبل أن نفكّر في الدفاع عن أنفسنا، قُلِبنا عن مطايانا، ودُفعنا إلى درب وعر موثقي الأيدي ومعصوبي الأعين. استولى عليّ الاضطراب مرّة أخرى، وتسارعت ضربات قلبي، ونضح العرق من جميع المنافذ، وتقلّصت عضلاتي. ماذا يريد منّا قطّاع الطرق هؤلاء؟ أتراهم لصوص عاديّون؟ لماذا لا يأخذون مالنا إذًا ويتركونا في حال سبيلنا؟ لم يتبادلوا بين بعضهم بعضًا إلاّ نداءات مختصرة. لا شيء يمكّننا من معرفة معنى هجومهم وهدفه. أصررتُ على أن أكلّمهم لكنّهم لم يردّوا.

سرنا في الجبال طوال ثلاث ساعات. لاحظت أنّنا نصعد، والطريق يغدو أقسى. وفجأة توقّفنا، فقال واحد:

- عليكم الآن أن تصعدوا درجًا ضيّقًا ثم تتسلّقوا سلّمًا. انتبهوا. زلّة قدم واحدة تكلّفكم حياتكم. نحن نحاذي الجرف.

حتّى في ذلك الحين، لم يسمحوا لنا برفع العصائب. علينا ألاّ نملك وسيلة نعلم منها أين نحن. كان جزء من الطريق منحوت في الصخر، والجزء الآخر سلالم متحرّكة. تقدّمنا ببطء ونحن نتلمّس الدرب. وفي الممرّات الصعبة، يقول لنا حرّاسنا أين نضع أقدامنا. وجالت في خاطري فكرة أنّهم لو أرادوا أن يتخلّصوا منّا، يكفيهم أن يدفعونا قليلاً. ووصلنا أخيرًا إلى أرض صلبة. كان علينا أن نتقوقع ونحبو لندخل فتحة ضيّقة. سمعت تيمون وملخوس وبعض مرافقيهم يبتعدون في اتّجاه آخر. ودُفعتُ من هنا وهناك حتّى فقدتُ كلّ إحساس بالاتّجاهات.

رفعوا عنّي العصابة فوجدتُ نفسي في فسحة معتمة يضيئها مصباح زيتيّ بنور خافت. كانت الحواف صخريّة، وتبيّن الدمدمات وجود آخرين في مكان ما. تركوني في البداية وحدي بعد أن قيّدوا رجليّ. وخطرت ببالي فكرة:

مغاور أربيلا! لا يمكن أن تكون إلاّ هي! إلى هنا يلجأ المقاومون دائمًا. لقد روى لي والدي مرارًا كيف حاربهم هيرودس الكبير. كان تاريخًا أسود. لازلتُ أسمع صوته يحكي لي[6]:

"إنّ مغاور أربيلا هي في جروف الجبال الحرجة ولا يمكن الوصول إليها مباشرة من أيّ مكان كان. ولا يمكن التسلّق إليها إلاّ بسلالم مائلة ضيّقة جدًّا. وتطلّ الكتل الصخريّة التي في الفوهة على هوّة عميقة حادّة الانحدار ومتشقّقة. ارتبك هيرودس وقتًا طويلاً بسبب صفة عدم البلوغ هذه، حتّى توصّل إلى فكرة في غاية الخطورة. فقد أمر بأن يُنزّل أشدّ رجاله من القمّة في صناديق مربوطة بحبال. وهكذا وصل إلى مستواهم. وقذف الجنود بالمشاعل كلّ من يحاول المقاومة فقتلوهم مع عائلاتهم في آن واحد. وتمنّى هيرودس أن يحتفظ ببعضهم أحياء، فأعلمهم أنّه بإمكانهم الاستسلام. كان عدد الذين فضّلوا الموت على الأسر كبيرًا. وكان من بين المقاومين شيخ عجوز مع أبنائه السبعة. فطلبت منه امرأته وأبناؤه الإذن لمغادرة المغارة والاستفادة من الوعد الملكيّ في الحفاظ على حياتهم. فقتلهم على النحو التالي: أمرهم بأن يخرجوا الواحد تلو الآخر، ووقف عند فوهة المغارة، وجعل يقتل كلّ مَن يحضر. رأى هيرودس المشهد من بعيد فأخذته الشفقة، ومدّ يمينه وحلّفه بأن يحفظ حياة أبنائه على الأقل. لكنّ هذه الكلمات لم تؤثّر فيه. بل على العكس، عيّر هيرودس لسلالته الغامضة. وبعد أن قتل أبناءه قتل امرأته أيضًا، ورمى الجثث في الوادي ثمّ رمى نفسه وراءها".

الآن، أنا في مغاور أربيلا! لقد سقطنا بين أيدي المتعصّبين! مَن كان قادرًا على قتل أولاده لن يتردّد في قتل أيّ كان إذا تطلّبت قناعاته ذلك. ألم يتمكّن هذا العجوز المتوحّش من أن يردّد هو أيضًا كلمات يسوع: "من لم

٦- ما يلي منقول بالحرف تقريبًا عمّا يقوله يوسف في حرب اليهود (١، ٣١٠، ٣١٣). إنّ مغاور أربيلا هي أصغر مما يُظنّ في ما ورد أعلاه. ففي صحراء اليهوديّة مجموعة من الكهوف استعملها المقاومون. وقد نقلناها هنا إلى الجليل.

يفضلني عن أبيه وأمّه وامرأته وأولاده لا يستطيع أن يكون لي تلميذاً؟" أليس يسوع من الغيّورين؟ أليس الفارق الوحيد هو أنّه لا يختبئ في المغاور بل يعلّم علناً، وبالتالي، لا يعلن رسالته الثوريّة على الملأ؟

سمعتُ وقع أقدام، وجعل بصيص نور يأرجح خيالاً على جدران المغارة. تقدّم واحد منّي وهو يحمل مصباحًا زيتيًّا يخفيه بحيث يمنعني من التعرّف إلى وجهه. وقال لي:

– ستظلّ سجيني طالما لم تدفع أسرتك فديتك. لقد فتّشنا حقائبكم. أنتم أغنياء. نريد نصف وزنة فضّة تُدفع قبل ثلاثين يومًا. سنرسل عبديك إلى بيتك ونحمّلهما رسالة مناسبة. ستكتب الآن الرسالة مع طلباتنا.

جرّبتُ الاعتراض:

– وإذا لم تدفع أسرتي؟ نصف وزنة، هذا كثير!

أجاب الآخر بهدوء:

– سيكلّف هذا أسرتك غاليًا أيضًا. مراسم الدفن اللائق مصروف كبير. ونحن سنهتمّ بالجثّة!

– وإذا لم أكتب الرسالة؟

– سيكون هناك دفن لثلاثة عندئذ.

– أتريدون قتلي حقًّا لأجل المال؟

– تلقّيتُ أمرًا بأن أرفض كلّ نقاش. اكتب الرسالة! عليك أنت أن تقرّر حسن سير الأمور!

لسعتني الكلمات كضربة سوط. لا أستطيع إلاّ أن أعارض كراهيتي مع برودة أعصاب مختطفيّ. منذ هذه اللحظة كفّوا عن أن يكونوا بشرًا. لقد تحوّلوا إلى شياطين ووحوش. ومنعتني ذكرى العجوز وأولاده السبعة وحدها عن الانسياق وراء مشاعري. كنتُ أُعجب بهذا الرجل البطل من قبل. أيملك مختطفينا شجاعةً عديمة الرحمة مثله؟ جعلتني هذه الفكرة أجرّب محاولة أخرى للحوار:

- لماذا تفعلون ذلك؟

فأجاب الآخر مباشرة:

- ولا كلمة! اكتب!

وحرّر يديّ دون أن يقول شيئًا. مدّ لي ورقة بردي وحبرًا ويراعًا. تساءلتُ وأنا أتحضّر للكتابة هل عليّ أن أسأله عن برأبّا. أعرف أن الغيّوريين ينقسمون غالبًا إلى مجموعات متعادية. ماذا لو أنّ برأبّا ينتمي إلى فصيلة أخرى؟ أو أنّه ترك الغيّورين فصار في نظرهم خائنًا؟ لا! لو كشفتُ لعبتي باكرًا لانتقلتُ من سيء إلى أسوأ. كتبتُ إذًا الرسالة التالية:

اندراوس يسلّم على أبيه وأمّه!

آمل أنّكم في خير. أفكّر فيكم دائمًا. لسوء الحظّ، حلّت بي مصيبة كبيرة أخرى. اليوم بالذات، اختطفني قطّاع طرق. وهم يطلبون فدية مقدارها نصف وزنة فضّة ويمهلونكم ثلاثين يومًا لتدفعوها. لقد هدّدوا بقتلي أنا والآخرين. ولكن ثقوا، لقد نجحتُ في الهروب من السجن الرومانيّ وأنا واثق من أنّي سأهرب من هذا أيضًا.

سلام لباروك.

سينقل لكم تيمون وملخوس هذه الرسالة.

السلام عليكم جميعًا.

فكّرتُ في أنّهم سيقرأون الخطاب حتمًا قبل إرساله. لو عرفوا أنّ بيلاطس اعتقلني مؤخّرًا، يمكنهم أن يصيروا أكثر تسامحًا. أعطيت الورقة لسجّان الشؤم الذي ظلّ جالسًا، فأخذها دون أن ينظر إليها. هل يجيد القراءة؟ خاب ظنّي. قيّد يديّ قبل أن يرحل، ثمّ سمعته يختفي في متاهة الأروقة، وظللتُ وحدي.

جعلتُ أفكّر. أيكون الشبّان الهاربون من الجليل هنا؟ أتراهم أناس مثل أليازار وفيلبّس، اختبروا الظلم يومًا، وهم يظلمون بدورهم؟ ما الذي حدث لهم لكي يهدّدوا الأبرياء بالموت هكذا، ببرود وبصوت هادئ، وبأمر من فوق،

وكأنّ الأمر طبيعيًّا للغاية؟ منذ بضعة أيّام، شعرتُ عند تلماوس بالودّ والتفـــهّم للغيّورين: ألا يستحقّ تقديرنا مَن يهبّ على وضع لا رجاء فيه؟ لكنّي لاحظـتُ كيف تلاشت جميع هذه المشاعر الجميلة. فحين نجلس مقيّدي اليدين والرجليـن في مغاورهم، أمام مصير غير محتوم، لا يمكن للإعجاب برجال المقاومـــة إلاّ أن ينهار. أنا لا أشعر إلاّ بالاحتقار يزداد فيّ. إحتقار شبيه بالّذي شعرتُ بـــه تجاه بيلاطس. إنّه الخوف من أن أجد نفسي سجينًا مدى الحياة أو لأجل الموت بين يديّ منتصرٍ. إنّها المرارة أمام الاستغلال البشع للتبعيّـــة. ألـم يسـتعمل بيلاطس المساومة والتهديد بالطريقة نفسها؟ فطريقة استخدامه لســلطته هـــي ذاتها هنا. فأين الفارق إذًا؟

أغلقتُ عينيّ فرأيت بعض مناظر الجليل تظهر ثانية. النور الرائع علـــى الوديان والهضاب وهدوء الصباح. ما أجمل كلّ هذا، وما أبشع ما يحدث تحت الشمس، حياة الناس المفعمة بالشجار والاستغلال والضغط وســـوء المعاملـة والتهديد بعضهم لبعض. ومع ذلك تتابع الشمس شروقها وغروبها. وجالت فـي خاطري الكلمات تلقائيًّا:

"رأيتُ أيضًا جميع المظالم الّتي تُرتَكَـبُ تحـت الشـمس، وإذا بدمـوع المظلومين ولا معزٍّ لهم. وفي أيدي ظالميهم قدرة ولا معزٍّ لهم أيضًا. فـهنّأتُ الأموات الّذين ماتوا لا الأحياء الّذين لا يزالون أحياء. وخير منهم جميعًا مَن لم يوجد حتّى الآن لأنّه لم يرَ العمل الشرّير الّذي يُعملُ تحت الشمس[٧]".

كنت أرى الشمس داخليًّا. ما أجمل لو أراها حقيقـــة. لا أدري كـم مــن الوقت مكثتُ أحدّق بنور المصباح الزيتيّ الخـــافت. كـان مــن السـيراميك الأجنبي، من صور. ربما أحضره حرفيّ فينيقيّ معه إلى الجليـــل، أو ربّمـا سُرِقَ منه. إنّه يشتعل الآن في مغارة أربيلا، ويتمايل رجائي مع هــذا اللــهب الخافت الثابت. سمعتُ خطوات تقترب منّي مرّة أخرى. فكّوا أغلالي وقـادوني إلى حجرة جلس فيها عدد من الرجال متحلّقين. لـــم أسـتطع التعـرّف إلـــى

٧- سفر الجامعة ٤: ١-٣

وجوههم فالمكان مضاء بنور خافت. كان المشهد يشبه محكمة شعبيّة. أتراها جلسة قضاء؟ كان أمامي واحد يجلس أعلى من الآخرين. إنّه الرئيس بدون شك. قال لي:

- أندراوس بن يوحنّا. أصحيح أنّ الرومانيّين سجنوك؟

لقد أصبتُ في حسابي فارتحتُ. لقد قرأ الرسالة وابتلع الطعم. شرحتُ المظاهرة على بيلاطس بكثير من التفصيل، وختمتُ شارحًا بأنّ هدفها ليس قنوات الماء بل إنّ المشكلة الأساسيّة هي المال: فالرومانيّون يمتصّون بضرائبهم دم البلد ظلمًا. وها هم يدّعون الحق في الاستيلاء على الضريبة الشرعيّة الوحيدة، تلك التي للهيكل. كان لا بد من الدفاع عن ذلك.

والتفت الرئيس إلى واحد من الحضور:

- لقد كنتَ في المظاهرة. أيمكنك تأكيد ما قيل؟

أجابه باهتمام:

- نعم!

لاشكّ أنّه لم يرني بين المتظاهرين، لكنّه سمع بأنّه تمّ إلقاء القبض على شابّين من صفورة ظلمًا، لا لأنّهما فعلا شيئًا وإنّما لعدائهما الواضح للرومانيّين. وتابع الرئيس كلامه:

- بما أنّك ضد الرومانيّين سنعدل عن الفدية. لكنّا نحتاج إلى إثبات بأنّك معنا. إنّ الرومانيّين يفرضون علينا، نحن اليهود، ضرائب ظالمة. نطالب بأن تدفع لنا أنت وأسرتك في كلّ سنة مقدار ما تدفعونه لهم. وبالمقابل، نترك قوافلكم التجاريّة ورجالكم يمرّون منذ الآن بسلام. إنّه عرض شريف!

في الحقيقة، إنّها مساومة. ولكن، ماذا يمكنني أن أفعله؟ ففي كلّ الجليل يتحدّث الناس عن اتّفاقيّات سريّة من هذا النوع. يقبض قطّاع الطرق والغيّورون ضرائب نظاميّة من التجّار. إنّها الوسيلة الوحيدة للإقلال من الغارات المسلّحة. على هذا النحو تبدو هذه الاتّفاقيّات من الممارسات التجاريّة. لكنّ الثمن كان مرتفعًا جدًّا، فبدأت المساومة:

- إنّ السلطات الرومانيّة تقبض ضرائب ظالمة منّا، نحن اليهود، ولا تقبض ذلك من الوثنيّين. ففي صفورة، لدينا عبيد وثنيّون يجب عدم إدخالهم في الحسبان.

لم أقل إنّ تيمون ليس إلاّ نصف وثني، وهو ممّن نسمّيهم: "الذين يخافون الله". إنّهم يؤمنون بالإله الواحد ويطبّقون الوصايا العشر ويحضرون الصلاة في المجمع، لكنّهم لا يختتنون. يجب ألاّ يُعرف هذا الأمر مادام تيمون تحت سيطرة هؤلاء. لأنّه يُقال إنّ الغيّورين، حين يقتنعون بأنّ واحدًا يؤمن باليهوديّة، يجبرونه على الاختيار بين الموت أو الختان.

أقرّوا برأيي ففوجئتُ. لن يدخل العبدان الوثنيّان في الحسبان. لكنّني لم أستسلم.

- نحن لا ندفع الضرائب في الجليل للرومانيّين مباشرة بل لهيرودس أنتيپاس الذي يدفع جزءًا منها لهم. يجب إذًا طرح مبلغ معيّن. فهيرودس أنتيپاس ليس رومانيًّا، إنّه أميرنا الشرعي.

- إنّه غير شرعي. لقد استولى الهيرودسيّون على السلطة.

وفي نهاية الجدالات الأخيرة، حصلتُ أيضًا على شيء من التخفيض واعدًا بنقل بعض المعلومات من هنا وهناك. هذا يجعلني أبيع ما يُقال إنّها معلومات عن تشديد المراقبة على الحدود بين بتولمايس والجليل بثمن لا بأس به. ولاحظتُ كم منحتني هذه النقاشات أمانًا. حين يتجادل الناس في قضايا المال يصبحون أكثر أهلاً للثقة. فالتعامل مع تاجر محتال أمتع من التعامل مع إرهابيّ متعصّب. وفي النهاية، أعلن لي الرئيس راضيًا:

- إنّها صفقة جيّدة! صفقة لصالح الطرفين.

أضفتُ:

- صفقة ترتكز على خطفكم لي وحجزي في هذه المغارة.

فضحك الرئيس:

- صدّقني يا أندراوس. علّمتني الحياة أنّه من الصعب حثّ الناس على التعامل بشكل فعّال. يجب مساعدتهم في بعض الأحيان.

هذا بالضبط ما قاله لي بيلاطس. وكفّ عن الضحك وقال بجديّة:

- إن لم تحترم المعاهدة سننشر الأمر في قيصريّة وأماكن أخرى، فيُشكّ في أنّ لك علاقة مع الإرهابيّين. هذا لن يسهّل قطّ تجارتك، أفهمت؟

ثمّ جعل يضحك:

- حسنًا، هيّا نأكل الآن ونشرب قليلاً.

هدأت الأجواء. أحضروا تيمون وملخوس. الآن هناك أربعة مصابيح تنير الحجرة، بحيث أستطيع التعرّف إلى الوجوه. كانت غالبيّة الحضور من سنّي. والرئيس وحده يتجاوز الثلاثين على ما يبدو. ولكن، ماذا أرى؟ لم أصدّق عينيّ. أليس هو برأبّا؟ أجل. إنّه هو! أردتُ أن أسرع إليه لكنّه استدار غير مبالٍ. أأكون قد أخطأتُ؟ ظللت غير واثق وانتظرتُ لحظة أستطيع فيها أن أرى الغريب خفية. لا! لا مكان للشكّ: بالتأكيد إنّه هو. وأدار لي ظهره ثانية. فأدركتُ أنّه لا يريد أن يبيّن لأحد أننا نعرف بعضنا بعضًا. ربّما لأننا لم نخرج بعد من دائرة الخطر؟ اختلطت الأمور عليّ. لم أجعل أحدًا يلحظ شيئًا حين سألني ببراءة أين ولدتُ، وما هو عمل والدي وكم أخًا لي وأختًا. الآن تثبّتُ من الأمر: إنّه يريد أن يوحي بأننا لا نعرف بعضنا بعضًا. لابدّ أنّ لديه أسبابه. فلعبتُ لعبته. وفي لحظة من اللحظات، التقت نظراتنا، ولاحظتُ أنّه ينظر إليّ بودّ، فشعرتُ بحرارة تسري في جسدي. من الحسن أن نجد صديقًا بين أفراد هذه العصابة. الآن وثقتُ من أنّ الأمور ستسير على أتمّ ما يُرام.

قُرِّر بأن نمضي الليل في هذه المغارة، ونرحل باكرًا في اليوم التالي. وذهب الجميع ليناموا، وتركوني في حجرة مع تيمون وملخوس. وبعد قليل، سمعتُ تنفّس الشابّين المنتظم.

الفصل العاشر

الخوف من الأعداء وحبهم

نمتُ مع مرور الوقت. لا أدري هل هو حلم ليليّ أو رؤية نصف نـــائم. كلّ ما أعرفه هو أنّ صورَ اليوم المنقضي طاردت بعضها بعضًا. فتـــارة أرى نفسي أمام محكمة الغيّورين، وتارة أخرى أمام بيلاطس. تارة أعبر في طبيعـة الجليل المشمسة، ثمّ أسقط في الظلمة فلا أعرف هل أنا في السجن بأورشليم أو في مغاور أربيلا. وتظهر شخصيّات من الظلّ: رئيس الغيّورين الذي ينظـــر إليّ عابسًا، ثم بيلاطس يعبس أيضًا. ويختلط وجهاهما. وأسمع زمجرة الوحـش مرّة أخرى، وأرى الأنياب الفظيعة، والمخالب التي تسعى إلى تمزيقي. شعرت بأنّها تكاد تلمس وجهي، فاستيقظتُ مذعورًا. لقد لمسني أحد. تملّكتنـــي فكـرة أنّهم يريدون قتلي في الليل سرًّا. لكنّني سمعتُ صوتًا مألوفًا يلج أذني:

– هس، اتبعني بدون ضجّة.

إنّه برأبّا. انسحبنا بصمت في ممرّ طويل يقود إلى الخارج. وهناك تابعنـا تسلّقنا للصخور حتى تجويف صغير. فهمس برأبّا:

– هنا نحن في أمان. أنا في حراسة الليل.

– برأبّا!

قلت هذا وعانقته. جلسنا وتأمّلنا الليل. كانت السماء تنشر فوق الجليل قبّة تتلألأ فيها النجوم، والقمر ينشر ضياءً خافتًا على الصخور، ويعكـــس سـطح المياه الساكنة لبحيرة جنّاسرت نورَه. جلسنا القرفصاء في الظلّ، ولم يعِرنا أحدٌ انتباهًا. فتمتم برأبّا:

– لابدّ أنّك تفهم لماذا تظاهرت منذ قليل بأنّي لا أعرفك. هذا ضـــروري. لولا ذلك لسعوا إلى ضمّك إلينا بالقوّة أو بالمساومة. ولا أدري ما سـيحدث إن رفضتَ.

صمتُّ.

– أنا الذي اقترح الاستعاضة عن الفدية بحِلفٍ طويل الأمد.

– شكرًا جزيلاً! ولكن قل لي، هل يقتلوني لو رفضتُ؟

لم يُجب برابًا، فأعدتُ السؤال:

– هل يقتلوني؟

تنهّد:

– لا أدري ما تفكّر فيه الآن. ربما تقول إنّي قاتل شرس. عليّ أن أقرّ بأنّي قتلتُ أشخاصًا. أوّلاً جنديًا رومانيًا لاحقني. كان عليّ التخلّص منه وإلاّ قتلني. الثاني مالك أراضٍ حكمنا عليه بالموت. لقد جعل أسرة بكاملها تنتحر. كانوا مدينين له بالمال، ففضّلوا الموت على السجن.

– لكنّي لم أهدّد أحدًا! لم أضطهد أحدًا! لم أقهر أحدًا! ومع ذلك هدّدتم بقتلي. لماذا؟ ألأنّي من أسرة غنيّة فقط؟ أهذا هو جرمي الوحيد؟

وضع برابًا أصبعه على شفتيه وأشار إليّ بأن أتكلّم بصوت خافت. علينا أن نكون حذرين. تدحرج حجر على بعد مسافة صغيرة وسقط في الهاوية بقفزات. حبستُ أنفاسي، لكنّ كلّ شيء ظلّ هادئًا، فقد كنّا وحيدَين.

– لم نقتلك. لم نرِد إلاّ مالك. ربّما تسمّي هذا سرقة. لكنّا لا نأخذ منكم، أنتم الأغنياء، إلاّ ما أخذتموه من الفقراء تحت ستار القانون غالبًا. نحن نحرص فقط على أن تعود أموال هذا العالم إلى أصحابها الحقيقيّين. أنظر إلى جميع هؤلاء الرجال حولك. غالبيّتهم طُرِدوا من منازلهم وبساتينهم. أتوا إلينا لأنّهم لم يروا حلاً آخر. نحن ملجأهم الأخير، أملهم الأخير.

– ولكنّ لديك إمكانيّة أخرى، فحال أسرتك لا بأس به.

– أنا حالة استثنائيّة. لهذا أبقى هنا. لديّ رسالة كبيرة. غايتي أن أعاقب جميع الأغنياء والقضاة والموظّفين الظالمين. هذا ما يجب أن تفعله الدولة في الواقع، لكنّها تهمل واجبها. وأكثر من ذلك، إنّها تزيد الظلم متستّرة بقوانين لا تحمي الفقراء. علينا أن نتدخّل مكانها. علينا أن نسهر على العدالة. إذا لاحظ الناس أنّه يستحيل عليهم السلوك كالحقيرين بدون عقاب، سيخافون من مصّ دم

الصغار. لهذا عليّ أن أبقى هنا. أنا أحرص على أن يجسّد هؤلاء الناس فكرة، لا أن يكتفوا بالسلب والقتل من شدّة يأسهم.

- هل تسمّي تهديد عبدين بالموت عدلاً؟ أيّ ظلم اقترفه تيمون وملخوس؟ مَن سحقا؟

صمت برأبّا لكنّي لم أتراجع:

- هل يمكن ضرب الأشرار فقط؟ جميع أصحاب الأراضي يملكون خدّامًا وعبيدًا مع شيوخهم وأولادهم. ألا يمكن أن تقضوا على الأبرياء إذا حرقتم البيوت ذات ليلة؟ لن تقتلوا الأغنياء والمستغلّين ومصّاصيّ الدماء فقط، بل المقهورين أيضًا والذين تُمَصّ دماؤهم. إذا قتلتم غنيًّا لابدّ لكم من الهجوم على العبد الذي يرافقه وقتله. إذا دمّرتم محصوله، ستخرّبون في الآن نفسه وسائل عيش مَن يشتغلون في الأرض ويفنون أنفسهم في سبيلها. إنّ ما يفعله كثير من أبناء طبقتي بشع. فهل محاربتهم بالارهاب أفضل؟

صمتنا لحظة ثمّ قال برأبّا:

- هرب منذ فترة واحد منّا. كان يتكلّم مثلك، وقد كنّا أصدقاء.

- وما الذي يفعله الآن؟

- يتبع نبيًّا غريب الأطوار. لقد تعرّف إليه وهو يصطاد لنا سمكًا من بحيرة الجليل.

- قل لي، ألا يُدعى هذا النبيّ يسوع؟

- أتعرفه؟

- لم أره قط. لكنّي سمعتُ به! ظننتُ أنّه غيّور أيضًا. ما يقوله عن الأغنياء يشبه بشكل مدهش ما أعلنته الآن.

- أنت على خطأ يا أندراوس. يسوع هذا فاقد الرشد. لم أرَ قطّ إنسانًا يؤمن بفكرة مستحيلة مثله!

– ألا يتكلّم مثلكم بالضبط حين يؤكّد أنّا وصلنا إلى منعطف عظيم؟ وأنّ الله لن يرضى بعد بهذا الظلم؟ وأنّ مملكته قد حانت أخيرًا؟

– لكنّ هناك فارق كبير! نحن أيضًا لا نريد إلاّ مملكة الله وحده لا مملكة الرومانيّين الذين يسحقون بلدنا. لكنّا على يقين من أنّ الله لا يتدخّل إلاّ لصالح مَن يصنعون مصيرهم بأيديهم[1]، ولا يساعد إلاّ من هو على استعداد للثورة والنهوض على العدو. فهل تعرف ما يعلنه يسوع؟ لقد روى لي سمعان أحد أمثاله:

"مَثَلُ ملكوتِ الله كمثل رجل يُلقي البذر في الأرض. فسواء نام أو قام ليل نهار، فالبذر ينبتُ وينمو، وهو لا يدري كيف يكون ذلك. فالأرض من نفسها تُخرج العشب أوّلاً، ثمّ السنبل ثمّ القمح الذي يملأ السنبل. فما أن يُدرك الثمر حتى يُعمِلَ فيه المنجل، لأنّ الحصاد قد حان[2]".

إنّه يشرح الأمور بهذه الطريقة الساذجة. إنّ ملكوت الله يأتي وحده، بهدوء وصمت كالزرع الذي ينبت في الأرض. أجل، إنّه يتكلّم على الملكوت أحيانًا بألغاز وكأنّه حاضر الآن، بينما سيادة الرومانيّين على البلد واضحة جليّة. جميع الناس يرون تمامًا أنّه لم يأتِ! إنّه مجنون، وسمعان أيضًا!

– مَن؟

– سمعان، صديقي الذي غادرنا. لقد سمّاه تلاميذ يسوع "سمعان الغيّور[3]". سأل يسوعَ يومًا هل علينا أن ندافع عن أنفسنا تجاه الظلم. أتدري بما أجابه؟ لقد أعلن:

---

[1]– بحسب يوسف (تاريخ اليهود ١٨، ٦)، يعلّم الغيّورون أنّ "الله لا يتدخّل في إنجاح هذا المشروع – أي التحرّر من الرومانيّين – إلاّ إذا ساهموا به، وأفضل من ذلك، إذا لم يحد المتحزّبون المؤمنون عن الطريق المؤدّي إلى هذا التحرّر بسبب الإرهاق.

[2]– مرقس ٤: ٢٦–٢٩ مَثَل الحبّة التي تنمو وحدها.

[3]– راجع لوقا ٦: ١٥ يُسمّي متّى سمعان "الغيور" فيثبّت بذلك إعلان لوقا بأنّ سمعان كان غيّورًا (راجع متّى ١٠: ٤). إنّ الغيّور المذكور في العهد الجديد يبيّن أنّ الغيّورين لم يبدأوا في تشكيل جماعات مقاومة في زمن حرب اليهود فقط حتّى وإن أعطى يوسف هذا الانطباع.

"سمعتم أنّه قيل: "العين بالعين والسنّ بالسن". أمّا أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشرّير، بل مَن لطمك على خدّك الأيمن، فاعرض له الآخر. ومَن أراد أن يحاكمك ليأخذ قميصك، فاترك له رداءك أيضًا. ومَن سخّرك أن تسير معه ميلاً واحدًا فسر معه ميلين[4]".

إنّ مَن يقول هذا يهذي يا أندراوس! لا، نحن نقول: إن ضربك أحد ردّ له الضربة! وإن أخذ قميصك احرق بيته! وإن سحقك، اخطف أولاده وابتزّه بهذه الطريقة فقط تُطبّق العدالة!

– ولكنّ، هل استحسن سمعان الغيّور هذه الأفكار الغريبة التي ينشرها يسوع؟

– غريبة! تعتك ضعيف. لنفرض في أقصى الأحوال أننا نرضى بظلم صديق بدل أن نظلمه. ولكن مع العدو، أليس من واجبنا أن نساعد أصدقاءنا على أذيّة أعدائنا؟ حين سأل سمعان يسوع عن هذا أجابه:

"سمعتم أنّه قيل: "أحبب قريبك وابغض عدوّك". أمّا أنا فأقول لكم: أحبّوا أعداءكم، وصلّوا من أجل مضطهديكم، لتصيروا بني أبيكم الذي في السموات، لأنّه يُطلع شمسه على الأشرار والأخيار، ويُنزل المطر على الأبرار والفجّار[5]."

مَن يستطيع أن يكون بهذه الشهامة تجاه أعدائه؟ لا يُعقل هذا إلاّ لمن كان قويًّا ومستقلاًّ فلا يسوده الآخرون! إنه ليس ممكنًا إلاّ للمنتصرين والملوك والأباطرة. لكنّ يسوع هذا يجوب بلدًا يخضع للقهر، ويريد أن يُدخِل في عقول البسطاء أسلوب حياة لا يمكن أن تعيشها إلاّ أقلّيّة الطبقة الراقية، ومن شأنها أن تشلّ كلّ ما يمكنه أن يُحدث تجديدًا: تعاون المقهورين على المستبدّين وحقدهم على العظماء.

– أتعني أنّه يعلّم مسايرة الأغنياء؟ يُقال إنّه قال كلامًا قاسيًا فيهم.

٤- متّى ٥: ٣٨-٤١

٥- متّى ٥: ٤٣-٤٥

- هذا صحيح. إنّه يعبّر عن حقد الناس عليهم بوجه حسن. فقد قال على سبيل المثال:

"تعلمون أنّ الذين يُعَدّون رؤساء الأمم يسودونها، وأنّ أكابرها يتسلّطون عليها. فليس الأمر فيكم كذلك. بل مَن أراد أن يكون كبيرًا فيكم، فليكن لأجمعكم خادمًا. ومَن أراد أن يكون الأوّل فيكم، فليكن لأجمعكم عبدًا[٦]".

هذا كلام يحبّه الناس! لأنّهم يظنّون أن التخلّص من القهر والاستغلال بدون عنف أمر ممكن. ما هو القهر في الواقع؟ ألا يدفع الناس الضرائب ويعجزون عن الحصول على المال فيستقرضونه ويخسرون أرضهم[٧]؟ هذا القهر يعني أنّ يستولي السادة على كميّة كبيرة من إنتاج البلد فيعيش الشعب في خوف دائم من أن لا ينال إلاّ القسط اليسير. ويميل هذا القهر إلى الديمومة بنفسه ولنفسه. لأنّه يجب أن يظلّ وزر الضرائب والمصاريف مرتفعًا لكي ينقسم الشعب إلى فئتين: من جهة، أولئك الذين من مصلحتهم أن تستمرّ الحال الحاضرة، ومن جهة أخرى الجماهير القلقة على حياتها. فهموم الحياة تجرّدهم من الشجاعة في السعي إلى تغيير النظام. لكنّ ظروف حياتهم الخدّاعة تجعلهم يظنّون أنّه يمكن الخلاص بواسطة الجهد وقليل من الحظ. ومَن يخفق يصير المذنب الأوّل، أو ضحيّة سوء حظّ عظيم.

هذا هو القهر الذي يسود البلد. أترى أيّ دور أساسيّ تقوم فيه الضرائب هنا؟ لقد سألنا يسوع عمّا ينوي فعله تجاه هذا القهر. سألناه لنعرف هل يجوز دفع الجزية لقيصر أم لا. فأحضر ديناراً وسألنا لمن هذه الصورة وهذه الكتابة على الدينار؟ فقلنا له: "إنّها للإمبراطور". فأجاب عندئذ: "أدّوا لقيصر ما

٦- مرقس ١٠: ٤٢--٤٣

٧- يمكننا أن نقرأ بوضوح عند يوسف (تاريخ اليهود ١٨، ٢٧٤ = XVIII ،٨ ،٤) العلاقة بين الديون الضريبيّة والعوز والهروب إلى "الصعلكة"، أي إلى المقاومة. إنّ هجر الحقول بسبب المظاهرات المستمرّة أثار الخوف في أن يصير "هجر الأرض نتيجة حتميّة للصعلكة لأنّ الفلاّحين المشاركين في المظاهرات لا يتمكّنون من دفع الضرائب".

لقيصر ولله ما لله[8]". إنّه يتهرّب دائمًا من المشاكل حين تصير واقعيّة، ويفضلّ الحلول السهلة.

– هل من التفاهة حقًّا أن يُقال: "الرؤساء يقهرون في كلّ مكان مرؤوسيهم، فلا يكون الأمر هكذا بينكم". إنّ مَن يتوهّمون العمل بالسياسة دون اللجوء إلى القهر كثيرون. لكنّ يسوع يقول: حتى وإن كانت الشعوب الأخرى والمجتمعات لا تدبّر أمورها بدون هذا، علينا أن نتصرّف بشكل مختلف. فهو يرى أنّه من واجبنا تجاوز انقسام الشعب إلى قاهر ومقهور.

– إنّ يسوع لا يردّد إلاّ ما يميّزنا منذ زمن بعيد. جميع جيراننا أنشأوا دولاً يملك فيها الملوك وأعيانهم الأرض، وحيث حظّ الفلاّح الذي يحرث الأديم ليس أفضل من العبد الذي يُباع في سوق النخاسة. لكنّا امتنعنا منذ البدء عن العيش في ظروف كهذه. ولهذا علينا أن نتابع النضال!

– ألم يسمح الله بأن نخضع لسلطان شعوب أخرى؟ كيف يمكننا الثورة على هذا الأمر؟

– لقد سمح الله بأن نصير عبيدًا في مصر. لكنّه كشف عن إرادته الحقيقيّة إذ حرّرنا من تلك العبوديّة. وحين وصلنا إلى هذا البلد، عشنا مئتي سنة بدون حكومة مركزيّة، فلاّحين أحرارًا يتعاونون مع بعضهم بعضًا على الأعداء. لقد برهنّا على أنه يمكن لشعب أن يعيش حسنًا بأقلّ سلطة ممكنة.

– لكنّا رضينا بعد ذلك بالسادة. واختبرنا الطبقة المسيطرة نحن أيضًا في زمن الملكيّة.

– لولا الملكيّة لرزحنا تحت سيطرة الشعوب الأخرى. لكنّا منذ البداية قاومنا الميول الملكيّة في الحكم كالفرعون. ومع الملوك كان لدينا أنبياء ينتقدون رؤساءنا باسم الله حين يبالغون في ممارسة سلطتهم. وعندما أخفق ملوكنا، رأوا في ذلك عقابًا لمبالغتهم في ممارسة السلطة داخليًّا وخارجيًّا. لقد أظهر الله مرّة أخرى أنّه ليس مع السادة.

٨- مرقس ١٢: ١٣-١٧ في رواية مرقس، يطرح الفرّيسيّون والهيرودسيّون هذا السؤال. من الممكن أن يكون محدّثو يسوع أوّلاً من المؤازرين لرجال المقاومة.

– ألم نسقط تحت سيطرة البابليّين والفرس واليونان؟

– حين نُفينا إلى بابل، أرسل الله أنبياء آخرين، ووعدنا بخروج آخر من مصر. واستخدم قورش، الملك الفارسيّ الذي غلب البابليّين، وحرّرنا.

– لكنّ الفرس ظلّوا سادتنا، وقد أراد الله ذلك!

– رضي الفرس بأن ننظّم حياتنا بأنفسنا وفقًا لوصايا الله. وحين هدّد الفقر والدَين بانقسام شعبنا إلى طبقتين، أدخل نحميا، نائب ملك الفرس، إصلاحًا كبيرًا باسم الله. فسُدّدت الديون وتحرّر جميع اليهود[9].

– ألا يُظهِر إصلاح نحميا أن هناك حلولاً أخرى غير العنف؟

– في الظروف الملائمة، نعم. لكنّا قلّما نجد ظروفًا كهذه تسود. لقد تبدّلت في حكم اليونان والسوريّين. فالفاتحون اليونان دهشوا حين رأوا لدينا عددًا كبيرًا من الفلاّحين أحرارًا[10]. لكنّهم لم يحترموا تقاليدنا، واعتبروا كلّ البلد المفتوح من ملكيّتهم، مع جميع الذين يعيشون فيه وأرزاقهم. لم يمنحوا الحريّة في مدنهم إلاّ لفئة قليلة من البرجوازيّين. وأرادوا أن يُدخِلوا هذا الأمر إلى بلدنا أيضًا. وسمح لهم بعض اليهود الأثرياء بتأسيس جالية وطنيّة مستقلّة في أورشليم. فقد ظنّوا أنّه بإمكانهم مزج دينهم مع الإيمان اليونانيّ من خلال تبنّي طريقة الحياة اليونانيّة. عندئذ تمّ تكريس هيكل الإله زفس! لقد ثار الناس في البلد على هذا. فالرهان مسّ الحريّة كما الإيمان بالله. الحريّة وإمكانيّة كثير من صغار الفلاّحين في العيش[11]. علمنا تمامًا منذ ذلك الحين أننا إذا تخلّينا عن الإيمان بالله، لن تكون لدينا أيّة وسيلة للدفاع ضدّ الاستعباد الذي تخضع له

٩– نحميا ٥

١٠– يذكر هيكاتايوس الأبديري، الذي عاش في أيّام الإسكندر الكبير، أنّ موسى أعطى قطعة أرض لكلّ يهوديّ، وخصّ الكهنة بأراض أوسع ليتمكّنوا من التفرّغ للطقوس الإلهيّة. وفي الآن نفسه، منع الجميع من بيع أراضيهم ليمنع استغلال الأغنياء للفقراء.

١١– إنّ قصّة ثورة المكّابيّين مذكورة في سفر المكّابيّين الأوّل والثاني (Diod. Siculus. XL 3, 7).

جميع الشعوب المحيطة بنا. فاحترام تقاليدنا الدينيّة وحده منع الرومانيّين حتّى الآن من انتزاع الحريّة منّا. لهذا نقاوم بتعصّب كلّ ما يمسّ إيماننا.

– ألم يحن زمن محاولة إصلاح جديد؟

– أعتبر هذه الفكرة وهمًا. لن يتغيّر شيء لدينا بدون ضغط القوّة. أنت ترى بدون شكّ كيف يتابع الرومانيّون سياستهم في استخدام بلدنا لصالح إمبراطوريّتهم. لقد بدأوا بترك قادتنا يحكموننا. ثمّ استبدلوا أمراءنا بالهيرودسيّين الذين يدينون لهم بكلّ ما يتمتّعون به من سلطان. وفي آخر الأمر تسلّموا زمام السلطة بأنفسهم في اليهوديّة والسامرة. لقد احترموا تقاليدنا طوال عشرين سنة. لكنّهم يسعون الآن إلى الإقلال من المكانة الخاصّة للهيكل! إنّهم يسكّون عملة وثنيّة، ويدخلون صوراً للإمبراطور إلى أورشليم. وخطوةً بعد خطوة، يزيلون كلّ ما يميّزنا عن الشعوب الأخرى. عن قريب، لن يستطيع أحد أن يقول: "في كلّ مكان يقهر السادة الشعوب، فلا يكون هذا لديكم"، بل يُقال بالأحرى: "يملك الرومانيّون في كلّ مكان وهم محسنون. وعندكم أيضًا، فلا يسمّي أحد القهر قهرًا، ولا الاستغلال استغلالاً". لهذا إنّها الآن ساعة المقاومة! لا! إنّها ليست ساعة نحميا، ولا يسوع الناصريّ!

– لكنّ يسوع يريد أيضًا أن تتغيّر الأمور!

– بالضبط! إنّه يوقظ الرجاء في رؤية الأمور تتغيّر بدون مقاومة وسفك دماء! إنه أسوأ من الذين ينادون بالتأقلم الكامل! إنّه يريد التغيير والسلام في آن واحد. هذا وهم! وهم خطير!

– أليس لديكم أنتم أيضًا أوهامكم؟ ألم يقرّ سمعان باستحالة التحسين بواسطة وسائلكم؟ ألم ينضمّ إلى يسوع لأنّه رأى في ذلك الوسيلة الوحيدة للتخلّص من هذه المغاور؟

– لقد سبّب لنا سمعان مشكلة. لو أسّس تيّاراً، سيهجرنا آخرون كثيرون. لهذا اقترح بعضهم إعدامه على أنّه خائن!

– يا إلهي!

– الأمر ليس بهذه السهولة! لو تركت هنا، لن يمنع أحد إعدام مَن يقال إنّهم خونة. بتعبير آخر، سيسعون إلى تصفيتي. على كلّ حال، ليسوا بحاجة إلى فعل ذلك بأنفسهم. يكفيهم أن يخبروا السلطات بأنّي قتلتُ جنديًّا رومانيًّا وإقطاعيًّا. عليّ أن أبقى هنا!

كان علينا أن نوقف محادثتنا للعودة قبل بزوغ الفجر. همست لبرأبّا قبيل عودتنا إلى المغارة:

– مهما يحدث، سأساعدك. يمكنك الاختفاء في المهجر. يمكنك أن تثق بي، سأساعدك. أعدك بذلك!

تسلّقنا إلى المغاور بحذر دون أن نثير الانتباه. استلقيتُ لكنّي لم أستطع النوم. ومرّة أخرى، داهمتني في نعاسي صور مختلطة غير متناسقة، وجعلت تتزاحم عليّ. لكنّها انتظمت شيئًا فشيئًا، وصارت ازدواجيّتي أكثر وضوحًا. رأيت نفسي عندئذ أجوب البلد لأجل الرومانيّين، وأرفض أيّ إخلاص لهم داخليًّا. كنت أنوي أن أضع مصير شعبي فوق مصالحهم. وها إنّي أصطدم بجماعة ملتزمة تمامًا بقضيّتنا، لكنّها تعاملني بالسوء كالرومانيّين تمامًا. ما الفارق بين هنا وبيلاطس؟ لا أرى إلاّ مساومة وإخلاصًا، قهرًا ومقاومة، إرهابًا من فوق وإرهابًا من تحت. كلا الطرفين لديه عقلاء. لم يكن متيليوس وحشًا. أيعجز موظّفون رومانيّون من هذا النوع عن إحلال السلام؟ ألا يستطيع في ظروف أكثر ملاءمة أن ينظّم الاحتلال بحكمة فيتفادى الآلام غير المجدية؟ أتتمكّن السياسة من فعل المزيد؟ أيكون متيليوس استثناءً؟

وبرأبّا؟ أليس استثناءً هو أيضًا؟ أليس وحيدًا مع أفكاره؟ هو أيضًا يرجو أقلّ قدرٍ ممكن من مقاومة العنف ومن الإرهاب، لكنّه لا يستطيع مع ذلك الإفلات من النتائج الخفيّة لطريق سلكه يومًا. عليّ أنا أيضًا أن أجد طريقي بين الجبهتين. لا أشعر أنّي بين خاصّتي في أيّ من المعسكرين. عندئذ التفتّ إلى الله[١٢]:

١٢– من موضوع المزمور ٧٣

ربّي وإلهي،
كيف أظلّ وفيًّا لنفسي؟
وصلتُ إلى طرق ملتوية ووجدتُ نفسي أسلكها.
لن يصعب الأمر عليّ لو تكلّمتُ كالآخرين.
ففي نظرهم، هكذا صُنِعَ العالم.
القوّة والعنف وحدهما يأتيان بنتائج.
إنهم ينجحون.
ينالون غنى واحترامًا وسلطانًا.
أيكون السعي إلى العيش بدون خطيئة وعدم العواء مع الذئاب أمر محال؟
لهذا أنا ممزّق وكياني يتألّم.
إن تكلّمتُ مثل الآخرين خنت ذاتي.
ومع ذلك أظلّ بالقرب منك دائمًا.
تقودني إلى حيث لا أشاء، وتعيد إليّ كرامتي، وتمنحني احترامي لنفسي.

فكّرتُ مرّة أخرى بأجدادنا، بإبراهيم الذي خدع المصريّين، ويعقوب الذي احتال على أخيه، وداود الذي خدم أعداء بلده. لقد اضطرّوا هم أيضًا إلى سلوك طرق ملتوية، ووجدوا أنفسهم بين جبهتين فتاهوا هنا وهناك. أيمكن لطرق الضلال التي أسلكها أن تؤدّي إلى غاية ذات قيمة؟ أيستطيع الله أن يقود كلّ هذا إلى نهاية حسنة؟ سمح لي هذا التفكير بأن أنام. لكنّهم أيقظوني بعد قليل. لازال الظلام. وبعد أن عصبوا عينيّ وعيون ملخوس وتيمون، قادنا غيّوران من المغارة. في أثناء الليل رأيت الجروف شديدة الانحدار. كانت بالفعل خطرة جدًّا. سلكنا طريق الذهاب المريع، مرورًا بالسلالم المحاذية للصخور. وارتحت حين وصلنا إلى الدرب الجبليّ. هناك استعدنا حميرنا. لاحظت أنّ دليلنا يجعلنا ندور عمدًا لنفقد حسّ الاتجاه. وأخيرًا، بعد ساعتين، استطعنا رفع العصائب. وجدنا أنفسنا على منحدر هضبة، وتمتدّ بحيرة الجليل أمامنا. كان ضياء شمس الصباح التي أشرقت فوق هضبات الجولان ينعكس في الماء. مكثنا واقفين مسحورين نتأمّل الألوان المتلألئة على مويجات المياه. وفي النهاية، التفت إليّ واحد من الغيّورين وقال:

– اسمي متاتيا بن متيّا. أيمكنك أن تلبّي لي رغبة؟

وأشار إلى الشاطئ الشمالي الشرقي للبحيرة.

– إنّ كفرناحوم هناك في الضباب. فيها يعيش أهلي مع إخوتي وأخواتي. خذ لهم هذا المال وهذه الرسالة. لايستطيعون العيش بدون سندي. لقد انضممتُ إلى الغيّورين لأنّي لم أعد أتحمّل بؤسهم.

وعدتُه بأن ألبّي طلبه. نظرتُ طويلاً إلى الاتّجاه الذي دلّني إليه: هناك، في مكان ما وسط الضباب، يكمن منزل هؤلاء الناس. هناك يتألّمون ويئنّون وييأسون. لكنّ الشمس تشرق عليهم وكأنّ الأمور على مايرام، كأنّها لا تكترث "للجور الذي يُرتكب تحتها[13]". نظرت خلفي، كان تيمون وملخوس يودّعان مرافقَينا.

أعطى نور الصباح انطباعًا بأنّ جميع الوجوه تجلّت. حتى الغيورَين بديا رجلينْ آخرين. كانا يبدوان أكثر شبابًا بالمقارنة مع تيمون وملخوس. استطعت أن أميّز في تقاسيمهم المشدوهة أطلال طفولة حنونة. كنّا هناك معًا: إرهابيّين ومسالمَين وأنا. هل شروق الشمس على الجميع يعني عدم اكتراثها لآلام البشر؟ أليس ذلك علامة على طيبة لا يدركها العقل إذا كانت لا تميّز بين هؤلاء المجرمين ونحن؟ سبّحتُ الله لأنّه يشرق الشمس ثانية هكذا في كلّ يوم على الأخيار والفجّار وعلى الأبرار والأشرار. وجالت في خاطري فكرة: إذا كانت الشمس تشرق على الرومانيّين والغيّورين، على الفقراء والأغنياء، على السادة والعبيد، إذا كانت مع الطرفين معًا، أليس من العدل أيضًا التأرجح بين الرومانيّين واليهود، بين السلطة والغيّورين، بين الأغنياء والفقراء؟ أليس من الممكن تجاهل جميع الحدود دون أن يؤدي ذلك إلى التلاشي؟ نلتُ الشجاعة ثانية.

١٣- الحكمة ٤: ٣

ظل الجليلي

الفصل الحادي عشر

صراع في كفر ناحوم

تقع كفر ناحوم على طريق بيت صيدا، وتبعد حوالي اثني عشر كيلومترًا من أربيلا. لم نكن بعيدين أكثر من خمسة كيلومترات عن مقصدنا. كنّا نريد أن نصل إلى بيت صيدا في المساء عينه لنرتاح يوم السبت[1]. حثثنا الخطى إذًا لننجز مهمّتنا في كفر ناحوم بأسرع ما يمكن. كانت أسرة متاتيا تسكن بيتًا صغيرًا للصيّادين على ضفّة البحيرة. كان الأب في الصيد، وظلّت زوجته حنّة في الدار بدل أن تذهب للعمل في الحقول. لأنّ إحدى بناتها واسمها ميريام مريضة، وهي في الثانية عشرة من عمرها تقريبًا. كانت مستلقية في إحدى زوايا الكوخ، شاحبة الوجه والحمّى بادية في عينيها. كان اخوتها وأخواتها لا يتنقّلون إلاّ بصمت. كلّ شيء بدا خانقًا كئيبًا. أعرف هذا الجو. إنّه جوّ أسرة تعيش في الخوف من الوفاة. لا أحد يجرؤ أن يتكلّم عليها، لكنّ الجميع يعرفون الأمر جيدًا. فمنذ دخولنا البيت شعرنا بظلّ الموت، ومع كلّ هذا داخلَنا رجاء في الشفاء.

على كلّ حال، حين سلّمتُ الرسالة والمال، رأيتُ العيون تلمع. لم أحتج إلى كثير من الشرح:

– أعطاني واحد هذا في أربيلا لأجلكم وسألني أن أقول لكم: سلام.

كانت الأسرة تعرف معنى ذلك، فرحّبت بي واضطرّتني إلى الدخول، بينما ظلّ تيمون وملخوس يحرسان الحمار. ونظرَت إليّ ميريام بعينيها الكبيرتين، ففهمتُ أنّها تريد أن تسألني حاجة فابتسمتُ لها. عندئذ قالت لي:

– هل أنت المسيح؟

فكّرتُ: يا إلهي! إنّها مريضة تهذي. أجبتها بودّ:

– أنا أندراوس. تاجر من صفورة.

---

[1]– إن تقسيم الزمن في ذلك العصر يعتبر غياب الشمس نهاية لليوم وبداية لليوم التالي.

فسألتني متأسفة:

- هل تعرف متى سيأتي المسيح؟

أجبتها كما نجيب الأولاد عادة:

- سيأتي في نهاية الأزمنة.

- لا! إنّه هنا.

نظرتُ إلى حنّة مستفهمًا فشرحَت لي:

- إنها تقصد نبيًّا يعتبره بعضهم المسيح. إنّه يشفي المرضى ويطرد الشياطين. كثيرون من أهالي القرية يؤمنون به، وبعض الشبّان تبعوه. وهي ترجو أن تراه يأتي ليشفيها.

- أتقصدين يسوع؟

هزّت ميريام رأسها بالإيجاب وقالت:

- هل رأيتَه؟

- لا، لكنّي أتمنّى رؤيته. جميع الناس يتكلّمون عليه. لابد أنّه يتواجد غالبًا في الإقليم.

وشرحت لي حنّة:

- إنّه لا يمكث إطلاقًا في المكان نفسه وقتًا طويلاً.

فتمتمت ميريام:

- لم هو ليس هنا، لماذا لا يشفيني؟

جلست الأمّ على الأرض إلى جانبها وداعبت شعرها بحبّ:

- لقد قال: "العميان يبصرون والعرج يمشون مشيًا سويًّا، والبرص يبرأون والصمّ يسمعون، والموتى يقومون والفقراء يُبشّرون، وطوبى لمن لا أكون له حجر عثرة[٢]".

٢- متّى ١١: ٥-٦

تمتمت الصبيّة:

– آه لو أتى!

لفّت حنّة ابنتها بشالها وضمّتها إلى صدرها.

– لا أستطيع الذهاب لإحضاره. صدّقيني لا أستطيع. لكنّي أستطيع أن أروي لكِ قصّة عنه، أتريدين؟

أجابت ميريام برأسها نعم، فبدأت حنّة:

"كانت هناك امرأة منزوفة منذ اثنتيّ عشرة سنة، قد عانت كثيرًا من أطبّاء كثيرين، وأنفقت كلّ ما عندها فلم تستفد شيئًا، بل صارت من سيء إلى أسوأ. فلمّا سمعت بأخبار يسوع، جاءت بين الجموع من خلف ولمست رداءه، لأنّها قالت في نفسها: "إن لمستُ ولو ثيابه برئتُ". فجفّ مسيل دمها لوقته، وأحسّت في جسمها أنّها برئت من علّتها. وشعر يسوع لوقته بالقوّة التي خرجت منه، فالتفت إلى الجمع وقال: "مَن لمس ثيابي؟" فقال له تلاميذه: "ترى الجمع يزحمك وتقول: مَن لمسني؟" فأجال طرفه ليرى التي فعلت ذلك. فخافت المرأة وارتجفت لعلمها بما حدث لها، فجاءت وارتمت على قدميه واعترفت بالحقيقة كلّها. فقال لها: "يا ابنتي، إيمانكِ أبرأكِ، فاذهبي بسلام وتعافي من علّتكِ"[٣].

أصغت ميريام بِنَهَمٍ وكأنّ ذلك قيل لها. وفي النهاية لم تتمكّن من ضبط نفسها فصاحت:

– لماذا لا يأتي؟ لماذا لا أستطيع أن ألمسه كالمرأة لأبرأ؟ لم لا؟

وجعلت تبكي. فخطرت لي فجأة فكرة: ذهبتُ إليها ووضعتُ يدي على جبينها وقلتُ لها:

– يا ميريام. أنتِ مثل المرأة في القصّة. تؤمنين بأنّ اللمس يكفي للشفاء. ولكن ألم تسمعي ما قاله يسوع في النهاية؟ إيمانكِ أبرأكِ. لم يقل: برئتِ لأنّكِ لمستيني.

٣- مرقس ٥: ٢٥-٣٤

علي أن أعترف بأنّها كانت فكرة يائسة. حتّى أنا لم أكن مقتنعًا بأنّي على صواب في تصرّفي على هذا النحو. أردتُ فقط أن أظهر الودّ لفتاة صغيرة تخاف أن تموت. نظرت ميريام إليّ معترفة بالجميل وهدأت. وطلبت قصصًا أخرى، فروت لها أمّها. قصّت عليها حكاية امرأة توسّلت إلى يسوع ليأتي ويشفي ابنتها الصغيرة، وأتمّ يسوع ذلك عن بعد دون أن يأتي إلى البيت[٤].
وأضافت حنّة:

– لماذا لابد له من الحضور إلى كوخنا؟ ألا يستطيع الشفاء عن بعد؟

وتكلّمت على أعمى قد أبصر، وبرص شفيوا، ومقعدين استطاعوا السير مرّة أخرى. كانت قصصها تزداد روعة وعجبًا، وميريام تلتهمها التهامًا. إنّها قصّتها. كانت عمياء فأبصرت ومقعدة فسارت ومريضة فشفيت. ومع كلّ كلمة تجد الرجاء مرّة أخرى. كان السحر يتملّكني أنا أيضًا. في هذه القصص أمور كثيرة من شأنها أن تصدمني. فمنها تفوح رائحة الإيمان بالخرافات ولها طابع البدائيّة. غير أنّي وجدتُ نفسي أُعجَبُ به شيئًا فشيئًا مثل ميريام. ولاحظتُ كم تحمِل هذه الأقوال رجاء إلى هؤلاء التعساء. فهي تجعلني أسمع ثورتهم على الألم والموت. وشعرتُ بأنّها مادامت تُردّد، لن يخضع الفقراء للجوع ولا للعطش ولا للعمى ولا للشلل ولا للمرض ولا للبؤس. وسيحتفظون بالرجاء طالما لديهم هذه القصص. تساءلتُ هل سمعت حنّة فعلاً جميع معجزات يسوع هذه، التي روتها لميريام. ربما اخترعت بعضها لتعزّيها؟ أظنّ أنّها لو استنفدت مخزونها لحللتُ مكانها ووجدتُ ما أرويه. أعرف أن القصص الجميلة ليست كافية لعلاج إنسان، لكنّي أحسستُ بأنّ ميريام لن تشفى بدونها.

في هذه الأثناء، عاد الأب من الصيد. كان يتوقّع سماع أخبار سيّئة. لكنّه حين رأى ميريام هادئة ووجد رسالة ابنه والنقود، أنير وجهه. من جهتي، وضعتُ خطّة لمساعدة ميريام. ففي طبريّة أعرف طبيبًا: هيبوقراطوس. إنّه يونانيّ كما يظهر من اسمه. نحتاج إلى أربع ساعات بالمركب للذهاب إلى

٤- مرقس ٧: ٢٤-٣٠

هناك. لو أمكن إرسال واحد من أبناء متيّا الكبار مع تيمون وملخوس، ولو استطاعوا النوم على الشاطئ، يمكنهم إحضار هيبوقراطوس إلى كفرناحوم غدًا. لكنّ متيّا عارض مباشرة:

– ليس لدينا ما يكفي من المال لدفع أجر الطبيب! نحن بحاجة إلى اليسير الذي بقي لدينا لنعيش وندفع الضرائب!

طمأنتُه على أنّي سأدفع بدلاً عنهم. ودوّنتُ للحال رسالة لـهيبوقراطوس راجيًا إيّاه بإلحاحٍ أن يأتي لمساعدتنا، وأنّي سأسدّد الأتعاب والمصاريف. وفي الآن نفسه، كتبتُ لكوزى وحنينة أخبرهما بأنّي أنوي زيارتهما بطبريّة في الأسبوع القادم.

بقي للغسق ساعة واحدة. نزل الشبّان إلى الشاطئ. كانت الشمس تنشر من الأفق ضياء ذهبيًّا على البحيرة، ورأينا المركب يخترق مياهها كنقطة سوداء. أشعلنا أنوار السبت وقلنا البركة وجعلنا نأكل. وفجأة طُرِق الباب. أراد رجلان أن يتكلّما مع متيّا. اسم أكبرهما سنًّا جملیال، والشابّ يُدعى دانيال. أدخلهما متيّا إلى الدار وجلسا.

وبدأ جملیال الكلام:

– ذهب ابنك يوم السبت ليصطاد مع غريبَين. ألا تعرف أنّ العمل ممنوع في هذا اليوم؟

فطمأنهم متيّا:

– لم يذهبوا للصيد. لقد توجّهوا إلى طبريّة ليحضروا طبيبا لميريام. لم يخالف أحد شريعة السبت.

فاعترض دانيال:

– ألا تستطيع انتظار نهاية السبت؟

تدخّلتُ:

– أنا الذي أرسلهم. إن ميريام تحتاج إلى المساعدة. من المسموح عدم أخذ السبت في عين الاعتبار حين يتعلّق الأمر بالصحّة.

أجاب دانيال:

- لا! إلاّ إذا لم تكن هناك وسيلة أخرى.

غضبتُ. ففي صفورة، إحضار الطبيب في يوم كهذا أمــر بديــهي. مــا أضيق تفكير أهل الريف هؤلاء! ولكن ربما لديهم مبرّرات لكي يزعجونا فــي وقت الطعام.

قال جمليال مفكّرًا:

- هناك حالات يُسمح العمل فيها. لو سقط خروف في الماء يــوم ســبت يمكننا انتشاله!

واعترض دانيال:

- لستُ مع هذا الرأي! لو أراد الله أن يعيش الخروف سيحيا. ولكـــن لا يمكن الاهتمام به إلاّ بعد السبت[٥].

فأجاب جمليال:

- وكيف سيظلّ حيًّا؟ إنّه سيغرق. أتريد إجبار الله على اجتراح معجــزة؟ أنتم الأسّينيّون أكثر تشدّدًا منّا نحن الفريسيّين. إنّا نريد حلولاً يمكن ممارســتها. في يوم السبت نستطيع أن ننقذ حيوانًا. ويمكننــا أن نخلّــص أصغرهــا كمــا أكبرها. فإذا كان إنقاذ حيوان مسموحًا، كم بالحري حين يتعلّق الأمر ببشر.

تابعت ميريام النقاش وقالت:

٥- مثّل الأسّينيّون هذا الموقف المتشدّد. ويُظهِرُ ذلك مخطوط دمشق الذي اكتُشِف في وادي قمران: "في يوم السبت، لا يساعد أحد حيوانًا على الرعي. فإن سقط هذا في بئر أو حفرة، علينا ألاّ ننتشله" (CD, I, 13 sq). وكانوا يعتبرون أن الأمر نفسه يُطبّق على البشر. ففي يوم الســبت: "لا أحد يستعمل سلّمًا أو عصا أو أي أداة سواء لإخراج إنسان حيّ سقط في حفرة مــاء أو في أيّ مكان آخر" (CD XI, 16). وكان الفريسيّون ينادون بأمر أكثر تساهلاً: "في يوم السبت، لــو سقط حيوان منزليّ في حفرة ماء، فليُحضر له غطاء ويوضع تحته. فإذا تمكّن من الخروج فليخــرج (أي علينا ألاّ نهتمّ بشأن عدم حفظ السبت). في القرن الأوّل الميلاديّ، يذكر متّى رأيًــا يمكــن بموجبه مساعدة حيوان يوم السبت (متّى ١٢: ١١).

– يسوع أيضًا أنقذ رجلاً يوم السبت! ماما، اروِ قصّته!

بدا على حنّة الحرج من الكلام على يسوع أمام الزائرَين. ولكن في حال كهذه، أيّ أمّ ترفض توسّل ولدها؟ وجعلت تروي:

"دخل ذات سبت إلى مجمع، وكان فيه رجل يده مشلولة. وكان الناس يراقبونه ليروا هل يشفيه في السبت ومرادهم أن يشكوه. فقال لأشلّ اليد: "قم في وسط الجماعة". ثم قال لهم: أعمل الخير يحلّ في السبت أم عمل الشر؟ أتخليص نفس أم قتلها؟" فظلّوا صامتين. فأجال طرفه فيهم غاضبًا ومغتمًّا لقساوة قلوبهم، ثم قال للرجل: "امدد يدك". فمدّها وعادت يده صحيحة[٦]".

أصغى الجميع بانتباه. وأعلن جمليال راضيًا:

– إنّ حال ميريام كحال الخروف في الماء. سيغرق الخروف إن لم ننقذه فورًا. ولكن في حال الرجل صاحب اليد المشلولة، أما كان بإمكانه الانتظار يومًا آخر؟ فالقضيّة ليست هل يجب فعل الخير أو الشر، الشفاء أو القتل، وإنّما هل يُفعَل الخير اليوم أو غدًا.

وتدخّل دانيال:

– ترى جيّدًا ما يحدث إذا بدأنا نتنازل. سيُبالغ في الأمر. إنّ يسوع يعرف ذلك جيّدًا: جميع الكتبة متّفقون معه في مسألة السماح بمساعدة إنسان يوم السبت. لكنّه يتطرّف في التأويل. بالنسبة إليه، يحقّ لكلّ واحد أن يقرّر متى يحترم شريعة السبت، ومتى يجب عليه التدخّل أو الامتناع.

سمعَت حنّة ذلك بنفاذ صبر:

– لا أفهم جميع هذه التفاصيل، مع أنّ الأمر واضح: من حقّنا نجدة إنسان يوم السبت. فالسبت جُعِل للإنسان لا الإنسان للسبت، والحياة البشريّة أثمن من السبت[٧].

٦- مرقس ٣: ١-٥

٧- مرقس ٢: ٢٧.

فدافع جمليال عن نفسه:

– ماذا تعني النجدة؟ يمكننا أن نقول إنّا نريد مساعدة الجار في الحصاد، عندئذ يحقّ لنا أن نخالف شرائع السبت. لا! من المهمّ تنظيم الحالات المحدّدة.

حاولتُ أن أتدخّل:

– دعونا نعتبر على الأقل أنّ في حالتنا المحدّدة هذه، يُسمح بالذهاب لإحضار طبيب يوم السبت. لم نرتكب سوءًا بإرسالنا لإحضار هيبوقراطوس!

هذا ما كان عليّ ألاّ أقوله. فقد انقلب دانيال عليّ فورًا:

– هيبوقراطوس طبيب وثني! أجنبيّ! أليس هناك أطبّاء يهود في طبريّة؟ لا، لقد تماديتم كثيرًا. أولاً عدم احترام السبت، ثمّ مخالفة شرائع الطهارة! ألا تعلم أنه لا يجوز لليهود والغرباء أن يمسّون بعضهم بعضًا؟ وأنّ عليهم البقاء منفصلين كالطاهر والنجس. أتريد تطبيب بنت يهوديّة لدى طبيب وثني؟ هل تنوي إدخاله إلى هذه الحجرة؟

أجبتُ بتحدّ:

– إنّ هيبوقراطوس يعالج اليهود في طبريّة. لم لا يعالج في كفر ناحوم؟

أدار متيّا لنا ظهره عمدًا وأخذ مقعدًا وجلس إلى جانب حنّة التي لازالت تضمّ ابنتها المحمومة بين ذراعيها. وأعلن جمليال جاداً:

– أهل طبريّة متساهلون كثيرًا في شرائع الطهارة. حين أسّس هيرودس أنتيباس هذه المدينة، كان يعرف جيّدًا أنّ هذه المستعمرة ستخالف شريعتنا. فالمدينة مبنيّة على قبور[8]، وشريعتنا تقول إن تأسيسًا كهذا نجاسة. ولم يعر أحد للموضوع انتباهًا. إنّ طبريّة مدينة نجسة.

وتابع دانيال الكلام:

٨– في مسألة تأسيس طبريّة على مقبرة، راجع يوسف، تاريخ اليهود ١٨، ٣٨ = XVIII ٢، ٣.

– إنّا نرى الانحلال ينتشر في القطر. تلاميذ يسوع يهملون التمييز بين الطاهر والنجس. إنّهم لا يغسلون أيديهم قبل الطعام[9]، ويعبرون الحقول ويجنون السنابل يوم السبت[10]، ولا يفارقون عن الغرباء. والآن، وصل الأمر إلى إدخال طبيب وثنيّ في بيوت اليهود!

بدأت أثور غاضبًا:

– لستُ تلميذًا ليسوع! لم أرَ يسوع هذا قطّ. وسأستمرّ في إحضار طبيب وثنيّ مهما قال ومهما تقولون! ماذا قال في قواعد الطهارة هذه؟

وشرح جملَيال:

– سمعته يتناقش في هذا الموضوع. لقد رمى جميع أفكارنا بالحجّة التالية: "ما من شيء خارج عن الإنسان إذا دخل الإنسان ينجّسه. ولكن ما يخرج من الإنسان هو الذي ينجّس الإنسان[11]".

سألتُ:

– أيقصد من هذا أنّه لا فرق بين الطاهر والنجس؟

– بالضبط! لو كان على حق، لما بقي هناك طعام نجسًا ولا إنسان نجسًا ولا أماكن نجسة. كلّ شيء يصير طاهرًا. يمكننا أن نشتري كلّ شيء من الوثنيّين وأن نبيعهم كلّ شيء!

أصغيتُ بانتباه شديد:

– أيمكننا أيضًا شراء زيت الزيتون من الوثنيّين؟

أكّد جملَيال:

– سيكون هذا في الواقع من نتائج ذلك المبدأ.

٩-راجع مرقس ٩ وما يليها

١٠- مرقس ٢، ٢٣-٢٨.

١١- مرقس ٧: ١٥

عندئذ صرتُ أفكّر في أثر هذا على تجارتنا للزيت، لكنّ متيّا تدخّل فجأة في نقاشنا:

– ما علاقتي بنقاشكم حول الطاهر والنجس وشرائعكم للسبت؟ ألا تخالفون السبت أنتم أيضًا حين تزعجون الآخرين بنقاشاتكم الحكيمة بدل أن تتركونا في سلام، نحن وولدنا؟ ألا ترون أنّها مريضة؟ ألا تفهمون أنّ لدينا همومًا أخرى؟ إنّكم تثرثرون في واجب المساعدة وعدمه، في المسموح والممنوع، بدل أن تساعدونا، أو على الأقل، بدل أن تخرسوا. لقد قال يسوع فيكم:

"الويل لكم أيّها الكتبة والفرّيسيّون المراؤون، فإنّكم تطهّرون ظاهر الكأس والصحن، وباطنهما ممتلئ بما حصلتم عليه بالنهب والطمع. أيّها الفرّيسيّ الأعمى، طهّر أوّلاً باطن الكأس، ليصير الظاهر أيضًا طاهرًا. الويل لكم أيّها الكتبة والفرّيسيّون المراؤون، فإنّكم أشبه بالقبور المكلّسة، يبدو ظاهرها جميلاً، وأمّا باطنها فممتلئ من عظام الموتى وكلّ نجاسة[١٢]".

كان متيّا على حق. لا شكّ أنّه يدعوهما إلى الانصراف! فنهض كاتبانا للرحيل، وأعلن جمليال:

– أنت على خطأ يا متيّا. إنّ خوفك على ابنتك يجعلك هكذا. أرجو أن تشفى!

وخرج الاثنان. أردتُ أن ألحق بهما. وددت أن أقول لهما بعض العبارات المهذّبة. ولكن، أليس طمأنة ميريام أهم؟ جلستُ بالقرب منها ورويتُ لها قصصًا عاديّة. لا سيَر معجزات وإنّما روايات وملاحم. وبعد قليل نامت. فاستلقينا نحن أيضًا ونمنا.

ذهبتُ في صباح السبت للصلاة. إنّ صمت الاحتفال غيّر القرية. بعد إنهاء ستّة أيّام، يخرج الناس الآن من أكواخهم مرفوعيّ الرأس، ويجتمعون في المجمع. اهتمّ جمليال بالقراءة وشرح النصوص المقدّسة. وبدأ بالبركة:

١٢– متّى ٢٣: ٢٥–٢٧

تباركت يا إلهنا، ملك الكون،

يامن يطلق النور ويخلق الظلمات،

يامن يُحِلّ السلام ويفعل كلّ شيء.

أنت تنثر النور على الأرض وساكنيها،

وتجدّد خليقتك كلّ يوم بطيبتك[١٣].

ثمّ قرأ مقطعًا من سفر الخروج. وكان رواية الوحي الإلهي في سيناء. وركّز شرحه على جملة: "لأنّ الأرض كلّها لي. وأنتم تكونون لي مملكة من الكهنة وأمّة مقدّسة[١٤]". وشرح:

– كيف يمكن لله أن يتكلّم على الكهنة في الصحراء؟ فوقتئذ، لم يكن هناك لا هيكل ولا تقادم! لكنّ هيكل الله هو العالم كلّه. فهو يقول: "كلّ الأرض لي". على سلوكنا إذًا أن يكون في كلّ مكان وكأننا في الهيكل حيث كلّ شيء مقدّس: الشمس والنور، النهار والليل، الجبال والأنهار، البحر واليابسة، النباتات والحيوانات، علينا أن نعاملها جميعها باحترام. ربّما تقولون: لا يدخل الهيكل إلاّ الكهنة. ولا يطلب منّا الله إلاّ احترام قدسيّة المكان! لكنّ الله يريد أن نصير شعبًا مقدّسًا. يجب ألاّ يكون هناك فئتان: الكهنة بقدسيّة خصوصيّة، والآخرون الذين يبقوا في الخارج. نحن متساوون أمامه! ربما فكّر كثيرون منكم: ألا يكفينا أن نتقدّم أمام الله يوم السبت؟ إذا كان العالم هيكلاً لله، فنحن أمامه في كلّ لحظة، حتّى وإن لم نعِ ذلك. إننا نتذكّر هذا يوم السبت حين نقف أمامه. وإلاّ لنسيناه! إذا لم نُجبَر على الامتناع عن العمل في اليوم السابع، فإنّنا سنعتبر أشياء كثيرة أهمّ من التفكير بالله.

وبعد الصلاة، أتى جمليال إليّ وسألني عن أخبار ميريام وقال لي:

١٣– بركة تُقال في الصباح قبل قراءة الكتاب المقدّس، ذكرها R. Rendtroff (ed.), Arbeitsbuch Christen und Juden, 1979, p. 154. ويمكن إيجاد النصّين العبري والألمانيّ عند S. Bamberger, Sidud Sefat Emet 1972, p. 33 sq.

١٤– سفر الخروج ١٩: ٥ وما يليها

– آسف لأنّ لقاءنا لم ينتهِ في الأمس بالمصالحة. أنوي العودة اليوم إلى متيّا لأشرح له وجهة نظري.

طمأنته بأنّ متيّا رجل شهم، وأنّ ميريام نامت بسرعة، وتبدو اليوم في حال أفضل. أنا أيضًا وددتُ أن أتابع حوار الأمس. فقد بدا لي بوضوح أن الكتبة يعتبرون مساعدة الآخرين أهمّ من القواعد السبتيّة. لماذا علينا تحديد الحالات الاستثنائيّة بدقّة إذًا؟ لماذا لا يوثق في الناس لكي يقرّروا بأنفسهم ما يتوافق مع السبت أو لا؟ هزّ جمليال رأسه وأجابني:

– أنظر فقط إلى حياة الشعوب الأخرى. ليس لديه أيّ سبت، ولا تعرف إلاّ أعياد التقادم للآلهة. أحسب كم يبلغ هذا في السنة. ربّما عشرين يومًا، أو ثلاثين في الحالة القصوى، لا أكثر. إنّ الناس العاديّين يعملون كلّ يوم تقريبًا، ولا يستمتعون إلاّ نادرًا بالراحة التي يعتبرها أصحاب الأملاك والسلطة أمرًا طبيعيًّا. أمّا عندنا نحن اليهود فالأمر يختلف كثيرًا. نحن نعيّد يوم السبت اثنتين وخمسين مرّة. وليس السادة والأغنياء يعيّدونه فقط، بل صغار الناس أيضًا. كما أنّ السبت من حق الخدم والعبيد. وبالإضافة إلى هذه الأيّام الإثنين والخمسين، هناك أيضًا الأعياد: الخريفيّة كرأس السنة ويوم كيبور ويوم المصالحة والسوقوت وعيد الخيام، ثمّ الأعياد الربيعيّة وبداية الصيف. فصغار الناس عندنا لديهم حوالي ستّين يوم راحة في السنة. فلا عجب أن تتّهمنا الشعوب الأخرى بالكسل[15].

– ما من أحد منّا يفكّر في إلغاء أيّام العيد هذه! لمَ جميع هذه التشريعات التفصيليّة إذًا؟ ولمَ كلّ هذا الاضطراب إذا لم تُحترم بكاملها؟

– لا يريد أحد إلغاءها؟ كثير من الأغنياء يسعدون لرؤية عبيدهم وخادماتهم ومزارعيهم يعملون لأجلهم يوم السبت، فيكسبون مالاً أكثر، خصوصًا وأنّهم يرون كيف يستغلّ منافسوهم وشركاؤهم الوثنيّون الناس في

١٥– يظنّ تاسيت (Historia V, 5) ويوفينال (Satires XIV, 105 sq.) أنّ اليهود يحفظون السبت من باب الكسل.

التجارة، ويجعلونهم يعملون في ذلك اليوم. صحيح أنّهم لا ينوون إلغاء السبت، لكنّهم سيفرّغونه من جوهره بسرعة، وسيجدون له مئات الاستثناءات! حين يتعلّق الأمر بالمال، علينا أن نتصرّف وفقًا لقواعد بالغة التحديد، وإلاّ سيفرض المال والغنى نفسيهما في النهاية.

– أتخشى إذًا أن يسلك أناس مثل يسوع في هذا المنحى فيفخّخون السبت؟

– بالتأكيد، لن يفعل ذلك عن سابق إصرار وترصّد. على العكس، لا ينال الأغنياء وأصحاب السلطة منه أيّ دعم! لكنّه قلّما يفكّر في أنّه يمكن لمنهجه أن يصير مدرسة. ويمكن أن يصير تجاوز منع الشغل يوم السبت عادة، فيستغلّها آخرون لمصلحتهم.

– هل ما يفعله يسوع ممنوع في رأيك؟

– لا يمكننا قول ذلك. نحن أيضًا نستطيع أن نعلّم كلّ ما يقوله في السبت وقواعد الطهارة. بدون شكّ، إنّه يفكّر في هذه الأمور بطريقة جذريّة. وكثيرون عندنا يوافقون على هذه الجذريّة.

– ولماذا يجادل دائمًا في شأن عقيدته؟

– إنّه قلّما يفكّر في نتائج ما يقوله، ولا يرى أنّ كلّ خرق لشرائع السبت يمكنه أن يقودنا إلى العيش على الطريقة الوثنيّة! نحن نصطدم معه غالبًا حول مسألة قلّة التفكير هذه. فهو يعاشر أشخاصًا مشكوك في أمرهم: سكارى وزوانٍ ومحتالين. هذا ليس أمرًا ممنوعًا. فمن يعيد خاطئًا إلى الطريق السليم يستحقّ تقديرنا. نحن نعلم جيّدًا أنّ الرحمة الإلهيّة تحلّ على الفاشلين أيضًا، ونفرح لهداية الأشرار. لكنّه يأكل معهم دون أن يتثبّت من أنّهم هجروا حياتهم السابقة. ولا يفرض عليهم أيّ شروط، ويأمل أن يهتدوا وحدهم. أسمّي هذا استخفافًا. ربّما ساعد بعضهم بهذه الطريقة. لكن ما وقعُ ذلك على الآخرين؟ ألن يقولوا: "علامَ الجهد لفعل الخير؟ لو كان يسوع على صواب، فإنّ الله راضٍ عنّي".

وصار الحماس يدبّ في جمليال شيئًا فشيئًا وجعل يتحدّث بشغف أكبر:

- أجل! كان بإمكان يسوع هذا أن يكون تلميذي! يمكنني أن أدعم جميع آرائه. لكنّي سأجبره على التفكير في نتائج تعاليمه على الحياة اليوميّة لشعبنا. سأعطيك مثالاً آخر: ذات يوم، أتى قائد مئة وثنيّ يسكن هنا في كفرناحوم ليراه[16]، ورجاه أن يشفي خادمه. بالطبع، علينا أن نساعد الوثنيّين! ولكن لمَ هذا بالضبط؟ الكلّ يعرف أنّ غالبيّة الضبّاط الوثنيّين لواطيّون، وخدّامهم أدوات لمتعتهم. لكنّ يسوع لم يعبأ للأمر، ولم يسأله حتّى من هو ذلك الفتى. شفاه دون أن يفكّر بأنّه يمكن لأحد أتباعه فيما بعد أن يستنتج من الحدث شرعيّة اللواطة.

- هل أنت واثق من أنّ هذا الضابط لواطيّ؟

- بالطبع لا. ومع ذلك، على كلّ واحد أن يتوقّع هذا الأمر. أمّا يسوع، فاستقبله بدون أي ارتياب. هنا يمكنني أن أنصحه بتفكير أكثر.

- حسنًا! ربّما أسرع في التصرّف. ولكن هل فعل ما هو ممنوع؟

- لا! لا يمكنني أن أقول ذلك. فالله يحرص على أن نساعد جميع الناس.

- حتّى العشّارين والزواني؟

- حتّى هؤلاء.

- لماذا يُنتقد يسوع إذًا حين يأكل معهم؟

- لو فعل ذلك أيّ واحد سواه، لن نقول شيئًا. لكنّ يسوع رجل له تأثيره. إنّه معلّم! واحد منّا. لهذا ننقده. فهو قريب منّا.

- وما ضير أن يعاشر معلّمو اليهود الخطأة؟ فنحن التجّار نفعل ذلك غالبًا.

- فكّر في النتائج. لسنا ضدّ بعض جباة الضرائب إذا أخذناهم فُرادى. فهم رجال مثل الآخرين. لكنّهم يمثّلون الرومانيّين في بلدنا. ويذهب قسم كبير

16- راجع متّى ٨: ٥-١٣

ممّا يجبونه إلى الأجانب. علينا ألاّ نعطي انطباعًا بأنّ معلّمي اليهود ينسجمون مع الاحتلال الأجنبيّ. يستحيل أن نمنح الرومانيّين هالة الشرعيّة.

- أتخاف إذًا أن يمنحها يسوع لهم؟

- لا! و لكنّ يمكن للجموع التي تتبعه أن تسيء فهم الأمور. على مَن يعلّم إرادة الله للشعب أن يلحّ في الامتناع عن مساعدة الجنود الأجانب، وألاّ يعاشر جباة الضرائب على مرأى جميع الناس وعلمِهم! إنّ يسوع لا يدرك ما يحصل عندما نتقرّب من الوثنيّين ونسلك سلوكهم. أنا أنتقد استخفافه بهذه الأمور. فهو يتصرّف وكأنّه بين جبهتين.

ولمعت في رأسي فكرة كالبرق: أنا أيضًا بين جبهتين. في نظر جمليال، لابدّ أنّي إنسان مشكوك في أمره. أيمكن لهذا الفرّيسيّ أن يفهمني؟ وبمتابعتي لاستجوابه، كنت أستجوب نفسي.

- وكيف يبرّر يسوع سلوكه؟

- عليّ أن ألحّ على أمر: يمكننا نحن أيضًا، فرّيسيّين وكتبة، أن ندافع عن وجهة النظر التي يدافع عنها. فمن عادتنا أن نتناقش في كثير من وجهات النظر. لكن يسوع يرفض طرقنا الاعتياديّة في النقاش. إنّه لا يعطي رأيه إلى جانب الآراء الأخرى، ولا يدافع عنه حتّى بإعطاء وجهة النظر وخلافها. يتصرّف وكأنّ الله نفسه يتكلّم. ما يصدمنا فيه هو هذه الطريقة في احتقار أساليبنا.

تحاورنا عن يسوع وقتًا طويلاً. لاحظتُ كم تجذبني شخصيّته. أنا أيضًا أتأرجح بين معسكرين. ألا أشبه جابيًا للضرائب، الفارق هو أنّي لا أجبي المال بل المعلومات لأنقلها للرومانيّين. أيمكن ليسوع هذا أن يفهمني؟

عدتُ مع جمليال إلى كوخ متيًا، وحمل جمليال فاكهة ليقدّمها لميريام.

- علينا أن نكون في سلام يوم السبت.

أجابه متيًا:

السلام عليك.

لقد زال غضب الأمس. وبعد قليل، وصل الشـــابّان مــن طبريّــة مــع هيبوقراطوس، وفحص الطبيب ميريام وقال:

- لقد تجاوزت مرحلة الخطر.

إذاً، بينما الحياة تولد مرّة أخرى، عاد الضياء إلى الكوخ الصغير.

الفصل الثاني عشر

قصص هامشية

تابعنا سفرنا من كفر ناحوم إلى بيت صيدا بعد يومين من التأخير. وبيت صيدا بلدة صغيرة تقع على الشاطئ الشماليّ لبحيرة الجليل، في الطرف الآخر من الحدود. إنّها في إقليم هيرودس فيلبّس. منذ زمن قريب، أراد هيرودس فيلبّس أن يؤسّس فيها مدينة يونانيّة على شرف جوليا بنت الإمبراطور أغسطس، وسُمّيت لذلك بيت صيدا جوليا[1]. لكنّها ظلّت بلدة صغيرة.

كان علينا المرور بمركز جباية الضرائب. وكنّا نعرف جابي الضرائب معرفة جيّدة. فهو رجل بشوش يقبل الدعوة إلى شرب كأس من الخمر بطيبة خاطر بعد المساومة الاعتياديّة حول الضرائب والرشوة. لكنّنا فوجئنا هذه المرّة. فبدل لاوي الذي ألفناه أتى إلينا شخص مجهول وقدّم نفسه:

– اسمي كوستابار. أنا جابي الضرائب الجديد في هذا المركز[2]. أيّ بضاعة معكم للتصريح عنها؟

فكّرتُ في حينها: هوذا إنسان يعالج صلب الموضوع مباشرة. وقلتُ له:

– أليس لاوي هنا؟

– لا! لقد انتهى أمره! ستتعاملون معي منذ الآن.

– هل حصل له سوء؟

هزّ كوستابار كتفيه:

---

[1]– في ما يخصّ تأسيس بيت صيدا جوليا، راجع يوسف، حرب *اليهود* ٢، ١، ٨ *وتاريخ اليهود* ١٨، ٢٨ - XVIII ،٢، ١.

[2]– في العالم القديم، لم يكن جباة لضرائب موظّفين بل متعهّدين تعيّنهم الدولة. كان عليهم أن يدخلوا مبلغًا معيّنًا من المال في صندوق الدولة، وأن يديروا الأمور بطريقة أخرى لمصلحتهم. لهذا كان الناس يمقتونهم. [جباة الضرائب هنا هم العشّارون الّذين تذكرهم الأناجيل (ملاحظة المترجم)]

- لا يمكننا أن نقول ذلك. إنّه لم يعد يرغب في أن يكون جابيًا للضرائب. لقد اختفى.

واحد آخر يختفي فجأة! ألححتُ في السؤال:

- هل ذهب إلى قطّاع الطرق؟

- لا أدري. لم أعد أسمع عنه شيئًا. الآن، أنا جابي الضرائب. أكرّر مرّة أخرى: ما لديكم للتصريح عنه؟

أريناه بضاعتنا فسألني كوستابار:

- أهذا كلّ شيء؟

بالطبع كان معنا اليسير. إنّه حتّى قليل جدًّا بالنسبة إلى تاجر مثلي. فشرحتُ له:

- لقد فوجئنا بأن وجدنا في الجليل مَن اشترى غالبيّة بضاعتنا، ولم يبقَ إلاّ هذا.

كان "المشترون" جماعة الغيّورين. فقد استولوا على قسم كبير من حمولتنا رعبونًا للجزية السنويّة. وشكّ كوستابار في الأمر:

- وأين خبّأتم الباقي؟

ضحكتُ. إنّها اللحظة المناسبة للقيام بمناورتي التقليديّة للتعامل مع جباة الضرائب.

- ربما نسيتُ شيئًا!

وجعل كوستابار ينبّش حقائبي. أخيرًا وجد شيئًا. وأخرج من أغراضنا حُقّ خمر كبير.

- ما هذا؟

- إنّه ليس للتجارة!

- لاضير في ذلك. عليكم أن تدفعوا!

- لا! مستحيل!

- أجل. إمّا أن تدفع أو أستولي على البضاعة!
- علينا ألاّ ندفع إلاّ عن البضائع المستوردة. لذلك لن أدفع!
- أتريدني أن أسكب الخمر على الأرض إذًا؟
- اسكبه ولكن ليس على الأرض!
ونظر إليّ كوستابار ببرود، فقلتُ له ضاحكًا:
- أخذتُ هذا الخمر لنشربه معًا بدون ضريبة. لدينا أيضًا فواكه وخبزًا.
هزّ كوستابار رأسه نافيًا:
- لا شرب في مركز الجباية!
أجبتُ:
- كأس خمر واحدة ليست شربًا!
- هكذا تبدأ الأمور!
- ما الذي يبدأ؟
- كلّ الفوضى التي وجدتُها هنا.
هززتُ رأسي دون أن أفهم:
- أنت أوّل جابٍ يقول لي إنّ شرب كأس خمر في مركز الجباية فوضى. كان سلفك مختلفًا تمامًا.
- بالضبط!
وظلّ كوستابار متصلّبًا في موقفه. لاحظتُ بسرعة أنّه من الأفضل ألاّ أذكر اسم سلفه. على كلّ حال، يستحيل حثّه على الشرب. يبدو أنّه متمسّك بالزهد في الشرب بعناد. بالطبع، إنّه يعرف مثلي أن خداع جابٍ سكران ثمل أسهل من خداع شديد اليقظة. فجعلنا نساوم. أراد أن يدفّعني عشرة بالمئة فاعترضتُ:
- لم يُطلب منّي حتى الآن إلاّ ستّة بالمئة.

- بالطبع!

- لا أفهم!

- لماذا تخلّى سلفي عن مهنته؟ لأنّه لا يستطيع العيش من هـــذه الســتّة بالمئة البائسة. ستّة بالمئة! مبلغ زهيد جدًّا.

- لكنّ هناك تعرفة محدّدة!

- وماذا في الأمر؟ حسنًا. إنّ التعرفة الرسميّة هي ستّة بالمئـــة. يمكــن لجابٍ أن يعيش منها إن لم تُنهش منه باستمرار. أعمل حسابي على أنّ هنـــاك أربعةً بالمئة من المدخول تذهب مع التهريب. ماذا عليّ أن أفعل غير إضافـــة المال الضائع إلى التعرفة الرسميّة كبدل تعويض؟

- لكنّ هذا جور في حقّ من يصرّحون بصدق عن بضاعتهم.

- الجور الحقيقيّ هو خداع جابي الضرائب، ثم انتقادنا لأننا نخسر.

تساءلتُ

- ما رأيك بزيادة اثنين بالمئة؟ تعرفة خاصة لتجّار شرفاء مثلي. ثمّ كأس خمر تعزية لما يخبّئه الآخرون عن جابي الضرائب كوستابار.

اقتنع كوستابار أخيرًا. وحين تمّت الصفقة، جلسنا في ظلّ المركز وأكلنـــا خبزًا وفاكهة مرويّة بالخمر الذي وجده كوستابار. وفيما نحن جالسين، رأيـــتُ فجأة تطوافًا غريبًا يتّجه نحو الحدود. كان في المقدّمة شخص يمكننا أن نلحظه من بعيد لأنّه يبدو على الحافة الفاصلة بين الحالة الطبيعيّة والمرض. ويتمـــايل خلفه عجوز فقد أسنانه يرتكز على عكّازين، ثمّ شكلٌ رثّ الثياب يتسكّع وهـــو يسير. إنّه أعمى على ما يبدو. وعصابة من الأطفال المشرّدين تحيط بالثلاثـــة. فتنهّد كوستابار:

- يا إلهي! هم ثانية! هذا ما يحدث حين نبدأ بالشرب في المركز!

سألتُه:

- ماذا؟ إنها ليست أوّل مرّة أشرب فيها خمرًا بمركز الجباية!

أجابني كوستابار يائسًا:

– إنّهم يريدون أن يأكلوا معنا ويشربوا. يحضرون كلّما شعروا بوجود أحد هنا. قمل حقيقيّون، لا وسيلة للتخلّص منهم.

– منذ متى يفعلون هذا؟

– منذ أن أتيت إلى هنا. أو بالأحرى، منذ أن أدخل لاوي هذه العادات الجديدة.

في أثناء ذلك، بدأنا نسمع أصوات المجموعة تقترب. وصاح بنا أحدهم:

– هل عاد يسوع؟

فسألتُ كوستابار:

– وما علاقة هذا بيسوع؟

– كان سلفي لاوي واحدًا من تلاميذه. تعرّف إليه لأنّ يسوع يمرّ غالبًا من هنا. إنّه لا يكفّ عن عبور الحدود من بلد إلى آخر.

– لماذا؟

– أظنّ أنّه لا يشعر بالأمان في الجليل. ربما كان أنتيباس يلاحقه. لهذا لا يكفّ عن الاختفاء في الطرف الآخر من الحدود، وغالبًا في أراضي هيرودس فيلبّس. إمّا يمرّ من هنا أو يعبر البحيرة بالمركب ليلاً في بعض الأحيان لكي لا يلحظه أحد. ويذهب في أحيان أخرى إلى المدن الحدوديّة: صور وصيدا وهيبّوس وغدارة، لا في المدن نفسها وإنّما في الضواحي المجاورة حيث يعيش كثير من اليهود.

– أنا آت من صفورة. لا أحد يذكر أنّه رآه فيها مع أنّه من قرية صغيرة في النواحي.

– هذا هو تصرّفه بالضبط. يتفادى المدن ويتنقّل في القرى بين صغار الناس[٣].

– وما علاقة ذلك بهذا التطواف العجيب؟

٣–من المدهش ألاّ تُذكر المدينتين الجليليّتين الكبيرتين صفورة وطبريّة في الأناجيل الإزائيّة.

وأشرتُ إلى المجموعة التي تقترب ببطء من مركز الجباية.

- كما قلتُ لك. تعرّف لاوي إلى يسوع وتأثّر بعقيدته. وبتأثير منه غيّر أسلوب حياته تمامًا، وبدأ يقيم ولائم للفقراء. فأخبروا بعضهم بعضًا وجعلوا يسرعون إليه من كلّ حدب وصوب. لم يكن هذا إلاّ بداية. ذات يوم، مرّ يسوع، فقرّر أن يتبعه. لكنّه أراد أن يقيم أولاً وليمة وداع[4]. لابدّ أنّ تلك كانت ذكرى لا تُنسى. لازال الفقراء يحلمون بها حتّى اليوم. منذ ذلك الحين، سُمّي يسوع هنا "أكّول شرّيب خمر، صديق جباة الضرائب والخطأة[5]". كان بالفعل اجتماع مجانين. حضره أيضًا هؤلاء الحثالة الثلاثة الذين تراهم هناك. كان ذلك أهمّ حدث في حياتهم. والآن، لايحلمون إلاّ برؤية يسوع عائدًا. إنّهم يعلمون أنّه يعبر الحدود غالبًا من هنا، ويرجون دائمًا أن تقام وليمة أخرى في مركز الجباية. ويسألوني في كلّ مرّة متى سأقيم وليمتي، كما لو كنتُ لاوي!

في تلك الأثناء، اقتربت المجموعة، وصرنا نميّز الأصوات. وصاح أحدهم:

- هل أنت يسوع؟

أجبتُ:

- لا لستُ أنا.

- هل ستعطينا ما نأكله وما نشربه؟

- أكرّر لك مرّة أخرى، لستُ يسوع.

٤- راجع مرقس ٢: ١٣-١٧ في شأن وليمة جباة الضرائب عند لاوي. تؤوّل هذه القصّة حدثًا فريدًا للقاء لاوي مع يسوع ودعوته. من المحتمل جدًّا أن يكون قرار اتّباع يسوع هو نتيجة نضوج بطيء. والسيرة الإنجيليّة تركّز على الأمر الأساسيّ في قصّة مختصرة.

٥- لا بدّ أنّ ذلك قيل في حياة يسوع كما يظهره متّى ١١: ١٩

لاحظتُ أنّه يستحيل الكلام معهم بطريقة طبيعيّة. فقد تحلّقوا حولي وجعلوا ينظرون إلينا بعيون نهمة ونحن نأكل، والأولاد المشرّدون يلعبون بين أرجلهم. فقلتُ:

– ألا تستطيعون أن تتركونا في سلام؟

لكنّ الأولاد ضحكوا وصرخوا:

– هل أحضرت لنا شيئًا؟

وشوش كوستابار في أذني:

– بالله عليك، لا تعطهم شيئًا! وإلاّ لن يكفّوا عن الحضور إلى هنا. ربّما لاتكترث للأمر، فأنت سترحل بعيدًا. أمّا أنا فسأتحمّلهم على الدوام، ولا أستطيع التخلّص منهم.

فاقترحتُ:

– لندخل إلى المكتب، ربّما يرحلون.

هذا ما فعلناه بعد أن أنهينا الأكل بسرعة. وبينما نحن في الكوخ، ظلّ تيمون وملخوس خارجًا لحراسة الحمير والبضاعة. دخلنا وجلسنا على الحصر. كانت البرودة ممتعة في الداخل. قال كوستابار:

– لا تظنّ أبدًا أنّ هؤلاء جياع. لدينا في بيت صيدا صندوقٌ للفقراء[٦]. أنا أيضًا أدفع ما يترتّب عليّ من خلال وسيط. فهذا يفيد في إطعام هؤلاء المتسوّلين. لكنّ حلمهم الكبير هو رؤية يسوع يعود ويقيم وليمة كبيرة. إنّهم يأتون كلّ أسبوع لمحاصرتي.

٦– في ذلك الوقت، نظّم اليهود مساعدة الفقراء تنظيمًا حسنًا. كان هناك توزيع مال أسبوعيّ يسمح لفقراء المكان بتناول وجبتين يوميًّا، وتوزّع وجبتان في النهار لعابري السبيل. ومن شدّة احتقار الناس لجباة الضرائب، مُنع قبول حسناتهم لصندوق الفقراء، وكان عليهم أن يجدوا وسائل أخرى للتبرّع بأموالهم.

عدنا إلى الأكل والشرب لكنّي لم أشعر بالارتياح. عليّ أن أحافظ على علاقة طيّبة مع كوستابار مهما كلّف الأمر. بالطبع، إنها ليست آخر مرّة أدفع فيها الرسوم الضريبيّة عنده. جعلتُ أفكّر لكنّا انزعجنا ثانية. فقد أدخل العجوز صاحب الفم عديم الأسنان رأسه من نافذة الكوخ وجعل ينقّ:

– إذا صنعت غداءً أو عشاءً، فلا تدعُ أصدقاءك ولا إخوتك ولا أقرباءك ولا الجيران الأغنياء، لئلاّ يدعوك هم أيضًا فتنال المكافأة على صنيعك. ولكن إذا أقمت مأدبة فادعُ الفقراء والكسحان والعرجان والعميان. فطوبى لك إذ ذاك لأنّهم ليس بإمكانهم أن يكافئوك، فتكافأ في قيامة الأبرار[٧].

وبعد أن أطلق هذه الرسالة في حجرتنا الصغيرة سحب رأسه. فشرح لي كوستابار:

– إنّها عبارة ليسوع يقولونها لي دائمًا. انتبه، ستتبعها كمالتُها.

وبالفعل، سمعنا جوقة أصوات تردّد بيتًا وكأنّه شعار مظاهرة:

تعالوا إليّ جميعًا أيّها المرهقون المثقلون، وأنا أريحكم.

تعالوا إليّ جميعًا أيّها المرهقون المثقلون، وأنا أريحكم[٨].

ولم يكفّوا عن ترداد الكلمات نفسها فصارت لا تُطاق. وفي آخر الأمر، نهض كوستابار وخرج، فقد نفد صبره، وسمعته يصرخ:

– سوف أريحكم أنا. اذهبوا! هيّا. فنحن الذين بحاجة إلى قليل من الراحة.

وصمتت الجوقة، فسُمع صوت طفل يسأل:

– هل ستدعونا إلى الطعام؟

ثمّ سمعتُ نقيق العجوز:

يا كوستابار. أتعرف المثل الذي ضربه يسوع[٩]؟

٧- لوقا ١٤: ١٢-١٤

٨- متّى ١١: ٢٨



"صنع رجل عشاء فاخرًا، ودعا إليه كثيرًا من الناس. ثمّ أرسل عبده ساعة العشاء يقول للمدعوّين: تعالوا، فقد أُعِدّ العشاء. فجعلوا كلّهم يعتذرون على وجه واحد. قال له الأوّل: قد اشتريتُ حقلاً فلا بدّ لي أن أذهب فأراه، أسألك أن تعذرني. وقال آخر: قد اشتريتُ خمسة أزواج من الثيران، وأنا ذاهب لأجرّبها، أسألك أن تعذرني. وقال آخر: قد تزوّجتُ فلا أستطيع المجيء. فرجع العبد وأخبر سيّده بذلك، فغضب ربّ البيت وقال لعبده: اخرج على عجل إلى ساحات المدينة وشوارعها، وأتِ إلى هنا بالفقراء والكسحان والعميان والعرجان. فقال العبدُ: سيّدي، قد أجري ما أمرت به ولا يزال هناك مكان فارغ. فقال السيّد للعبد: اخرج إلى الطرق والأماكن المسيّجة، وأرغم مَن فيها على الدخول، حتّى يمتلئ بيتي، فإنّي أقول لكم: لن يذوق عشائي أحد من أولئك المدعوّين".

لاحظتُ أن الجميع يصغون إلى العجوز. حتّى كوستابار بدا شديد-الانتباه. وفي النهاية قال:

– لم تروِ المثَل حتّى آخره. فالتكملة هي:

"ودخل الملك لينظر الجلساء، فرأى هناك رجلاً ليس عليه ثوب العرس، فقال له: "يا صديقي، كيف دخلت إلى هنا، وليس عليك ثوب العرس"؟ فلم يُجب بشيء. فقال الملك للخدم: شدّوا يديه ورجليه، وألقوه في الظلمة البرّانيّة. فهناك يكون البكاء وصريف الأسنان"[10]".

وصار صوت كوستابار ناشفًا وباردًا:

– حسنًا. تلاشوا الآن بسرعة وإلاّ سأحضر الجند ليكبّلوا أيديكم وأرجلكم ويلقوكم في السجن!

واعترض صغير:

٩- لوقا ١٤: ١٦-٢٤

١٠- نجد هذه التكملة عند متّى حيث صاحب الدعوة ملك (٢٢: ١١-١٤

– لم يروِ يسوع قطّ هذه النهاية. لقد اخترعتها أنت. إنّها خاطئة، كذب!

وبدأ كوستابار يشتعل غضبًا:

– إنّها النهاية الحقيقيّة، وستدركون ذلك حالاً، إرحلوا يا شلّة الأنجـــاس، إذهبوا إلى الجحيم!

كنتُ في الكوخ على لهب. أليس عليّ الخروج لتهدئة الأوضاع؟ لقد أثّـــر المثل فيّ تأثيرًا بالغًا. إنّ الصغير محق. فخاتمة كوســـتابار لا تتوافـــق مـــع القصّة. لكنّي أفهم موقف جابي الضرائب أيضًا. ما أعســـر تحمّـــل الزيـــارة المنتظمة لهؤلاء. ونجح كوستابار أخيرًا، وسمعتُ المجموعة تبتعد، فدخل:

– – إنّهم يرحلون. هؤلاء الناس دملة حقيقيّة. في السابق، كانوا يسـعدون حين نعطيهم قطعة خبز، ويرحلون. ومنذ أن أيقظ رجاءهم أشخاص كيســـوع ولاوي، صاروا لا يُطاقون. إنّهم ينتظرون الانقـــلاب الكبـــير، ملكـــوت الله، ويظنّون أنّهم سيجلسون عندئذ إلى المائدة مع يسوع: المتســـكّعون والعرجـــان والكسحان. سيأتي دورهم في التمتّع بقسط السعادة اليسير الذي خصّصـــه الله لهم ويمنعه الناس عنهم. إنّهم يعيشون منذ ذلك الحين في هذا الرجاء المدهـش، ولهم مطالب لا يمكن لأيّة قرية أو دولة أو إنسان أن يلبّيها. مطالب من عـــالم آخر لا من هذا العالم.

– إنّ حال الأولاد تؤلمني. هل ذنبهم إذا ولدوا فقراء؟

– أنت على حق. أتظنّ يهون عليّ طردهم؟ ولكن ما العمل؟ لـــو بـــدأتُ بإعطاء الطعام مرّة واحدة للمتسوّلين وللأطفال، سينهالون عليّ من كلّ الإقليم. هذا ما فعله لاوي. عوّد الناس على أن يجدوا لديه ما يأكلونه. أظنّ أحيانًا أنّـــه اختفى لهذا السبب. لم يستطع التحمّل. من الممكن أنّه بالَغ في تقدير قواه. كيف يمكنه العناية بجميع هؤلاء على المدى البعيد؟ ربما لم يكن لديه إلاّ الخيار بيـــن الإفلاس أو التخلّي عن مسؤوليّته. مهما يكن من أمر، لقد رحل. تبع يســـوع. أتفهم لماذا لا أريد أن أصل إلى هذا الوضع؟ لا أتمنّى إلاّ شـــيئًا واحـــدًا: أن أعيش أنا وأسرتي من مركز الجباية هذا. لا أســـتطيع أن أختفـــي هكـــذا! لا

يمكنني أن أخرب نفسي مثل لاوي. كلّ ما أستطيع فعله هو دفع ما يترتّب عليّ لصندوق الفقراء، لا غير!

صار الوقتُ متأخرًا. كان علينا أن نوقف محادثتنا لنصل إلى بيت صيدا في الوقت المناسب. ركبنا حميرنا وسرنا على مهل في الدروب المأهولة. كانت بحيرة الجليل تلمع في الشمس، والجبال تلقي عليها ظلالاً شاحبة. كان بعد ظهر هادئ. وفجأة، برز أمامنا المتسوّلون الصغار الذين التقيناهم في مركز الجباية. كانوا يمسكون بأيدي بعضهم بعضًا ويسدّون الطريق. فسألتهم:

– ماذا تفعلون؟

– نلعب لعبة مركز الجباة.

– أيّ حدود هنا إذًا؟

– هنا يبدأ ملكوت الله.

كدتُ أستعر غضبًا لكنّي ضبطتُ نفسي. لم لا أفرِح هؤلاء الأطفال؟ شاركتهم اللعب:

– ماذا علينا أن نفعل إذًا لندخل في هذا الملكوت؟

وجعل الأطفال يضحكون، وقال لي أكبرهم سنًّا:

– إن لم تصيروا كالأطفال، لن تدخلوا ملكوت الله[11].

– ومن يحكم في ملكوتكم؟

– نحن نحكم. إنّ ملكوت الله لنا نحن الأطفال[12].

– وماذا عليّ أن أدفع للجباة؟

– أعطنا طعامًا.

– أهذه ضريبة كافية؟

١١– مرقس ١٠: ١٥

١٢– راجع مرقس ١٠: ١٤

– ليس هناك ملكوت تستطيع دخوله بهذه السهولة. يكفيك أن تعطي قليلاً مما تملك فتصير منه.

لم أعد أعرف هل الأمر لعبًا أم جادًّا. فقلتُ:

– حسنًا، هذه ضريبة ملكوتكم.

وأعطيتهم بعض الحلوى والفاكهة، فلمعت عيونهم، وفتحوا الطريق، فاستطعنا المرور. لقد عبرنا الحدود نحن أيضًا.

الفصل الثالث عشر

امرأة تحتج

لم نلتق يسوع على الرغم من أنّا سمعنا عنه في كلّ مكان. لـم نجـده لا على طريق بيت صيدا ولا في طريق العودة، حيث سرنا على ضفاف بحـيرة الجليل للوصول إلى طبريّة. جميع الناس سمعوا عنه، وكثيرون أصغوا إليـه. يبدو أنّه مرّ في كلّ مكان. لو صدّقنا ما يُقال عن أمـاكن إقامتـه المختلفـة، لافترضنا أنّه ينتقل من مكان إلى آخر بسرعة مدهشة. فلا عجب من أن يقـول لنا أحدهم إنّه يستطيع السير على الماء[1]. فهو يظهر فجأة في أماكن متعدّدة ثـمّ يختفي. هناك لغز آخر: كيف يمكنه إطعام جميع الناس الذين يتبعونه؟ يُقـال إنّ لديه القدرة على تكثير الخبز. ففي قرية يتحدّث الناس عن سبعة أرغفة لأربعة آلاف شخص، وفي أخرى عن خمسة أرغفة لخمسة آلاف[2]. بالطبع، لم أصدّق كلمة واحدة من هذا. فكلّ شيء يبدو ممكنًا لدى يسوع. والناس على اسـتعداد لتصديقه تمامًا: حين يشفي واحدًا المرضى يمكننا أن نثق به ثقة مطلقة. جميـع قصص المعجزات هذه لم تظهر إلاّ لأنّ لديه شهرة صانع العجائب.

ربما وجدتُ شرحًا لإحدى هذه المعجزات، مع أنّي لستُ واثقًا من ذلـك. عند عودتنا إلى طبريّة، وضعنا حقائبنا عند عملائنا، ومكـث هنـاك تيمـون وملخوس. ذهبتُ لزيارة كوزى. إنّه يعيش في بيت حديث من النمط اليونـانيّ الرومانيّ: غرف كثيرة حول باحة تحيطها الأعمدة، وصالة الضيافة في الطبقة الثانية. إنّ لها إطلالة رائعة على بحيرة الجليل. جلستُ مع حنينة فيها بانتظـار كوزى الذي سيحضر بين اللحظة والأخرى من أراضـي أنتيبـاس. تحادثنـا فحوّلت الحديث إلى موضوع يسوع. كانت حنينة أوّل مَن حدّثني عنـه. ولـم أصدّق أذنيّ حين سمعتها تقول لي إنّها تسانده، وشرحت لي الأمر بدون حرج:

١- راجع مرقس ٦: ٤٥-٥٢

٢- راجع السيرتين في معجزة تكثير الخبز. يذكر مرقس (٨: ١-٩) سبعة أرغفة لأربعـة آلاف شخص، وفي ٦: ٣٥-٤٤ خمسة أرغفة لخمسة آلاف شخص. نستطيع هنا أن نلمـس تصاعد المعجزات.

– أرسلُ إليه مالاً ومؤونة[3]. لا يعلم زوجي بهذا الأمر. عليك ألاّ تخونني. إنّي أزور يسوع لأسمع ما يقوله حين أتمكّن من ذلك.

جميع أتباع يسوع الذين التقيتُهم حتّى الآن كانوا من صغار الناس. أمّا حنينة فهي تنتمي إلى الطبقة الراقية. فسألتها:

– أهناك آخرون من الطبقة الراقية يساندونه؟

– بعض الأفراد. إنّه يجد معونة في كلّ مكان.

– إذًا، ما يقوله الناس ليس صحيحًا، وهو أنّه استخدم قدراته المعجزيّة ليطعم تلاميذه! لقد سمعتُ قصصًا غير معقولة من هذا النوع، إنّه حتّى كثّر الخبز.

– يروي الناس أشياء كثيرة. لا أستطيع أن أقول لك إلاّ ما أعرفه. حين نرسل له، أنا أو الآخرين، مؤونة من الخبز والسمك والفواكه، ويحضر له رجالنا كلّ شيء دفعة واحدة، ترى الجموع ظهور هذه الكميّة الكبيرة من الطعام معجزة. لم يرَ هؤلاء المساكين قط كميّة بهذا الحجم دفعة واحدة. لو جاز لنا التعبير، نقول إنّ هناك معجزات تحصل فعلاً.

– وكيف ذلك؟

– لو بدأ الناس يؤمنون بأنّ هناك خبزًا يكفي الجميع، يزول خوفهم من الجوع، ويُخرِجون زادهم الذي يخبّئونه لكي لا يشاركهم الآخرون به، ويعطون منه دون أن يخشوا العوز.

– أتريدين أن تقولي إنّه يمكننا أن نشرح بهذه الطريقة قصّة معجزة تكثير الخبز؟

– ليس مباشرة. لا يمكننا أن نقول إنّها لم تحدث هنا أو هناك. فمع يسوع، يكتشف الناس دائمًا أنّ لديه إمكانيّات مدهشة، دون أن يعمل أو يتسوّل أو حتّى ينظّم نفسه.

٣- بحسب لوقا ٨: ٣ حنّة زوجة كوزى وكيل الملك أنطيباس هي من النساء اللواتي ساندن يسوع بثرواتهن.

– ألا يقود هذا إلى فكرة واجب المشاركة العادلة في الخبز داخل البلد؟

– بالطبع! هذا ما يرجوه الناس. إنّ بعضهم ينتظرون بنفاذ الصبر أن يعلن يسوع نفسه مسيحًا، ويُحِلّ العدل، ويضمن الخصب، ويعيد الأمور إلى مجاريها ويطرد الرومانيّين من البلد[4].

– لكنّ هذا في غاية الخطورة!

لم أستطع متابعة الحديث. فقد سمعنا كوزى يدخل. تصافحنا بحرارة قلبيّة، وعندما جلسنا، عدتُ إلى السؤال مباشرة:

– جميع الناس في الجليل يتكلّمون على يسوع. إنّه موضوع الساعة. ما رأيك فيه. أهو مثير للاضطرابات، ثائر؟

أجاب كوزى:

– إنّ هيرودس أنتيباس قلق من هذا. فضميره يؤنّبه بعد إعدام المعمدان. وهذا الأمر لم يحلّ أيّ من مشاكلنا. ذات يوم أدلى بفكرة في غاية الغباء وهي أنّ يسوع هو المعمدان قام من بين الأموات، لذلك يتمتّع بقدرات عجائبيّة[5]. إنّه خائف. لقد صار يصدّق الخرافات ويؤمن حتّى بقيامة الأموات.

– لكنّ الفرّيسيّين وكثيرين آخرين يؤمنون بها أيضًا.

– أمّا نحن فلا. فأنا وهيرودس نتعاطف مع الميول الصدّوقيّة[6]. نحن، الصدّوقيّين، نؤمن بأنّ النفس تتلاشى مع الجسد، ونرفض انتظار عالم جديد

٤– هذا ما يُسمّى بالمزمور ١٧ لسليمان (القرن الأوّل ق.م.) وهو يعطينا فكرة عن الانتظار المسيحاني في أيّام يسوع. على المسيح أن يطرد العدو (١٧، ٢٥) ويوحّد الشعب ويقدّسه. "ومنذ ذلك الحين، لن يكون بينهم غريب"(١٧، ١٨).

٥– راجع مرقس ٦: ١٤ لو اعتبرنا يسوع هو المعمدان القائم من بين الأموات، فذلك يفترض أنّ أمره كان مجهولاً من قبل. والإشارة إلى خوف هيرودس هي صدى لردّ فعل قديم جدًا يعود إلى أيّام يسوع وإلى بدء حياته العلنيّة.

٦– في شأن العقائد الصدّوقيّة، راجع يوسف تاريخ اليهود ١٨، ١٦-١٧=XVIII ١-٤، ومنه نقتبس التعابير الّتي ستُذكر.

أفضل. لعقيدتنا أتباع قليلون، وهم غالبًا من الشخصيّات المرموقة. على العكس، ينتمي أتباع الفرّيسيّين إلى طبقة أدنى. وهم يؤمنون بخلود النفس والثواب والعقاب في العالم الآخر وفقًا لسلوكنا في الحياة. إنّ يسوع هذا وأتباعه أقرب إلى الفرّيسيّين منّا.

– لكنّ الفرّيسيّين لا يشكّلون خطرًا سياسيًّا، ولهم ممثّليهم في السنهدريم[٧]. إنّهم يتعاونون مع السلطات. بالطبع، بينهم متطرّفون انضمّوا إلى الغيّوريين. لكنّهم حالات استثنائيّة. أتظنّ أنّ يسوع منها؟

– لا! أعتبر يسوع مجنونًا عديم الخطورة. يمكننا نسيانه لو لم يعتبره كثير من الناس نبيًّا أو حتّى المسيح. هؤلاء الناس يسبّبون لنا مشكلة لا يسوع. خصوصًا الذين يدعمونه. لو لم يقدّم له بعض المجانين مالاً ومؤونة، لتلاشت حركة المتسوّلين العطوفين هذه منذ زمن بعيد. لكنّهم يبيعون أفكارهم بشكل فعّال ويستطيعون حتّى العيش منها.

احمرّ وجه حنينة وصارت تبلع لعابها. لكنّها بدت حريصة على ألاّ يُكشف أمرها. وجاءنا صوتها واضحًا:

– ربّما لم تكن هذه الأفكار بهذا القدر من الجنون؟

عندئذ بدأ كوزى يهيج وارتفع صوته قليلاً:

– أفكار حسنة؟ ما الذي يعلنه نبيّ آخر الأزمنة هذا؟ ملكوت الله! على كلّ شيء أن يتغيّر!. ستبدأ الحياة الأبديّة قريبًا! هل فكّرت مرّة لماذا يعشق البسطاء هذه الأفكار؟ ولماذا نحن، الصدّوقيّين، لا نجد إلاّ في الطبقات الراقية أشخاصًا يقبلون بأنّ مصير الإنسان يشبه مصير الحيوان، وأنّه يموت مثله

٧- كان السنهدريم مجلس الدولة اليهوديّة حيث يحكم كبار الكهنة (أصحاب العقليّة الصدّوقيّة) وممثّلون عن الأرستقراطيّة العلمانيّة. ومنذ حكم الملكة الكساندرا سالومة (٧٧-٦٧ ق.م.)، صار للفرّيسيّين أيضًا ممثّليهم. لا شكّ أن هذا ساعد كثيرًا على منح حركتهم (التي كانتْ في الأصل حركة معارضة) توجّهًا يسمح لهم بقبول الأحوال الحاضرة نوعًا ما.

تمامًا[8]؟ إنّنا الوحيدون الذين لا خيال إطلاقًا في نظرتهم إلى الإنسان والموت. إنّنا الوحيدون الذين يعطون النصيحة الوحيدة الواقعيّة الصالحة للحياة: "اذهب وكل خبزك بفرح واشرب خمرك بقلب مسرور لأنّ الله رضي عن أعمالك[9]". نحن الوحيدين تقريبًا الّذين لا يؤمنون بقيامة الأموات والخلود.

اعترضت حنينة:

– حتّى هيرودس أنتيباس لا يتمكّن من الإيمان بأنّ يوحنّا المعمدان مات نهائيًّا.

صرخ كوزى:

– هذه هي الفضيحة! كيف يمكنه السقوط في خرافة كهذه؟ فصغار الناس يتعلّقون بهذه الفكرة. ليس لديهم ما يستفيدون منه في هذه الحياة. ليس لديهم إلاّ عملهم وهمومهم ومشاغلهم. يعزّون أنفسهم إذًا بعالم آخر أفضل حيث يحصلون جميعهم على ما يأكلونه. ليست هذه الآمال إلاّ مَرَضيّة. إنّها النتيجة لوجود مَرَضيّ، ولا يقوم يسوع إلاّ بدعم هذه الأفكار، فيروي حكايات أحلام الناس وينادي: "تعالوا إليّ جميعًا أيّها المرهقون المثقلون، وأنا أريحكم[10]". فلنتركه للمتألّمين والرازحين. يمكنه نشر أفكاره الغبيّة بين هؤلاء الناس. أمّا بيننا، فلا علاقة لنا به.

ونهضت حنينة، ولمع العرق على وجهها من الإثارة.

– كفى يا كوزى! لا أستطيع سماع هذا. ربما كنّا، نحن النساء، نفهم أحلام صغار الناس وآمالهم أكثر منكم أيّها الرجال. ما تقوله خطأ!

أجاب كوزى بعناد:

– أخطأ أنّه يهدهد للناس في قصّة ملكوته؟ مثل كثيرين قبله؟

٨- سفر الجامعة ٣: ١٩

٩- سفر الجامعة ٩: ٧

١٠- متّى ١١: ٢٨

أجابت حنينة:

– كثيرون تاقوا إلى ملكوت الله. لكنّ يسوع يقول إنّه قد بدأ منذ الآن. لن ننتظر بعد. ذات يوم، سأله واحد متى سيأتي هذا الملكوت، فأجابه: "لا يمكن مراقبة قدوم ملكوت الله، ولا أن يُقال: إنّه هنا أو هو هناك. لأنّ ملكوت الله فيكم[11]". فشكّ أحدهم في أنّه هنا فعلاً ونحن لا نراه، فأجابه: "إذا كنتُ بروح الله أطرد الشياطين فقد وافاكم ملكوتُ الله[12]".

لم يستسلم كوزي:

– هذا بالضبط ما أعنيه. بأيّ شيء يُحيي الرجاء؟ بالأعاجيب. بالسحر. صغار الناس لا يثقون بأنفسهم إطلاقًا. لهذا يشتاقون إلى معجزات تفعل ما يعجزون عن فعله. لذلك يخترعون جميع هذه الخرافات عن يسوع، وقصصًا لم تحدث قطّ. فمنذ زمن قريب، رُويَت لي معجزة على أنّه صنعها وقد سمعت عنها قبلاً منسوبة إلى سوريّ[13]. لابدّ أنّك تعرف السوريّ الذي يأخذ أصحاب الصرع ممّن يصابون بالحول ويمتلئ فمهم بالزبد. فبعد أن يقبض أجرًا مرموقًا، يعالجهم ويعيدهم وقد شُفيوا. كلّ ذلك يتمّ على النحو التالي: حين يقف أمام المريض المطروح على الأرض ويسأله من أين دخل الشيطان إلى جسده، يصمت المريض. لكنّ الشيطان يجيب بدلاً عنه باليونانيّة أو بأيّة لغة أجنبيّة أخرى، بحسب المكان الذي كان فيه قبل أن يدخل في الإنسان. عندئذ يطرد السوريّ الشيطان. فإذا لم يُطعه، يهدّده بقوّة ويطرده. عندئذ أضاف محدّثي وهو يشير إلي بطرفه: رأيتُ حتّى ظلاً أسود دخانيًا يخرج.

١١– لوقا ١٧: ٢١ هناك جَدَلٌ في ترجمة عبارة (ملكوت الله فيكم) فالكثيرون يترجمونها (بينكم). في الكلام المذكور بعد ذلك يؤكّد يسوع أنّ ملكوت الله ينهي ملكوت الشياطين. فإذا كانت الشياطين تخرج من داخل الإنسان، فإنّ ملكوت الله قد بدأ. يبدو إذًا أنّ هذا الملكوت ينبع من داخل الإنسان، حتّى وإن لم يكن فيه ما هو داخليّ لأنّه يرتبط بالتحوّل العجيب للعالم.

١٢– متّى ١٢: ٢٨

١٣– روى سيرة المعجزة هذه الناقد لوشيانوس الساموزاتي (حوالى ١٢٠–١٨٠ق.م.) في حواره بعنوان "الكاذب" الفصل ١٦.

لم أستطع مسك نفسي عن الضحك. حتّى حنينة قهقهت، ثـــمّ اســتعادت جديّتها:

– هل سمعت حكايات يسوع؟ إنّها تبدوا في البداية مشابهة. لكنّ يســوع لا يطلب أيّ أجر. وأهمّ من ذلك أيضًا: إنّه يعرف تمامًا أن النـــاس يبـالغون فــي إيمانهم بالمعجزات، لأنّهم لا يثقون بأنفسهم. لهذا غالبًا ما يقــول لـــهم: "إيمــانك خلّصك[١٤]". يقول ذلك بوضوح: لستُ الذي قام بالمعجزة، ففيـك تكمــن القــوّة القادرة على شفائك. إنّه يريد إنقاذ صغار الناس من حذرهم الوهميّ من أنفسهم.

أجاب كوزى:

– ألا يقنعهم بأنّه لا قيمة لهذه الحياة؟ وأنّ الحياة الحقيقيّة لا تبدأ إلاّ في ما بعد؟

اعترضت حنينة ثانية:

– يقول يسوع العكس تمامًا. الآن قد تمّت الأزمنة. الآن هو زمن الفـرح. من المستحيل الصيام إذًا، ونحن في وليمة عرس[١٥]. يمكنننـــا إذًا أن نفـــرح. فذات يوم صاح بالناس:

"طوبى للعيون التي تبصر ما أنتم تبصرون. فإنّي أقول لكم إنّ كثيرًا مــن الأنبياء تمنّوا أن يروا ما أنتم تبصرون فلم يروا، وأن يسمعوا ما أنتم تسـمعون فلم يسمعوا[١٦]".

ما الذي يقوله للناس إذًا سوى أن لحياتهم قيمة أثمن من حيـــاة الملــوك والأنبياء: أنتم أسعد منهم، أسعد من ملكة سبأ التي أتت من بعيد لتسمع حكمــة سليمان[١٧].

١٤- راجع مرقس ٥: ٣٤، ١٠: ٥٢ ، لوقا ٧: ٥٠ متّى ٩: ٢٩

١٥- راجع مرقس ٢: ١٨-١٩ هذا يختلف يسوع عن المعمدان. كان هذا يصوم، ورفـض يسوع ممارسة الصوم (الخارجيّة على الأقل)

١٦- لوقا ١٠: ٢٣-٢٤

١٧- راجع متّى ١٢: ٤٢

لم يقتنع كوزى بعد.

– أنتِ تعكسين الأمور. إنّ يسوع هذا يعطي الناس فكرة خاطئة عن أنفسهم: إنّهم فقراء تعساء لكنّهم يتخيّلون أن قيمتهم أعظم من الملوك، مع أنّ عليهم الاستمرار بحني رؤوسهم في حياتهم اليوميّة. ألم يعلن يسوع أنّه علينا ألاّ ندافع عن أنفسنا؟ ألا يعلّم أخلاقيّات صغار الناس؟ أخلاقيّات من عليهم قبول كلّ شيء.

لم تستسلم حنينة بل ازدادت الإثارة فيها:

– ما يزعجك عند يسوع هذا هو بالضبط عكس أخلاقيّات صغار الناس. إنّه يسمح لصغار الناس هؤلاء بسلوك كان خاصًّا بكم حتى ذلك الحين. أليس العيش بدون همّ هو من مميّزات الطبقة العليا؟ وها إنّ يسوع يقول: هذه الميّزة من حقّ الجميع، حتّى الّذين لا يملكون شيئًا.

"لا يهمّكم للعيش ما تأكلون ولا للجسد ما تلبسون. أليست الحياة أعظم من الطعام، والجسد أعظم من الثياب؟ أنظروا إلى طيور السماء كيف لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن في الأهراء، وأبوكم السماوي يرزقها. أفلستم أنتم أثمن منها كثيرًا[18]؟

أهذه أخلاقيّات صغار الناس؟ إنّ يسوع نفسه يقارن هؤلاء بسليمان دون وجل: إذا كانت زنابق الحقل ترتدي حلّة أبهى من سليمان، فما أحرى أن يكون الإنسان. أليس من امتيازات القديرين ألاّ يخافوا أعداءهم؟ يمكن للأقوياء أن يتحلّوا بالشهامة، لأنّهم يعرفون جيّدًا أنّه لا يمكن لأعدائهم أن يؤذوهم، بل عليهم الاتّفاق معهم. لكنّ يسوع يقول هذا للجميع لا للأقوياء فقط:

"أحبّوا أعداءكم وصلّوا من أجل مضطهديكم، لتصيروا بني أبيكم الذي في السموات[19]".

١٨– متّى ٦: ٢٥–٢٦

١٩– متّى ٥: ٤٤–٤٥

على الجميع أن يكونوا أبناء الله. من قبل، لم يسمّ أحد نفسه ابنًا لله إلاّ ملوك إسرائيل. لكنّ يسوع يطلق هذه التسمية على من يظهر شهامة تجاه عدوه، لأنّ جميع الناس ملوك. أليس من امتيازات القادرين تشريع القوانين وإلغائها؟ فهو يقول:

"سمعتم أنّه قيل للأوّلين: "لا تقتل، فإنّ من يقتل يستوجب حكم القضاء". أمّا أنا فأقول لكم: من غضب على أخيه استوجب حكم القضاء[٢٠]".

شحب وجه كوزى، وتكلّم بصعوبة:

– ولماذا لا ينشر عقيدته إلاّ بين البسطاء؟ لمَ لا يأتي إلى طبريّة؟ لماذا لا يأتي ليؤدّب أنتيباس؟ لا أعرف إلاّ إجابة واحدة على هذا: إنّه يساير أحلام صغار الناس.

ووافقت حنينة:

– بالطبع يساير أحلام صغار الناس! إنّه لا يلتفت إلى الأغنياء والمقتدرين. ماذا يريد إذًا؟ إنّ صغار الناس هؤلاء يحنون ظهورهم. وهو يريد أن يراهم منتصبين. إنّهم أناس تسحقهم الهموم، وهو يريد أن يحرّرهم منها. إنّهم أناس لم يعيشوا أمرًا مهمًّا طوال حياتهم، وهو يوعّيهم إلى أنّ لحياتهم قيمة. لهذا تخافون، أنتم وهيرودس أنتيباس. أنتم تخافون أن يُدرِك صغار الناس بأنّهم ليسوا بعد صغارًا. لذلك أشعتم بأنّكم تريدون قتله. لكي يختفي في الطرف الآخر من الحدود. لكي يترككم في سلام. لكي لا يتوصّل صغار الناس إلى تلك الأفكار الثوريّة ولا يصبحون خطرًا عليكم.

وحاول كوزى أن يغيّر مجرى الحديث، فمال عليّ مبتسمًا:

– سألتني منذ قليل هل يسوع من المعارضين ومثيري الاضطرابات. هناك أمر واحد ثابت أكيد: لقد جعل امرأتي ثوريّة.

تردّدت حنينة قليلاً ثمّ قالت بصوت خافت:

٢٠- متّى ٥: ٢١-٢٢

- لا. أنت الذي جعلتني ثوريّة!
وسأل كوزى دهشاً:
- أنا؟
- حين بدأتَ بمهاجمة يسوع وأفكاره جرحتني!
- لا يمكنني أن أعرف أنّ هذه الأفكار غالية على قلبك!
- أخشى أنّك تسعى إلى احتقاري يا كوزى.
- كيف؟
لم يفهم كوزى بعد امرأته.
- ألا تحتقر النساء صاحبات الفكر الغبيّ؟
- لكنّي لم أفكّر قطّ بأنّ فكرك غبيّ! لم تخطر ببالي قطّ فكرة كهذه.
- لكنّك تسخر دومًا من الأغبياء الذين يرسلون ليسوع مالاً ومؤونة!
وظلّ كوزى فاغر الثغر:
- أتقصدين أنّكِ ...
هزّت حنينة برأسها موافقة:
- أقصد أنّي أساعد يسوع.
- أنّى لي أن أفكّر في ذلك!
وساد الصمت برهة، ثمّ قالت حنينة بهدوء:
- فعلتُ ذلك سرًّا. لم أجرؤ على إعلامكَ بالأمر. لم أشأ أن تحتقرني.
ونظر كوزى إليها معاتبًا:
- عليكِ ألاّ تفكّري فيّ على هذا النحو. إذا كنتِ تقدّرينه ... أفضّل أن أغيّر رأيي فيه على أن أحتقركِ!
- ولكن حين نسمعك تسخر منه ...
تنفّستُ الصعداء. لقد أطلقتُ النقاش، لكنّي تابعته بعد ذلك بشعور المتضايق الذي فضّل ألاّ يكون هنا. استأذنتُ وتركتهما وحدهما. حيثما حللتُ، يتجادل الناس في شأن يسوع. فيعلو الصراخ بين الأهل والأولاد، بين الأزواج

وبين الأصدقاء وبين الجيران وحتّى بين جباة الضرائب والتجّار. إنّ هذا الواعظ الجوّال يثير الفوضى في كلّ مكان.

ذهبتُ لأتنزّه قليلاً على شاطئ البحيرة. لم تكن هناك نسمة تجعّد سطح المياه. كان منظر الطبيعة كلّه ينعكس بوضوح: مرتفعات الجولان من بعيد وبعض تكتّلات الغيوم الساكنة وزرقة السماء. رأيت ظلّي في الماء أيضًا، لكنّي لم أجد آخر سواي في هذا الهدوء. كنتُ هناك كالغريب أمام نفسي. تاهت أفكاري هنا وهناك. نظرتُ باتّجاه كفرناحوم. لا بدّ أنّ يسوع في مكان ما هناك!

حين عدتُ إلى البيت مررتُ مرّة أخرى أمام دار كوزى. سمعتُ صوته من بعيد. كان يغنّي إحدى أغانيه المفضّلة، وهي نشيد لسليمان. وصرتُ أشاركه النصّ واللحن في مسيري[٢١]:

إجعلني كخاتم على قلبك كخاتم على ذراعك

فإنّ الحبّ قويّ كالمنيّة والهوى قاسٍ كمثوى الأموات.

سهامه سهام نار ولهيب الربّ.

المياه الغزيرة لا تستطيع أن تطفئ الحبّ والأنهار لا تغمره.

ولو بذل الإنسان كلّ مال بيته في سبيل الحبّ لاحتُقِر احتقاراً.

ما أجمل هذا النشيد. ألا يريد كوزى من خلاله أن يصالح زوجته؟ أم هل يغنّي فقط غناءه في المساء؟ الشيء الوحيد الأكيد هو أنّ هذا رسالة لحنينة، وأنا واثق من أنّها ستردّ الجواب.

الليل قد حلّ. ظلّ الهواء حارًّا مثل النهار. هدأ كلّ شيء، لكنّ القلق لم يزل عنّي. ارتميتُ فوق سريري لكنّي لم أجد النوم. لم تكن الحرارة سبب بقائي مستيقظًا، بل الحوار في موضوع يسوع. أصوات كثيرة لا زالت تتردّد فيّ. كنتُ أسمع أصوات حنينة وكوزى، وجابي الضرائب والمتسوّلين

٢١- راجع نشيد الأناشيد ٨: ٦-٧

والأطفال، وصوت برأيًا أيضًا. استولت جميع هذه الأصوات الغريبة على أحلامي وأفكاري. سعيتُ في طردها ونسيانها بمحاولتي للنّوم لكنّي لم أفلح. لأنّها لم تعد أصوات غريبة، بل أصوات كياني الداخلي، أفكاري الشخصيّة ومشاعري، مخاوفي وآمالي. فالجدال حول يسوع كان جدالاً فيّ. والنقاش في موضوعه نقاش مع نفسي. كان فيّ شيء يبعدني منه ويقرّبني منه. شيء يعتبر أفكاره غبيّة، لكنّه معجب بها. خشيت الاضطراب النابع منه ورغبتُه وكأنّه نبع رجاء. هكذا ظلّت صورته غامضة باستمرار. وفي الصباح، غرقتُ في نوم مضطرب. وحين استيقظتُ شعرتُ بأنّ شيئًا ما تغيّر في حياتي.

الفصل الرابع عشر

تقرير عن يسوع

لم ألتقِ يسوع قطّ طوال سفري في الجليل. كنتُ أجد آثارًا له في كلّ مكان: طرائف وحكايات وتقاليد وروايات. وظلّ هو يفلت منّي. لكنّ كلّ ما عرفتُه عنه يتوافق مع بعضه بعضًا. حتى أكثر القصص مبالغة عنه كان لها طابعًا مميّزًا. لم تُروَ أشياء كهذه في شخص آخر. كانت رسالتي أن اكتشف هل يشكّل يسوع خطرًا على الأمن. ما من شكّ في هذا: إنّه خطر! جميع الذين يتبعون ضميرهم بدل ما تمليه الشريعة عليهم، جميع الذين يرفضون اعتبار توزيع السلطة والمال أمرًا نهائيًا، جميع الذين يمنحون صغار الناس عقليّة الأمراء، هم خطيرون على المجتمع القائم. يستحيل أن أقول شيئًا من هذا للرومانيّين! لا أشعر البتّة بأنّي مرغم على تلبية رغباتهم. إذا كنّا نقرّر قبول وصيّة الله في الراحة يوم السبت أو رفضها، فكم بالحري حين يتعلّق الأمر بالنظام الرومانيّ.

كيف يمكن إخفاء يسوع؟ كيف أجعل من هذا الثائر واعظًا مسالمًا؟ يجب أن يتوافق ما أنقله مع الأحداث. لاشكّ أنّ لمتيليوس مصادر معلومات أخرى عنه. ربّما سيلتقيه. عليّ أن أقول الحقيقة، ولكن عليها أن تكون نصف حقيقة، فقط ما يكفي لإخفاء الأمر الإجماليّ. أجهدتُ فكري طويلاً في هذه المسألة. وفي آخر الأمر جاءتني فكرة. عليّ أن أقدّم يسوع بحيث أمنحه في نظر الرومانيّين هيئة معروفة توافق أفكارهم. فعندنا، حين نريد أن يفهم الغرباء تيّارًا دينيًا، نقارنه بسهولة مع المدارس الفلسفيّة: الفرّيسيّون مع الرواقيّين، الأسّينيّون مع الفيثاغورثيّين، الصدّوقيّون مع الشكوكيين[1]. لماذا لا أظهر يسوع

---

[1]– يقارن يوسف الفرّيسيّين مع الرواقيّين (*سيرة ذاتيّة* ١٢) والأسّينيّين مع الفيثاغورثيّين (*تاريخ اليهود* ١٥، ٣٧١ = XV ١٠، ٤). فكان الفيثاغورثيّون يشكّلون هم أيضًا نوعًا من "الأخويّات السريّة" ولهم مثاليّة الثروات المشتركة.

على أنّه فيلسوف جوّال من المدرسة الكلبيّة[2]؟ أليس في الواقع فيلسوفًا جوّالاً؟ عليّ أن أقدّم عقيدته عمومًا بحيث تتوافق في كثير من النقاط مع أقوال الكتّاب اليونانيّين والرومانيّين. فلهذا مفعول مهدّئ. ربّما استطعت أيضًا أن أعلنه راويًا؟ ألا يروي كثيرًا من القصص والأمثال؟ الأمر واضح: عليّ أن أكثّر نقاط التقارب بين أقواله والكتابات الوثنيّة. إنّه مشروع مهمّة صعبة.

عدتُ إلى صفورة. سلّمتُ شؤون العمل لباروك وجعلتُ أقرأ ما أستطيع. فتّشتُ في مكتبتي. وحين جمعتُ مادّة كافية، بدأتُ في كتابة تقرير صغير لمتيليوس:

يسوع الفيلسوف[3]

يسوع فيلسوف يشبه الكلبيّين، أولئك الفلاسفة الجوّالين. يدعو إلى التجرّد الكلّي مثلهم، ويتجوّل في البلد دون مسكن ثابت، يعيش بدون أسرة ولا مهنة ولا مدخول. يطلب من تلاميذه أن يذهبوا بدون مال أو حذاء أو حقيبة، قميص فقط[4].

إنّه يعلّم أنّ حبّ الله والقريب من أهمّ الوصايا، وفيها خلاصة كلّ ما يُطلب من الإنسان. وهذا يوافق التقليد اليونانيّ حيثُ تُعتبر التقوى تجاه الله وإنصاف البشر فضيلتين أساسيّتين[5].

٢- كان الكلبيّون (هكذا سُمّيوا وفقًا للّقب الّذي أُطلِقَ على ديوجينس في برميله (Kyno=كلب)) يعلّمون التجرّد عن جميع أنواع الاحتياجات وعن الحشمة، أي السعي الإراديّ إلى الهامشيّة في جميع القواعد. كان المتسوّلون من الفلاسفة الكلبيّين كثيري العدد في القرن الأوّل الميلاديّ، ويتجوّلون في جميع أنحاء الإمبراطوريّة الرومانيّة. كانت لديهم لحى طويلة وكثّة، ومعاطف وسخة، وخروج وعصيّ ذات عقد.

٣- يعتمد ما سيلي على إيمان الكنيسة في أنّ الله زرع بذار الحقيقة في الفلسفات وفي قلب كلّ من كان يبحث عنه، ولم ينبت البزر ويعطي ثمرًا إلاّ في المسيحيّة (ملاحظة المترجم).

٤- متّى ١٠: ١٠ علّم يسوع أنّ على التلاميذ أن يذهبوا بدون حقيبة أو عصا، وربّما أراد من هذا أن يتميّز عن الكلبيّين لكي لا يُعتبر منهم.

أمّا ما يخصّ العلاقة بالقريب، فإنّ شعاره "القاعدة الذهبيّة": "إفعل في الناس ما تريد أن يفعل الناس بك". هذه القاعدة منتشرة في العالم أجمع، ويدافع عنها حكماء كثيرون[٦].

وفي حال ظلم الآخر يقول يسوع: "من لطمك على خدك الأيمن، فاعرض له الآخر[٧]". إنّه إذًا من رأي سقراط: علينا أن نخضع للظلم بدل أن نرتكبه[٨].

إضافة إلى ذلك، يعلن أنّ على الإنسان أن يحبّ عدوّه، لأنّ الله يشرق شمسه على الأبرار والأشرار. وقد كتب سينيك شيئًا مشابهًا: إذا أردت التشبّه بالله، افعل خيرًا لا يمكن تعويضه لك، لأنّ السماء تشرق على اللصوص أيضًا، والبحر مفتوح للقراصنة[٩].

إذا رأينا أحدًا يفعل السوء، علينا ألاّ نسرع في الحكم عليه. ليس أحد كاملاً. كلّ شخص معرّض إلى خطر إيجاد القشّة في عين أخيه ونسيان الخشبة التي في عينه[١٠].

٥- راجع متّى ١٢: ٢٨-٣٤ يتّفق الكتبة اليهود مع يسوع في هذه العقيدة وهو ما تسوده هذه الرواية. ونجد إيجازات مشابهة في وصيّة عيساشار (٥، ٢) مثلاً: "أحبّوا الربّ والقريب". وتبيّن الأعمال الخالدة لكزينوفون (IV ٨، ١١) أنّ عبادة الله والعدل تجاه القريب هما الفضيلتان الأساسيّتانّ (راجع فيلون Spec. Leg. II 6, 3).

٦- الـ"قاعدة الذهبيّة" كانت منتشرة على نحو مثل في الزمن القديم. ونجدها قبل أيّام يسوع في الكتابات اليهوديّة. راجع سفر طوبيّا ٤: ١٥، رسالة إلى أرسطوبول ٢٠٧.

٧- متّى ٥: ٣٩

٨- في ما يخصّ تعاليم سقراط، راجع أفلاطون (Croton 49). وعن سقراط، تُروى الطرفة التالية: "ذات يوم، داس أرسطوقراط على قدمه، فلم يردّ سقراط له بالمثل، ولم يشتمه بطريقة غير أنّه قال للمارّين: "هذا الرجل مصاب بمرض البغال" (تميستوقلوس، في الفضيلة ٤٦). ويعلّم أبيكتاتوس أنّ على الفيلسوف الكلبيّ الجوّال "أن يُداس كالكلب، وأنّه، حتّى تحت أقدام الذين يدوسونه، يظلّ يحبّهم بطريقة أبويّة وأخويّة" (أبيكتاتوس، حوارات، III ٢٢، ٥٤).

٩- يعبّر سينيك (Beneficiis IV 26, 1) عن هذه الفكرة بطريقة النفي: لا يستطيع الله منح بعض هباته لمن يستحقّونها دون أن يفعل الأمر نفسه تلقائيًّا مع من لا يستحقّون(Beneficiis IV 28, 1).

١٠- متّى ٧: ٣-٥

ما يخصّ الملكيّة، فهو لا يعلّم أنّه علينا أن نكون مستعدّين للانفصال عن المادّة خارجيًّا وحسب، بل أن نكون متجرّدين داخليًّا أيضًا بتسامينا عن الهموم التي تقيّدنا[11]. إنّ عقيدته تذكّر بعقيدة ديوجينوس في برميله الّذي احتقر كلّ ملكيّة.

وعن السلوك الشرس، يعلّم أنّ القاتل ليس المذنب الوحيد، بل حتّى من يحقد على أخيه. وهذا يذكّر تعليم الفيلسوف كليانث: مَن نوى السرقة أو القتل فهو مجرم. لأنّ الشرّ يبدأ بالنيّة[12].

ويقول في الزنى إنّ عدم الوفاء لا يبدأ حين يضاجع واحد امرأة أخرى، بل حين يحلم هذا الرجل بفعل ذلك. وهذا يذكّر أيضًا بكليانث: من ينساق وراء شهوة، يرتكب الإثم ما إن تسنح له الفرصة[13].

أمّا عن الصدق، فهو يعلن أنّ على كلّ كلمة من كلامنا أن تكون صادقة كما لو أقسمنا على ذلك. إنّه يرفض القَسَم. يقول إبيكتاتوس الشيء نفسه: على الإنسان أن يتفادى القَسَمَ قدر المستطاع[14].

في الطهارة يعلن نهاية التمييز بين الطاهر والنجس. السلوك الداخلي فقط يجعل الأشياء طاهرة أو نجسة[15]. يمكننا العودة في موضوع هذه الأحكام إلى فوقيليدس: لا يجعل الوضوء الجسد طاهرًا وإنّما النفس[16].

١١- متّى ٦: ٢٥ وما يليها

١٢- راجع متّى ٥: ٢١ وما يليها. يقول كليانث: مَن يتسلّح للقتل وينوي السرقة والقتل، فهو مجرم حتّى قبل أن يلطّخ يديه بالدماء. فالضلال يتمّ ويظهر في الفعل، لكنّه لا يبدأ عنده (ذكرها M. Polhenz, Stoa und , 1950, p. 128).

١٣- متّى ٥: ٢٧ وما يليها. كليانث، أجزاء، رقم ٥٧٣.

١٤- أبيكتاتوس، دليل الأخلاق، ٣٣، ٥.

١٥- مرقس ٧: ١٥

١٦- في القرن الأوّل قبل الميلاد، عاش شاعر يهوديّ يونانيّ اسمه فوقوليدس. وكان ينظم أمثالاً. في البيت رقم ٢٢٨ يقول: "لا تتحقّق الطهارة من الوضوء وإنّما من النفس وحدها".

ويعلّم في شأن الصلاة أنّه من العبث أن تكثر الكلمات. فالله يعلم مسبقًا ما يحتاج إليه البشر[17].

وعن الصدقة، يعلّم العطاء، لا لنيل تقدير الناس، وإنّما بطريقة لا تعلم فيها اليد اليسرى ما فعلته اليد اليمنى[18].

وفي قواعد الصوم، يقول علينا ألاّ نحترمها لنتباهى أمام الناس، بل في الخفية حيث لا يرانا إلاّ الله[19].

أمّا السبت، فعقيدته هي أنّه يمكننا مخالفته من أجل مساعدة الآخرين أو لضرورة ما[20].

حتّى الآن، يبدو كلّ هذا مسالمًا. لا شكّ أنّ الرومانيّين سيجدون أشياء ممتعة، مثل موقفه في عدم التشدّد في حفظ السبت. ونجد وجهات نظر مشابهة عند اليونانيّين أو الرومانيّين في نقاط أخرى كثيرة. لقد أخفيتُ يسوع جيّدًا. زيادة عن اللزوم. الصورة التي منحته إيّاها كثيرة الصفاء في النيّة. سيسألني متيليوس لمَ هذه الثورة على فيلسوف جوّال من هذا النوع، وعلامَ كلّ هذه الخلافات في شأنه؟ عليّ أن أنقل بعض الأمور المثيرة في وعظه لأبدو أهلاً للثقة. لكنّي أدوس أرضًا صعبة بفعلي هذا. فدعوة يسوع إلى تغيير السلوك والعقليّة تغييرًا جذريًّا أمر مثير بسبب التحوّل الجذريّ الناتج عن ملكوت الله. كيف أفهّم هذا لرومانيّ هدف التاريخ العالميّ بالنسبة إليه هو المملكة الرومانيّة لا مملكة الله؟ فحيث يسود الرومانيّون تسود الآلهة أيضًا. ولا يمكنه أن يفهم البتّة فكرة قدوم ملكوت إله أجنبيّ يجعل جميع الممالك الأخرى باطلة. إنّ هذا عصيان وثورة. فضّلتُ إذًا أن أظلّ بالعموميّات في هذا الموضوع، وعدتُ إلى الكتابة:

١٧- راجع متّى ٦: ٥ وما يليها.

١٨- راجع متّى ٦: ١ وما يليها

١٩- راجع متّى ٦: ١٦ وما يليها.

٢٠- راجع مرقس ٣: ١ وما يليها. لوقا ١٣: ١٠ وما يليها. ١٤: ١ وما يليها.

يعلّم يسوع وصاياه ليُخضع الناس لملكوت الله. وهو يعني أنّ ملكوت الله حاضر سرًّا، وينتشر في قلوب البشر، ويؤدّي إلى الحكم على الآخرين بطريقة تختلف تمامًا عن الطريقة التي نحكم بها تلقائيًّا.

يقول الرأيّ العام إنّ قيمة الأطفال أدنى من قيمة البالغين. لكنّ يسوع يقول: "دعوا الأطفال يأتون إليّ فإنّ لهم ملكوت الله". وبحسب رأيه، لا يدخل البالغون ملكوت الله إلاّ إذا صاروا كالأطفال[٢١].

يقول الرأيّ العام إنّ علينا احتقار جباة الضرائب والزواني. لكنّ يسوع يقول إنّ جباة الضرائب والزواني سيدخلون ملكوت الله قبل الآخرين[٢٢].

يقول الرأيّ العام إنّ الغرباء وغير المؤمنين أشرار منبوذون من ملكوت الله. لكنّ يسوع يقول إنّ كثيرًا من الغرباء سيجلسون إلى مائدة الملكوت مع إبراهيم وإسحق ويعقوب[٢٣].

يحتقر الرأي العام أصحاب العجز الجنسيّ والمخصيّين. لكنّ يسوع يقول إنّ هناك مخصيّين منذ الولادة، وآخرين من فعل البشر، وآخرين يعتبرون أنفسهم مخصيّين من أجل ملكوت الله. وهو لايحتقرهم[٢٤].

يقول الرأيّ العام إنّ الناس الذين لا يملكون وسيلة يفرضون بها أنفسهم لاقيمة لهم لأنّه ليس لديهم نفوذ. لكنّ يسوع يقول: "طوبى للودعاء فإنّهم يرثون الأرض[٢٥]".

أظنّ أنّي نقلتُ ما يكفي من الكلام المثير لإدراك الهيجان الذي يسبّبه يسوع، أرجو ألاّ يكون فيه ما يصعب على الرومانيّين سماعه. ولكي أؤكّد طبيعة يسوع المسالمة، أضفتُ في النهاية:

٢١- راجع مرقس ١٠: ١٣-١٦ ومتّى ١٨: ٣

٢٢- راجع متّى ٢١: ٣١

٢٣راجع متّى ٨: ١١- وما يليها

٢٤- راجع متّى ١٩: ١٠-١٢

٢٥- راجع متى ٥: ٥

إنّ تصريحات كثيرة ليسوع تذكّر بفلاسفة معروفين. وهو لا يشكّل خطرًا على الدولة كما كان الأمر مع الفلاسفة اليونانيّين والرومانيّين.

أعدتُ قراءة تقريري مرّة أخرى. أهو مناسب؟ بدون أيّ شك. يعتمد كلّ ما كتبته على المعلومات التي حصلتُ عليها عن يسوع. هل يبدو نصّي مسالمًا بما فيه الكفاية لكي لا يثير الشكوك حوله؟ لو فرضنا أنّ واحدًا أراد الشكوى على يسوع أمام الرومانيّين، لتمكّن من ذلك بسهولة. ما عليه إلاّ أن ينقل كلّ ما صمتّ عنه.

لم أقل شيئًا عن تصريحاته السلبيّة في شأن الأسرة، وكذلك عدم اكتراثه لواجب دفن الوالد بتعابير نحو: "دعوا الموتى يدفنون موتاهم"[٢٦]. لم أجد في جميع أبحاثي عن الفلاسفة ما يشبه هذا الكلام القاسي.

لم أقل شيئًا عن انتقاده لسلطة الدولة على أنّها استغلال وقهر: "تعلمون أنّ الذين يُعدّون رؤساء الأمم يسودونها، وأنّ أكابرها يتسلّطون عليها. فليس الأمر فيكم كذلك". ألا يدلّ هذا الإعلان على فكرٍ خاصٍ به لم أجد لـه في الأدب مثيلا؟ لم يقُل أحدٌ يومًا: مَن أراد أن يكون كبيرًا فيكم فليكن لكم خادمًا[٢٧]. وما من نصّ شكّك بعمق في أساسات المجتمع مثله.

لم أقل شيئًا عن انتقادات يسوع لمؤسّساتنا الدينيّة. لقد أعلن أنّ الهيكل سيزول قريبًا، وسيبني الله آخر مكانه[٢٨]. لايمكننا أن نقول بطريقة أوضح إنّ الله ضدّ الكهنة وخدّام الهيكل. هذه المهاجمة تشكّك في أهمّ مؤسّسة في ديننا.

ألا يكفي كلّ هذا لإلقاء القبض عليه؟ فهو لا يتحلّى بأيّ من خصال الفيلسوف الجوّال المسالم، إنّه لا يدعو مباشرة إلى أيّة ثورة. لكنّه نبيّ مشبع بفكرة أنّ الله سيأتي قريبًا ليُحدِث انتفاضة على سادة هذا العالم. ألا يكفي ذلك لتبرير سجنه والحكم عليه بالموت؟

٢٦- راجع متّى ٨: ٢١-٢٢

٢٧- راجع مرقس ١٠: ٤٢-٤٣

٢٨- راجع مرقس ١٤: ٥٨

لاشكّ أنّ يسوع في خطر. ولم أشعر إلاّ بشدّة حاجته إلى الحماية. فهو يرفض العنف، ولا يدعو قطّ في عظاته إلى الحقد على الرومانيّين. والغيّورون يبتعدون عنه. لابدّ أنّه ثائر، لكنّه يثور على طريقة حنينة لا برأبًا. إنّه ينشر بالطبع كلامًا قاسيًا، لكنّ قصصه هي أكثر تأثيرًا: حكايات قصيرة تتميّز بالطيبة والإنسانيّة. يمكنني أن أكتب شيئًا آخر لمتيليوس. ألا يهتمّ بالكتب والآداب؟ جلستُ ثانية وملأتُ ورقة بردي أخرى بعنوان:

يسوع راوٍ

يسوع راوٍ ريفيّ أثرى الأدب اليهوديّ بحكايات قصيرة رائعة. لا تفترض قصصه عند مستمعيه أيّة معرفة للمدينة. فهو يتكلّم على البذار والحصاد، على الناس الّذين يبحثون فيجدون، على الأب والابن، السيّد والخادم، الضيوف والمدعوّين. ويستنبط من الحياة العاديّة أشياء رائعة: إنّ الله غير ما نتصوّره. وقصصه هي مقارنات لتوضيح العلاقة بين الله والإنسان. إنّ تقديم عقيدته بواسطة القصص له علاقة وثيقة مع قناعة شعبنا بأنّه لا يمكننا أن نصنع لله صورة، ولا يمكن الكلام عليه إلاّ بتشابيه. في هذا أيضًا عدم تناسب، إذ ما من شخص أو كائن يشبهه. المغامرة وحدها تكشف شيئًا منه، والقصص وحدها تبرزه.

ويرتبط هذا أيضًا بقناعة ثانية. نحن نؤمن بأنّنا لا نستطيع أن نجد الله إلاّ إذا غيّرنا عقليّتنا. فالأمثال عن الله قصص يتغيّر فيها شيء، أو، بمعنى أدقّ، الأمثال قصص يرتبط فيها السامع ارتباطًا يجعله يتغيّر. عندئذ فقط يستطيع أن يكتشف شيئًا من الله. تروي شعوب أخرى أساطير تُدخلنا في كون ثانٍ لتتكلّم على آلهتها. أمّا نحن فنروي تاريخنا، ونتكلّم على ما يجري في هذا العالم. يتكلّم يسوع أيضًا على الحياة اليوميّة للإنسان. وهو يريد أن يقول إنّ الله قريب في هذا الوجود العاديّ، ويسعى إلى فتح عيوننا على هذا الوجود.

إذا أردنا تصنيف يسوع في التاريخ العام للأدب، علينا أن نفتّش عند القُصّاص. فهم أيضًا يروون حكايات قصيرة يفهمها جميع الناس. كما أنّ

رواياتهم تخيليّة. في بعض الأحيان، يعيد يسوع صياغة حكايات مرويّة قبلاً. أعطي على ذلك مثل الشجرة غير المثمرة:

أنّب أبٌ ابنه العاق وروى له القصّة التالية:

"يا بنيّ، أنت كالشجرة التي لا تحمل ثمرًا مع أنّها على حافّة الماء. واضطُرّ صاحبها إلى قطعها فقالت له: "اغرسني في مكان آخر. فإذا لم آتِ بثمر اقطعني". فأجابها صاحبها: "حين كنتِ على حافّة الماء لم تعطِ ثمرًا. كيف ستعطين ثمرًا حين تصيري في مكان آخر[٢٩]؟".

وتصير القصّة عند يسوع:

"كان لرجل تينة مغروسة في كرمه، فجاء يطلب ثمرًا عليها فلم يجد. فقال للكرّام: "إنّي آتي منذ ثلاث سنوات إلى التينة هذه أطلب ثمرًا عليها فلا أجد، فاقطعها. لماذا تُعطّل الأرض؟" فأجابه: "سيّدي، دعها هذه السنة أيضًا، حتّى أقلّب الأرض من حولها وألقي سمادًا. فلربّما تثمر في العام المقبل وإلاّ فتقطعها"[٣٠].

في أمثال يسوع، لا تتكلّم النباتات والحيوانات بل الإنسان فقط. وهذا يخالف أسلوب الحكايات. كما أنّ هناك اختلافًا آخر: تسعى روايات كثيرة إلى مصالحة الإنسان مع قساوة الوجود. فهي تقول: إن لم نتأقلم نهلك ونتآكل أو نُخدَع. أمّا أمثال يسوع، ففيها فرصة أخرى تُقدّم للبشر مع أنّه حُكِمَ عليهم بالموت. ففي مرّة أخرى، تناول يسوع موضوع الأب وولديه وصاغ سيرة ثانية. هذه أوّلاً رواية فيلسوفنا فيلون:

"كان لوالد ابنان، واحد صالح والآخر شرّير. وأراد الأب أن يبارك الشرّير، لا لكونه مفضّلاً، وإنّما لعلمه بأنّ الصالح يستحقّ البركة لذاته. أمّا

٢٩- نجد هذه الحكاية في ما يُدعى "رواية أشيكتار". وهي منتشرة بأساليب متعدّدة قبل العصر المسيحيّ.

٣٠- راجع لوقا ١٣: ٦-٩

الشرّير فلا أمل له في النجاح بحياته إلاّ ببركة الوالد. فبدونها لا يكون إلاّ أشقى الناس[٣١]".

من الدارج أن نجد روايات أخرى في هذا الموضوع. يفضّل الأب دائمًا ابنه العاق على الصالح. واستنبط يسوع من هذه المادّة واحدة من أجمل حكاياته:

" كان لرجل ابنان. فقال أصغرهما لأبيه: "يا أبتِ أعطني النصيب الذي يعود عليّ من المال". فقسَمَ ماله بينهما. وبعد بضعة أيّام جمع الابن الأصغر كلّ شيء له، وسافر إلى بلد بعيد، فبدّد ماله هناك في عيشة إسراف. فلمّا أنفق كلّ شيء، أصابت ذلك البلد مجاعة شديدة، فأخذ يشكو العوز. ثمّ ذهب والتحق برجل من أهل ذلك البلد، فأرسله إلى حقوله يرعى الخنازير. وكان يشتهي أن يملأ بطنه من الخرنوب الذي كانت الخنازير تأكله، فلا يُعطيه أحد. فرجع إلى نفسه وقال: "كم أجيرٍ لأبي يفضل عنه الخبز وأنا أهلك هنا جوعًا! أقوم وأمضي إلى أبي وأقول له: يا أبتِ إنّي خطئتُ إلى السماء وإليك. ولستُ أهلاً بعد ذلك لأن أدعى لك ابنًا، فاجعلني كأحد أجرائك".

فقام ومضى إلى أبيه. وكان لم يزل بعيدًا إذ رآه أبوه، فأشفق عليه وأسرعَ إليه، وألقى بنفسه على عنقه وقبّله طويلاً. فقال له الابن: "يا أبتِ إنّي خطئتُ إلى السماء وإليك. ولستُ أهلاً بعد ذلك لأن أدعى لك ابنًا". فقال الأب لعبيده: "أسرعوا فأتوا بأفخر حلّة وألبسوه، واجعلوا في إصبعه خاتمًا وفي رجليه حذاءً، وأتوا بالعجل المسمّن واذبحوه فنأكل ونتنعّم، لأنّ ابني هذا كان ميتًا فعاش، وكان ضالاً فوجِد". فأخذوا يتنعّمون.

وكان ابنه الأكبر في الحقل، فلمّا رجع واقترب من الدار، سمع غناءً ورقصًا. فدعا أحد الخدم واستخبر ما عسى أن يكون ذلك. فقال له: "قَدِمَ أخوك فذبح أبوك العجل المسمّن لأنّه لقيه سالمًا". فغضب وأبى أن يدخل. وخرج إليه أبوه يسأله أن يدخل، فأجاب أباه: "ها إنّي أخدمك منذ سنين طوال، وما عصيتُ

٣١- فيلون Quest. in Gn. IV, 98.

لك أمرًا قطّ، فما أعطيتني جديًا واحدًا لأتنعّم به مع أصدقائي. ولمّا رجع ابنك هذا الذي أكل مالك مع البغايا، ذبحت له العجل المسمّن". فقال له: "يا بُنَيّ، أنت معي دائمًا أبدًا، وجميع ما هو لي فهو لك. ولكن قد وجب أن نتنعّم ونفرح، لأنّ أخاك هذا كان ميتًا فعاش، وكان ضالاً فوجِد"٣٢".

روى يسوع قصصًا كثيرة من هذا النوع عن الله وعن الإنسان. وهي تعلّم أنّ الله يختلف تمامًا عمّا نتخيّله، وأنّ على الإنسان أن يتصرّف بطريقة مختلفة حين يريد السلوك بتوافق معه. من هذه الأمثال نستنتج أنّ يسوع راوٍ ينادي بالحبّ والتسامح. وأنّ أمثاله وحِكَمه ستُقرأ وتنال الإعجاب زمنًا طويلاً.

كلّ ما كتبته عن يسوع كان صحيحًا. إنّه فيلسوف جوّال وراوٍ. لكنّ الأمر كان واضحًا لي: إنّه أكثر من ذلك بكثير. إنّه نبيّ. يصعب شرح هذا للأجانب. فهم يتصوّرون أنّ النبيّ إنسان يستطيع التنبّؤ عن المستقبل كمنجّميّ الشعوب الأخرى. لكنّ أنبياءنا مختلفون. أيّ بلد يهدّد فيه نبيّ شعبه بالزوال؟ أيّة دولة تؤمن بإله لا شريك له؟ إنّ صفة أنبيائنا الخاصّة مرتبطة بوحدانيّة إلهنا. هذا ما كان عليّ تكراره باستمرار. ربّما كان في ذلك مفتاحًا لفهم يسوع. فإلهنا هو الوحيد الذي يطلب منّا أن نتخلّى عن الآلهة الأخرى إلى جانب عبادتنا له. وهو الوحيد الذي يطلب منّا أن نعترف به وأن نغيّر سلوكنا جذريًّا في الآن نفسه.

يفرض الأقوياء أنفسهم في جميع أنحاء العالم. أمّا إلهنا فقد اختار الضعفاء: ساند عبيدًا هربوا من مصر وجعلهم شعبه. عاضد الأسرى المنفيّين إلى بابل. الالتفات إليه يعني الالتفات إلى الفقراء والضعفاء. لهذا يشعر الأشدّاء والسادة بأنّه خطر فيحقدون علينا. أليس على متيليوس أن يرفض يسوع حتّى وإن نجحتُ في إفهامه بأنّه نبيّ هذا الإله؟ لا بدّ أنّه عرف من كتبنا أنّ غير المنجّمين تدخّلوا دائمًا بالسياسة. ألن ينتبهني إلى أنّه ما دام يسوع من هؤلاء فهو خطير سياسيًّا؟ ما الذي فعله الأنبياء؟ حثّوا شعبنا على الاعتراف بإله واحد

٣٢- لوقا ١٥: ١١-٣٢

وعلى تغيير طريقة عيشنا. فعلوا ذلك كما يربى الأطفال: بالتهديد والعقاب والوعود. وكانوا في هذا قساة عديمي الرحمة.

لقد هدد يسوع أيضا بدينونة هذا العالم. سيأتي ابن إنسان عجيب يحشر جميع البشر في محكمته. وهذه المحاكمة ستتم فجأة وبطريقة غير منتظرة لا للأشرار والأثمة فقط، بل لمن يعيشون حياة طبيعية أيضا:

"وكما حدث في أيام نوح، كذلك يحدث في أيام ابن الإنسان: كان الناس يأكلون ويشربون، والرجال يتزوجون والنساء يزوجن، إلى يوم دخل نوح الفلك، فجاء الطوفان وأهلكهم أجمعين. وكما حدث في أيام لوط، إذ كانوا يأكلون ويشربون، ويشترون ويبيعون، ويغرسون ويبنون، ولكن يوم خرج لوط من سدوم، أمطر الله نارا وكبريتا فأهلكهم أجمعين[٣٣]".

لن تمس هذه الدينونة بعض الجماعات أو بعض الشعوب بل العالم بأسره. وهي ستفصل أناسا مرتبطين ارتباطا شديدا مع بعضهم بعضا في الحياة:

"سيكون في تلك الليلة اثنان على سرير واحد، فيقبض أحدهما ويترك الآخر. وتكون امرأتان تطحنان معا، فتقبض إحداهما وتترك الأخرى[٣٤]".

لابد لهذه الدينونة أن تثير قلقا مريبا. ولا بد لكل واحد من أن يتساءل: ما العمل؟ كيف نواجهها؟ بحسب يسوع، إنها لا تعتمد إلا على عامل واحد وهو مساعدة القريب أو عدمها. في آخر الأزمنة، سيحشر ابن الإنسان جميع الشعوب. ولن يسألهم إلى أي دين انتموا أو إلى أي فلسفة، وما كان لون بشرتهم. سيقول للواقفين أمامه:

"تعالوا، يا من باركهم أبي، رثوا الملكوت، لأني جعت فأطعمتموني، وعطشت فسقيتموني، وكنت غريبا فآويتموني، وعريانا فكسوتموني، ومريضا فعدتموني، وسجينا فجئتم إلي[٣٥]".

٣٣- لوقا ١٧: ٢٦-٣٠ "ابن الإنسان" شخصية سماوية ستدمر إمبراطوريات الوحش بحسب سفر دانيال ٧

٣٤- لوقا ١٧: ٣٤-٣٥

بدون أيّ شكّ، يسوع يهدّد مثل سائر الأنبياء. لكنّه يفعل ذلــــك بطريقــة خاصّة. فهو لا يتكلّم على دينونة الله بل دينونة "ابن الإنسان" الغامض. ولا أحد يثق أمامه من أنّه بارّ. لكنّ للجميع فرصة. لأنّ الحاكم لن يحكم إلاّ على أساس واحد وهو مساعدة الآخرين، لا لأجل الثواب في يـــوم الدينونـــة، ولا حتّـــى لمساعدة "ابن الإنسان" الغامض هذا، وإنّما المساعدة من أجل المساعدة فقـــط. عندئذ يجيب الأبرار دهشين:

"يا رب، متى رأيناك جائعًا فأطعمناك أو عطشانًا فسقيناك؟ ومتى رأينـــاك غريبًا فآويناك أو عريانًا فكسوناك؟ ومتى رأيناك مريضًا أو سجينًا فجئنا إليك؟" فيجيبهم الملك: "الحقّ أقول لكم: كلّما صنعتم شيئًا من ذلك لواحد من إخوتـــي هؤلاء الصغار، فلي قد صنعتموه".

أيمكننا إفهام هذا للرومانيّين؟ أيمكننا أن نوضح لهم ما لا يفهمه كثير مــن شعبنا؟ ألن يشعر الرومانيّون باضطراب شديد حين يسمعون بأنّ "ابن إنســـان" سيأتي ليدين جميع الشعوب ويدينهم أيضًا؟ "ابن إنسان" سيحاسب على جميـــع الذنوب وجميع الإهانات وجميع أنواع القهر التي تعرّض إليها الآخرون كما لو تعرّض إليها هو نفسه؟ من الواضح أنّه يجب إخفاء عظة يسوع في الدينونــــة عن الرومانيّين.

وماذا في شأن الوعود؟ لقد أعلن يسوع، مثل سائر الأنبياء، انقلابًـــا فـــي الأوضاع فأثار الرجاء. من قبلُ، رأى كثيرون في الظلم والشقاء برهانًا علـــى أنّ الله تخلّى عن سيادة العالم للشيطان. فالشرّير يملك في كلّ مكان. نجده قابعًا في الممسوسين العاجزين عن العيش وفقًا لكرامتهم الإنسانيّة. ويختفـــي وراء طغيان الجنود الأعداء، وهو خلف كلّ ما يؤذي الإنسان. لكنّ يســـوع يجعــل رجاء الانتصار على سلطان الشرّير يلمع. وهو يقول:

٣٥- السرد مأخوذ من متّى ٢٥: ٣١-٤٦

"كنتُ أرى الشيطان يسقط من السماء كالبرق. ها قد أوليتكم سلطانًا تدوسون به الحيّات والعقارب وكلّ قوّة للعدو، ولن يضرّكم شيء[٣٦]".

كانت غالبيّة الناس تبدو مشدوهة بالشرّ. ألا تملأ الحروب والمعارك العالم؟ ألا تثبت هذه الحروب انتصار الشر؟ لكنّ يسوع أوّل الأمور بطريقة أخرى: العالم هو حقل الصراع بين الشر والخير. وفي هذا علامة على أنّ الشرّ سيندحر في آخر الأمر:

"إذا انقسمت مملكة على نفسها فإنّ تلك المملكة لا تثبت. وإذا انقسم بيت على نفسه فإنّ ذلك البيت لا يثبت. وإذا ثار الشيطان على نفسه فانقسم لا يثبت، بل ينتهي أمره[٣٧]".

سيأتي ملكوت الله ليحلّ مكان ملكوت الشرّير. وهو يتحقّق حيث يفقد الشرّ سيطرته على الإنسان. فحيث تُطرد الشياطين، يُشفى المرضى ويشبع الجياع ويتعزّى اليائسون. إنّه يبدأ عندما يترك الإنسان كلّ شيء ليلتزم بالتغيير العظيم:

"مَثَلُ ملكوت السموات كمثل كنز دُفِن في حقل وجده رجل فأعاد دفنه، ثمّ مضى لشدّة فرحه فباع جميع ما يملك واشترى ذلك الحقل[٣٨]".

إنّ يسوع أكثر من فيلسوف جوّال وراو. إنّه نبيّ. نبيّ خاصّ جدًّا. فغالبيّة الأنبياء يشهرون التهديد بالدينونة الإلهيّة معلّلين بأنّ الشرائع الموضوعة قد خولفت. أمّا عنده فالأمر يختلف. سيتسلّم زمام السلطة من تعتبرهم الشرائع الموضوعة قليليّ الشأن. الأطفال والفقراء والغرباء والودعاء والخصيان. منذ الآن، لن يُقبل إلاّ أساس واحد للحكم: السلوك تجاه القريب وتجاه كلّ من يحتاج إلى المساعدة. كان يسوع نبيًّا مميّزًا حقًّا. أتُراه أكثر من نبيّ؟ ألم يقارن نفسه بيونان وبسليمان الحكيم قائلاً: "ههنا أعظم من يونان، ههنا أعظم من

٣٦- لوقا ١٠: ١٨-١٩

٣٧- مرقس ٣: ٢٤-٢٦

٣٨- متّى ١٣: ٤٤-٤٦

سليمان[٣٩]؟ ألم يعلن من يعيشون الآن سعداء لأنّهم رأوا ما لم يـرَه الأنبياء والملوك[٤٠]؟ ألم يصبو هؤلاء إلى ما هو أعظم منهم؟ إنّ تصريحه صحيح إذًا: كان مفعول الشريعة والأنبياء ساريًا حتّى أيّام يوحنّا. لكنّ ملكوت الله سيُمتلك منذ الآن امتلاكًا[٤١]. ألا يبدأ معه أمر جديد يفوق الأنبياء أنفسهم؟

يهمس الشعب بأنّه المسيح. أهذا مستحيل؟ لا شيء يشير إلى أنّه يريد طرد الرومانيّين بالقوّة. ألا يصبو مع ذلك إلى السلطة؟ لكنّ هذا لم يظهر إلاّ قليلاً. فقد وعد تلاميذه بأنّهم سيجلسون على اثني عشر عرشًا وأنّهم سيحكمون إسرائيل معه[٤٢]. سمعتُ أيضًا أقاويل عن خلافات حصلت بين التلاميذ لمعرفة من سيشغل أماكن الشرف على يمينه وعلى يساره[٤٣]. لكنّ يسوع أدان هذا التفكير بحزم. ففي الملكوت الجديد لن تكون هناك مراتب. من أراد أن يكون الأوّل فليصر للجميع خادمًا. كما سيتمّ إصلاح للشعب وستتّحد أسباط إسرائيل الاثني عشر، وتعود من أطراف العالم الأربعة مع الوثنيّين إلى فلسطين. سيكون هناك هيكل جديد في مركز الإمبراطوريّة، ووليمة عظيمة. سيصير الفقراء أغنياء وسيشبع الجياع وسيطير الحزانى من الفرح. هذه قصص من التي تتناقلها الألسن. لكنّ الأمر يظلّ لغزًا. الشيء الوحيد الواضح: سيقوم يسوع وتلاميذه بدور أساسيّ يوم الانقلاب الكبير. ربّما يصير هو نفسه ابن الإنسان الذي يُحدَّث عنه هنا وهناك. أمّا الآن، فهو يجوب البلاد مع جماعته على طريقة مجموعة تنتمي إلى عالم آخر. لقد نعت تلاميذه بقطّاع طرق أتوا ليختطفوا ملكوت الله عنوة[٤٤]. ما من عجب إذًا أن ينسب الناس إليه دور المسيح.

٣٩- متّى ١٢: ٤١-٤٢

٤٠- راجع لوقا ١٠: ٢٣-٢٤

٤١- راجع متّى ١١: ١٢-١٣ ولوقا ١٦: ١٦

٤٢- راجع متّى ١٩: ٢٨ ولوقا ٢٢: ٢٩ وما يليها. لا يمكننا اعتبار العبارة الموجّهة إلى الاثني عشر قد كُتِبَت بعد الفصح. فبعد خيانة يهوذا، يصعب تخيّل اختراع وعدٍ يمنحه، هو أيضًا، سلطة على إسرائيل، لكونه من الاثنيّ عشر.

٤٣- مرقس ١٠: ٣٥-٤٥

٤٤-متّى ١١: ١٢

ومع ذلك، لم أشأ أن أبيّنه للرومانيّين إلاّ على أنّه فيلسوف جوّال وراوٍ. أردتُ أن أحجب صورة النبيّ فيه، ناهيك عن شخصيّته التي صارت محطّ انتظار الناس ورجائهم. ولكن ماذا سيحدث لو ظهر فجأة على أنّه نبيّ؟ لو اكتشفه الرومانيّون بطريقة أخرى غير التي قدّمته لهم بها؟ ما هو الدور الذي يقوم به فعلاً؟ إنّ هذا للغز. آه لو عرفت على الأقلّ دوره في حياتي! فمنذ زمن بعيد، كفّ عن أن يكون بالنسبة إليّ مجرّد شخص أحقّق في أمره. لو لم يكن الأمر كذلك، لما شعرت بالضيق تجاه فكرة أنّه يمكن للمعلومات التي أجمعها عنه أن توقعه في أيدي الرومانيّين، تمامًا كما أكره فكرة أنّه يمكن لنشاطي أن يعرّض برأبّا للخطر. فبخيانتي وتسليمي لواحد من هذين أخون جزءًا من ذاتي وأسلّمه.

ما الذي أبحث عنه بالضبط عند يسوع؟ في أثناء قراءتي للأدب اليونانيّ والرومانيّ، فكّرتُ في أنّي ربّما أفتّش عن عقيدة تصلح لجميع البشر من يهود ووثنيّين. ألا يعلن يسوع ذلك؟ ألا يفهم اليونانيّون ما يعلنه بطريقة الفيلسوف الجوّال؟ ألا يفهم الرومانيّون ما يقصّه على طريقة الراوي؟ حين يجعل الوصايا التي تفصلنا عن سائر الشعوب والسبت وفروض الطهارة مسألة نسبيّة، ربّما كانت لديه غاية من ذلك؟ وإذا شدّد على بعض الشرائع التي تقرّبنا من الأمم الأخرى كتحريم القتل وعدم الوفاء والقسَم؟ جميع الناس يفهمون هذا النبيّ مع أنّه متأصّل في شعبنا. كلّ ما يقوله ويفعله يتمّ باسم الله الذي اختار الضعفاء والهامشيّين وهو أقوى من الفراعنة والملوك.

أيستطيع يسوع أن يحلّ مشاكلي؟ إنّها تدور حول الأحكام المسبقة والتوتّرات بين اليهود والوثنيّين. ألا أجد نفسي على أرض محايدة، في مكان ما بين بيلاطس وبرأبّا، بين اليهود والوثنيّين؟ كان عليّ في هذه المنطقة الحدوديّة أن أخنع باتضاع لنير الرومانيّين. ألا أجد نفسي في المنطقة نفسها مع يسوع: رجل حرّ يخلص لنفسه ولشعبه في آن واحد؟ ألا يعرّض نفسه لخطر ألاّ ينجذب إليه إلاّ مَن يعتبره فيلسوفًا أو راويًا؟ أناس لا ينتبهون إلاّ لهذا الأمر

ويستطيعون نقل خبره إلى خارج حدود شعبنا؟ أناس يستخدمونه ضدّ أمّتنا؟ مَن يرفض أن يرى فيه نبيّ شعب مسحوق؟

لحسن الحظّ، يجب عليّ ألاّ أجيب على جميع هذه الأسئلة دفعة واحـــدة.. الآن، ما عليّ إلاّ أن أرسل للرومانيّين تقريرًا واقعيًّا مسالمًا عنه. وإذ وعيـــتُ عدم وجوب قول الحقيقة بكاملها، أضفتُ إلى نصّي بطاقة لمتيليوس شرحتُ له فيها عرضًا أنّ هذا ليس إلاّ تقرير أوّليّ، ويمكننا قول أشياء أخرى في يسـوع. وضعتُ ختمًا على التقرير والرسالة. كان باروك قد عبّر لي عن أمنيتـه فـــي الذهاب إلى أورشليم في عيد الفصح. فوكّلته بنقل الرسالة إلى المُرسل إليـــه. سيظنّ أنّها مسألة مراسلة تجاريّة أو أنّي أعقد صفقة الحبوب المقبلة للجيـــش الرومانيّ. وطلب منّي باروك إجازة مطوّلة. ففي الأسابيع التي درستُ فيـــها ملتهمًا الكتب كان يعمل بدلاً عنّي. لقد أبدى أنّه فعّال لكنّي لاحظتُ أنّ أفكـــاره تسرح في مكان ما. مَن تعلّم عند الأسّينيّين على احتقار الغنى لايستطيع بعـــد ذلك أن يعمل بسهولة على زيادته. فكّرتُ في ذلك وتنهّدتُ. حين كلّمتُه لاحظتُ كم يفتقد إلى جماعته. إنّه يعرف أنّها لن تقبله أبدًا في صفوفها، وأنّه مطـــرود منها، لكنّه لم يجد بعد عائلة أخرى، ولا حتّى في أسرتنا.

ظل الجليلي

الفصل الخامس عشر

الهيكل وإصلاح المجتمع

بعد رحيل باروك حاملاً تقريري إلى متيليوس ببضعة أيّام، سمعتُ خبرًا بأنّ الأحوال تغيّرت. فقد اعتُقِل برأبّا مع اثنين من الغيّوريين. وفي لحظة الاعتقال، دافعوا عن أنفسهم، فجرحوا جنديًّا رومانيًّا جراحًا خطرة مات بعد ذلك بسببها. كان لابدّ لي من الذهاب بأسرع ما يمكن إلى أورشليم. ربّما تمكّنتُ من فعل شيء لصديقي إذا شرحتُ التقرير بنفسي لمتيليوس. عليّ أن أساعده لأنّي أدين له بحياتي.

سرتُ مع تيمون وملخوس في طريق اليهوديّة مروراً بالسامرة. تفاديتُ إذًا التحويلة التي تمرّ بعبر الأردن والتي سلكها باروك[1]. كنتُ أريد الذهاب إلى أورشليم بأسرع ما يمكن لأكون هناك قبل الفصح. وفي الطريق، كنتُ أُعمِل تفكيري لأجد وسيلة أساعد بها برأبّا. أعليّ رفع شأنه على أنّه من وجهاء الغيّورين، أي من الحسن كسب رضاه؟ أعليّ أن أشرح كيف دافع عنّي؟ أم من الأفضل الصمت عن كلّ هذا؟ أمن الأفضل التوسّط للسجناء الثلاثة وإخفاء علاقتي مع رفيقي؟ ولكن، ألن يعدم الرومانيّون حتمًا الرجال الثلاثة انتقامًا للجندي المقتول؟ ألتوسّطي نصيب ولو يسير في النجاح؟ تلك كانت الأفكار التي تراودني طوال أيّام السفر الثلاثة من الجليل إلى أورشليم. وفي آخر الأمر خطرت ببالي فكرة.

---

[1]- بحسب يوسف، يحتاج السفر من الجليل إلى أورشليم عبر هذا الطريق ثلاثة أيّام (*سيرة ذاتيّة* ٢٦٩)..وكان الناس يتفادون السامرة غالبًا لسبب التوتّرات بين اليهود والسامريّين. وبالاعتماد على إنجيلي متّى ومرقس، لم يكن يسوع يمرّ من هناك ليذهب إلى أورشليم (راجع مرقس ١٠: ١ و متّى ١٩: ١). ويذكر لوقا ويوحنّا أنّ يسوع مرّ في ذلك القطر (لوقا ٩: ٥١ وما يليها، يوحنّا ٤، ١ وما يليها).

ما إن وصلتُ إلى أورشليم حتّى أرسلتُ مَن يخبر متيليوس عن قدومي. فاستقبلني بمكتبه في دار الحكومة. شعرتُ بأن الجوّ مشحون عند الرومانيّين، وبدا لي متيليوس متوتّرًا. لكنّه استقبلني استقبال صديق قديم.

– وصلتَ في اللحظة المناسبة. علينا أن نسوّي مسألة يسوع الناصريّ هذا بأسرع وقت ممكن. قرأتُ ما كتبتَه لي. لكنّ أمورًا جديدة حصلت: حادثة في باحة الهيكل. هل سمعت عنها؟

– لا، وصلتُ لتوّي.

– لقد بلبل يسوع في الأمس التجارة في الهيكل.

كان متيليوس يذرع الغرفة طولاً وعرضًا وهو قلق.

– أخبرنا حرّاسنا الذين عند قناطر الهيكل بأنّ يسوع أتى إلى الباحة المفتوحة لليهود والوثنيّين، وأثار فيها بلبلة إذ طرد بائعي الحيوانات الصالحة للذبائح، وقلب طاولات الصيارفة، ومنع العمّال من نقل أدواتهم عبر الهيكل. لقد ظلّ الأمر حادثًا ثانويًّا. فمنذ قصّة القنوات، تحلّى جنودنا بالحكمة في البقاء بعيدين وتفادي كلّ نوع من أنواع الإثارة. يبدو أنّ السلطة في الهيكل تسيطر على الموقف بعض الشيء. فبعد الحادثة دخل المسؤولون في نقاش مع يسوع[٢].

فكّرتُ بعصبيّة كيف يمكنني أن أبيّن الحادث على أنّه تظاهرة عديمة العواقب لفيلسوف جوّال. كان عليّ محاولة فعل ذلك لكي أظلّ على الأقلّ أهلاً للثقة.

– من المحتمل أنّ أساس غاية هذه الحادثة هي مجادلة السلطة في الهيكل. ففي بعض الأحيان، يحدث أنّ يلجأ فلاسفة جوّالون إلى وسائل مبهرة ليشدّوا الانتباه إليهم.

– هذا أمر ممكن. ولكن عليّ أن أتابع القضيّة. إنّها ليست الحادثة الوحيدة في الآونة الأخيرة. فقد ألقينا القبض منذ فترة على بعض الغيّورين وهم ليسوا مسالمين من كلّ بدّ.

٢- راجع مرقس ١١: ١٥-١٩ , ٢٧-٣٣.

لاشكّ أنّه يتكلّم على اعتقال برأبّا ورفيقيه. هنا، يمكنني طمأنته بصدق أنّ لا علاقة لهذا بحادث الهيكل. لكنّي بدأتُ باستجوابه:

- هل علِمتَ بوجود علاقة بين يسوع وهؤلاء الغيّورين؟

- هذه بالضبط النقطة التي أودّ مناقشتها معك. ما رأيك في المسألة؟

فكّرتُ لحظة قبل أن أجيب:

- إنّ نشاط الغيّورين موجّه ضدّ الرومانيّين، وحادث الهيكل ضدّ السلطات اليهوديّة.

- ومع ذلك يمكن أن تكون هناك علاقة بين الأمرين. فالغيّورون يحاربون أيضًا الأرستقراطيّة المرتبطة بالهيكل. وانتقاد الهيكل هو إدانة لهذه الأرستقراطيّة أيضًا. على كلّ حال، إذا عانى كبار الكهنة من المشاكل فهذا لا يكون إلاّ في مصلحة الإرهابيّين.

- وما المعنى الّذي يمكننا أن نعطيه لحادث الهيكل؟

توقّف متيليوس وهزّ كتفيه وأجابني:

- ليس لديّ إلاّ افتراضات. أولاً، يمنع يسوع العمّال من حمل أدواتهم والمرور في باحة الهيكل اختصاراً للطريق الّذي يسلكونه. من المحتمل أن يكون هذا احتجاجًا على متابعة الأشغال التي تُقام فيه. فالعمل قائم منذ نصف قرن ولم ينتهِ بعد. ربّما كان يسوع يرفض هذا التشييد. ثانيًا، قلَبَ يسوع طاولات الباعة. أيريد أن يقول من عمله هذا أنّه يجب قلب المبنى وخربه؟ هل يعلن الدمار؟ على كلّ حال، أشعر بأنّ هذا العمل تهجّم عنيف على الهيكل. ثالثًا، إنّه يعيق تجارة الصيارفة وباعة حيوانات الذبائح. فبالمال المصروف يمكن شراء الحيوانات. وبدون هذه التجارة تزول العبادة بتقديم الذبائح. هل يعارض يسوع الذبائح الدمويّة؟ وهل يعادي الهيكل عداءً تامًّا؟ ماذا ينفع الهيكل إن انعدمت إمكانيّة تقديم الذبائح فيه؟ هذه ليست إلاّ افتراضات كما قلتُ لك.

لقد بيّن متيليوس، كما هي عادته، أنّ لديه فكرًا ثاقبًا. أليس على صواب؟ لقد قال هذا مع أنّه لم يعلم بنبوءات يسوع التي تقول إنّ الهيكل سيُخرب

وسيُشاد مكانه واحد لم تبنه يد إنسان[3]. لابدّ أن يكون لحادث الهيكل علاقة مع هذه النبوءة. من المحتمل أن يكون تطهير المكان واحدًا من تلك الأفعال الرمزيّة التي جعل من خلالها أنبياؤنا نبوءاتهم ملموسة. على كلّ حال، من المهمّ أن أعطي لكلّ شيء تأويلاً مطمئنًا. لذلك قلتُ:

– أشكّ في أنّ يسوع يريد خرب الهيكل. ربّما أراد أن يقضي على بعض التجاوزات، مبتدئًا من الخلط بين الهيكل والتجارة، وهو سبب ثورته على الباعة والعمّال، وعلى كلّ مَن هم في خدمة الهيكل. إنّه يريد أن يجعل هذا في متناول الجميع. وهذا يتوافق مع معاضدته للفقراء.

هزّ متيليوس رأسه. لم يكن مقتنعًا تمامًا.

– أريد أن أروي لك أيضًا ما علمته عن النقاش الذي تلا الحادث. طُلِبَ من يسوع أن يشرح سبب تصرّفه. وأُلِحّ عليه ليقول بأيّ حقّ يُزعج التجارة في البهو. فأجاب بسؤال: على ممثّلي الهيكل أن يقولوا له هل معموديّة يوحنّا من الله أو لا.

– وبماذا أجابوه؟

– بلا شيء. صمت خصومه. فقال لهم، إذا لم تقولوا لي هل معموديّة يوحنّا من الله أو لا، لا أقول لكم بأيّ حقّ أزعج التجارة في الهيكل[4].

– أتُراه أراد التملّص من سؤال مزعج؟

– لديّ وجهة نظر أخرى. شرحتَ لي مرّة معنى الهيكل لشعبك ولكلّ المجتمع. فالذبيحة التي تُقدّم فيه تحرّر الناس من خطاياهم. لكنّ المعمدان اقترح معموديّة تقوم بالدور نفسه. لو فرضنا أنّ موظّفي الهيكل قبلوا بأنّ هذه المعموديّة من الله، عليهم عندئذ أن يجيبوا على السؤال التالي: لماذا تقدّمون ذبائح غفران في الهيكل إذًا؟ لماذا لا تذهبون بأنفسكم لتغطسوا في الأردن مقدّمين أنفسكم ذبائح؟ باختصار، أظنّ أنّ يسوع يريد أساسًا أن يخرب الهيكل

٣– راجع مرقس ١٤: ٥٨.

٤– راجع مرقس ١١: ٢٧–٣٣.

كما هو مفهوم الآن. حين يُعلَن أنّ غفران الخطايا مستقلّ عن الـهيكل، تُعلَـن عدم أهمّيّة هذا.

- ربّما كنتَ على صواب. مجموعة كبـيرة مـن الفلاسـفة الجوّاليـن، خصوصاً الفيثاغورثيّين، يرفضون الذبائح الدمويّة.

- لو كان رأيي صائبًا، لايشكّل يسوع خطرًا إلاّ على الهيكل وعلى كبـار الكهنة المتعلّقين به وعلى شعب أورشليم لا على الرومانيّين.لا نريد التدخّل في الخلافات الدينيّة الداخليّة. لكنّه عليّ متابعة التحقيق لأعرف هل لهذا علاقة مع الغيّورين. كيف يحدث أن قام هؤلاء بعمليّاتهم في الآن نفسه؟ هـل اسـتطعت معرفة شيء عن علاقتهم بيسوع؟

توقّعتُ هذا السؤال. وفكّرتُ في طريقي بالإجابة فقلتُ:

- بحسب معلوماتي، هناك غيّور بين الذين تبعوا يسوع، أو ربما هنـاك اثنين آخرَين. واللقب الذي أطلق على واحد منهم: "سمعان الغيّور" يبرهن على ذلك بوضوح. أمّا الثاني، يهوذا الإسخريوطي، فمن الممكن أن يكـون منـهم. لأنّه يمكن لكلمة إسخريوط أن تعني سيكير[5]. ويمكننا أن نشكّ أيضًا في أمـر سمعان بريونا. ففي الواقع، يلقّب كثير من الناس الغيّوريـن بـالبريونيّين، أي بالمشرّدين في المناطق الصحراويّة. ولكن، يمكن لألقاب يـهوذا وسـمعان أن تأخذ معانٍ أخرى[6].

وشعر متيليوس بشيء من الثقة في تفكيره.

٥- في الإمبراطوريّة الرومانيّة، كان يُطلق اسم سيكير على الرعاع وعلى جماعة المقاومـة. أطلق يوسف هذه التسميّة على جماعة خاصّة تقاوم روما. ووصف كيف كان السيكير يطعنـون ضحاياهم بالخناجر الصغيرة في الأسواق ويصرخون بعد ذلك مندّدين بالقتلـة بـين الحشـد المضطرب. كان من أوائل ضحاياهم كبير كهنة. ولكن، بحسب يوسف، لم يبدأ نشاطهم يؤثّـر على الرأي العام إلاّ في عهد الحاكم فيليكس (نحو ٥٢-٦٠). راجع حرب اليهود، ٢، ٢٥٤.

٦- في اللغة الآراميّة، يمكن لكلمة إسخريوط أن تعني "رجل من خريوط". ويمكن ترجمـة بريونا (هكذا سُمّي بطرس في متّى ١٦: ١٧) بـ "ابن يونا".

– هناك إذًا علاقة بين يسوع والغيّورين؟

كنتُ أتوقّع ردّ فعل كهذا فأجبتُ:

بحثتُ في المسألة عن كثب، فوصلتُ إلى نتيجة مدهشة. في البداية دُهِشتُ لاكتشافي بين تلاميذ يسوع المقرّبين جابِ اسمه لاوي، أي واحد من أولئك العشّارين المكروهين الذين يجبون الضرائب، والذين يحاربهم الغيّورون بلا رحمة. عندئذ فكّرتُ: لو أنّ بين تلاميذ يسوع واحدًا يُلقّب بالغيّور، يمكننا الاستنتاج بكلّ تأكيد أنّ الجميع ليسوا غيّورين، وإلاّ لما كان لتمييز واحد بهذا الاسم معنى.

أجاب متيليوس:

– لكنّ هذا لا يخالف فكرتي.

– طبعًا. لكنّي تعمّقتُ في دراسة المسألة. استطعتُ الاتّصال ببعض الغيّورين. قالوا لي إنّ سمعان كان بالفعل منهم، لكنّهم يعتبرونه الآن خائنًا لأنّه انضمّ إلى يسوع. إنّهم ينظرون إليه على أنّه خطِر. فهو من المنادين باللاعنف ويرفض أساليبهم. إن استمرّ في كسب موالين له من عندهم ومن الشعب، فإنّ هذا يعني خسارة كبيرة للمقاومة.

– لو فهمتُ ما قلتَه جيّدًا، هناك إذًا نوعان من مثيري البلبلة يتنافسون على التلاميذ أنفسهم وعلى المتحزّبين أنفسهم. الغيّورون من جهة ويسوع من الجهة الأخرى؟

– عنيتُ بالأحرى أنّ الغيّورين يطرحون مسألة شائكة ويسوع يقترح لها حلاً. أو بتعبير أدق، جعلني ألمح حلاً.

– وضّح أكثر ما تريد قوله.

ونظر إليّ متيليوس نظرة المهتمّ. يبدو أنّه يجهل كيف يجب أن تتصرّف السلطة الرومانيّة في وضع كهذا، وهو على استعداد لقبول أيّ اقتراح مع الشكر الجزيل. تنفّستُ الصعداء. إنّها الفرصة التي رجوتها، وربّما كانت الوحيدة، لكي أنقذ برأبّا. لكنّ الأمر يتعلّق بقدرتي على إقناع متيليوس.

– في قرى الجليل، عرفتُ لماذا يهجر الشبّان بيوتهم ومزارعهم لينضمّوا إلى الغيّورين في الجبال. السبب هو الوضع الاقتصاديّ المؤلم لصغار النـــاس. إذا تراكمت عليهم الديون بعد موسم سيّء أو كارثة ما، عجـــزوا عـــن دفـــع الضرائب. فيفضّلون الفرار إلى الغيّورين على العبوديّـــة أو السـجن لســـبب ديونهم. ليس هؤلاء الشبّان بإرهابيّين منذ ولادتهم، لكنّهم يصبحون كذلك بسبب الظروف. لو عُرِض عليهم بديل عن الحياة الإرهابيّة، إمكانيّة حقيقيّة للعـــودة إلى الحياة العاديّة، يتوب كثير منهم عن الصعلكة. لهذا أقدّم اقتراحًا في ثـــلاث نقاط:

كان متيليوس شديد الانتباه، يداه على الطاولة وظهره منحنٍ إلى الأمـــام، وكأنّه يريد التأكّد من عدم فقدان أيّة كلمة من كلماتي. تابعتُ حديثي وقلتُ:

– أوّلاً: أن يعلن الحاكم الرومانيّ في اليهوديّة والسامرة عن عفـــو عـــام على جميع الشرور التي ارتكبها أعضاء مجموعات الغيّورين. وهـــذا العفـــو يشمل جميع الذين يريدون العودة إلى الحياة الطبيعيّة.

أرخى متيليوس جسمه واستقام وصار يسير قلقًا يـــذرع الأرض طـــولاً وعرضًا. ولاحظتُ من رمقته خيبة الأمل. عرفت أنّي خسرت، ومـــع ذلـــك تابعتُ كلامي:

– ثانيًا، عفو عامّ عن الديون يتيح لصغار الناس، الذين بإمكانهم الـــهرب إلى الغيّورين، فرصة أخرى[7]. وثالثًا، أن تضع الدولة الناس الذين لا يملكـــون أراضٍ في المناطق الحدوديّة، خصوصًا الغيّوريـــن، فـــهؤلاء تعـــوّدوا علـــى الصراع، ويمكنهم أن يقوموا بدور المدافع ضدّ الأعداء الخارجيّين. فهذا البلـــد لا يستعيد السلام الدائم إلاّ بمكافحة جذور الشرّ الحقيقيّة.

وبعد فترة صمت، قال متيليوس:

٧– في أثناء حرب اليهود، كانت إحدى كبار أعمال الثوّار الغيّورين هي حرق أرشـــيف الديون. فقد رجوا من ذلك كسب جميع المدينين والفقراء إلى ثورتهم على الرومـــان. راجـــع حرب اليهود ٢، ٤٢٧.

- وما علاقة يسوع بهذا الحل؟

أجبتُ:

- تبرهن حركته أنّ كثيرًا من الغيّورين على استعداد تام للتخلّي عن حياتهم السابقة إذا تمكّنوا من ذلك. فطريق العودة إلى الحياة الطبيعيّة مسدود أمامهم، إمّا لأنّهم اقترفوا بعض الآثام، أو لأنّ ملكيّتهم الصغيرة بيعَت في غيابهم. وحياة يسوع في التشرّد والتجرّد عن كلّ شيء تقدّم لهم وسيلة للخلاص من وجودهم الصعلوكيّ. لكنّ هذه الحياة صعبة وتفترض التجرّد الكامل. فإذا فضّلها هؤلاء الذين كانوا غيّورين على حياتهم السابقة، كم سيرحّبون ويهلّلون للعودة إلى الحياة الطبيعيّة.

-هل يعدهم يسوع بالعفو والمسامحة بالديون؟

- لا يمكنه التكلّم باسم الدولة والدائنين. لكنّه يضمن للجميع العفو الإلهي. يغفر الله جميع الخطايا ما إن يتوب الشخص ويبدأ حياة جديدة. وهو يجبرنا على المسامحة بما لبعضنا على بعض[8].

- للفلاسفة الجوّالين غالبًا أفكار حسنة، لكنّ الواقع السياسيّ أصعب من ذلك.

- أليس العفو حسنًا من وجهة النظر السياسيّة؟ الوضع متوتّر. لازالت الجماهير قلقة بعد موت المتظاهرين في السنة الماضية. لم تنسَ موت الحجاج الجليليّين الأبرياء بعدُ، ولم تقبل أيضًا إعدام المعمدان. أيّ شيء أفضل من علامة تبيّن حُسنَ النيّة لتخفيف التوتّر في الأجواء؟ على الرومانيّين أن يبيّنوا أنّهم يريدون نسيان صراعات الماضي، وإلاّ سيتصاعد العنف وهذا سيدعم أفراد المجتمع الذين يرون في القوّة خير وسيلة لولاد القوّة. الفصح قريب. والعيد هو أفضل فرصة لإعلان العفو العام على جرائم الغيّورين.

هزّ متيليوس رأسه راضخًا.

٨- راجع صلاة الأبانا: متّى ٦، ١٢. حين يعلّم يسوع بأن نطلب المسامحة من الله وأنّ نكون مستعدّين لمسامحة مديونينا، فإنّه يفكّر بدون شكّ في الديون الماليّة أيضًا.

– ولكن، أليست المسامحة بالديون أمرًا غير واقعيّ؟ كيف تستطيع الدولة جعل جميع الدائنين في البلد يعدلون عن استعادة ديونهم؟

– هذا ممكن عندنا. لدينا شريعة قديمة تجبر بالمسامحة بالديون كلّ سبع سنوات[9]. لا تطبق إلاّ نادراً ولكنّها موجودة. يجب إعادة العمل بها. يمكن مناقشة الأمر مع الكهنة في السنهدريم. فهذا أوّل من يهمّه شأن إزالة التوتّر.

نظر إليّ متيليوس متضايقًا.

اقتراحك جذريّ ولا أدري ما أقوله.

– أكثر الأمور ضرورة في نظري هو العفو. يجب إعلانه قريبًا قبل أن تولد بلبلة أخرى.

– الحاكم وحده يمكنه أخذ القرار. وهو لا يتمتّع إلاّ بسلطات محدودة.

– علينا أن نعرض المشروع عليه على الفور.

تردّد متيليوس.

– أهذه الأفكار من يسوع؟

أشرت له بأن لا.

– إنّها منّي.

– ألاحظ تقاربًا بين اقتراحاتك ونظرته إلى الأمور. تريد إصلاح المجتمع ويسوع يريد إصلاح الهيكل، وربّما دينكم بكامله. يعتقد يسوع أنّ الهيكل كفّ عن كونه المكان المركزيّ لغفران الخطايا، وأنّه يمكن نيل الغفران بطريقة أخرى: بنيل المعموديّة أو بالانضمام إليه. وأنت تقول إنّ المجتمع تعطّل لسبب توزيع الأحمال بطريقة لا تُطاق وعلينا إيجاد وسيلة أخرى لوفاء الديون. يسوع يعرض عفو الله، وأنت تطلب عفو الدولة. هذه الأفكار متلاحمة فعلاً مع بعضها بعضًا.

– أيمكنني الإجابة بالمقارنة؟

٩– تثنية الاشتراع ١٥، ١ وما يليها.

ورويتُ لمتيليوس مثلاً من يسوع، دون أن أذكر التلميح إلى قدوم ملكوت الله:

"الله مثل سيّد أراد أن يحاسب مديونيه. فأُتي إليه أوّلاً برجل عليه مليونًا. ولم يكن عنده ما يؤدّي به دينه، فأمر السيّد بأن يُباع هو وامرأته وأولاده وجميع ما يملك ليؤدّى دينه. فجثا له المديون ساجدًا وقال: أمهلني أؤدّ لك كلّ شيء. فأشفق السيّد عليه وأطلقه وأعفاه من الدَّين. ولمّا خرج، لقي ذلك الرجل رفيقًا مدينًا له بمبلغ زهيد. فأخذ بعنقه يخنقه وهو يقول له: "أدّ ما عليك". فجثا صاحبه يتوسّل إليه فيقول: "أمهلني أؤدّ لك". فلم يرضَ، بل ذهب به وألقاه في السجن إلى أن يؤدّي دينه. وشهد أصحابه ما جرى فاغتمّوا كثيرًا، فمضوا وأخبروا سيّدهم بكلّ ما جرى. فدعاه السيّد وقال له: "ما أسوأك. ذاك الدَّين كلّه أعفيتك منه، لأنّك سألتني. أفما كان يجب أنتَ أيضًا أن ترحم صاحبك كما رحمتُكَ؟ وغضب السيّد ودفعه إلى الجلاّدين حتّى يؤدّي له كلّ دينه"[١٠].

أصغى إليّ متيليوس بانتباه، وسألني بنوع من الشكّ:

– هذه مقارنة. هل تعني فعلاً بأن نسامح عن الديون؟

– لا بالطبع. لكنّ الفقراء، المديونين الذين روى يسوع لهم مثَلَه، فكّروا بكلّ بدّ في ديونهم.

لفّ متيليوس تقريري المكتوب على ورق البردي، ووضعه بعناية في جراب جلديّ. يبدو أنّه اعتبر أنّ الجزء الرسميّ لزيارتي قد انتهى. لكنّه لم يأذن لي بالانصراف. واستغرق بعض الوقت ليعيد الجراب إلى رفّ في خزانة صغيرة، وألقى نظرة سريعة من النافذة إلى الشارع حيث يتزاحم الحجّاج كما في كلّ سنة قبل عيد الفصح، ثمّ عاد إليّ، ووضع يده على كتفي وسألني سؤالاً لم أكن أتوقّعه البتّة:

– أندراوس، لماذا لا تحرّرون فلاسفتكم الرائعين من جميع المهام الوضيعة؟

١٠- متّى ١٨، ٢٣-٣٥.

وجمتُ. أليس عند متيليوس شيء أهمّ من الجدال في القضايا الدينيّة؟ وتابع كلامه:

– اقترحتَ عليّ مشروع إصلاح جذريّ يقود إلى تغيير كامل لسياستنا. أيمكنني أن أقول لك من ناحيتي ما عليكم تغييره في دينكم؟

وجلس متيليوس على الكرسيّ أمامي وركّز تفكيره:

– بعد لقائنا الأخير، التقيتُ يهوديًا من الإسكندريّة وتحدثتُ معه وقتًا طويلاً في قضيّة إيمانكم. برأيي، يجب فهم شرائعكم بطريقة رمزيّة. على قواعد السبت أن تقول إنّ الإنسان لا يستطيع الالتفات إلى الله إلاّ في الهدوء الداخليّ. الختان رمز للسيطرة على الأهواء والغرائز. علينا ألاّ نمارس السبت ولا الختان حرفيًّا[11]. لو فرَضَت نفسها أفكار كهذه، يمكن لليهوديّة أن تصير فلسفة لها تأثيرها. فيكون لكم تلاميذ من بين كثير من الناس المستعدّين لعبادة إله يجبرهم على فعل الخير للضعفاء، دون أن يُفرض عليهم الختان أو يُلزَموا بشريعة السبت.

– يتكلّم هذا اليهوديّ الإسكندريّ لمجموعة صغيرة في طور الزوال بين اليهود.

وقام متيليوس بحركة تعبّر عن نفاذ صبره:

– يهمّني أيضًا أن أعرف ما يمكن لبعض اليهود الإسكندريّين أن يفكّروا فيه. ما رأيك في ذلك؟

حدّقتُ فيه. هل أنا في استجواب؟ فبدا أنّه عرف أفكاري:

– لا أهتمّ بالأمر بصفتي موظّف رومانيّ، أهتمّ به لغرض شخصيّ. أريد أن أفهم فلسفتكم بوضوح.

١١- في كتابه: "عن هجرة إبراهيم"، ينتقد فيلون الإسكندريّ اليهود الذين يشرحون الشريعة بطريقة رمزيّة. ويسرد على سبيل المثال الأفكار المذكورة هنا عن السبت والختان (De migr. 89-93).

فأجبته متردّدًا:

- المشكلة هي أنّ الإيمان اليهوديّ ليس فلسفة. إنّه ليس مسألة قناعة داخليّة بل أمر نتمّمه حسيًّا. إنّه طريقة حياة. نحن سعداء بواجب إكرامنا الله من خلال أعمالنا، الصغيرة منها والكبيرة، وحتّى باحترام شرائع الطعام المحرّم وحفظ كثير من الطقوس الصغيرة التي هي جزء من تقليدنا. لا يكفي سماع وصايا الله وفهم معانيها الأكثر عمقًا. يجب تطبيقها أيضًا[١٢].

لكنّ جميع هذه الوصايا تتضمّن أشياء كثيرة تجعل التبادل بين اليهود وغير اليهود صعبًا. لماذا تميّزون بين مجموعتين من الشرائع: الشرائع الأخلاقيّة الإجباريّة لحياة جميع الناس، والشرائع الطقسيّة التي تعتمد على التقليد لكنّها ليست بالضرورة مرتبطة بالإيمان بإله واحد وحيد؟ ألا يسير وعظ يسوع في هذا الاتّجاه؟

- لم يذكر يسوع قطّ واجب عدم ختان الأولاد! ولم يشكّك البتّة بجوهر وصيّة حفظ السبت!

- ألا يمكنه جعل الناس يفكّرون على هذا النحو؟

- يمكن لأناس مثل هذا اليهوديّ الإسكندريّ أن يصلوا إلى التفكير على هذا النحو. لكنّهم لن ينجحوا عندنا في فرض أنفسهم. أنت تقلّل من شأن أهميّة كثير من شرائعنا التقليديّة، حتّى تلك التي لا نطبّقها مع أنّها موجودة في تقليدنا. فبالخضوع للشريعة نتثبّت بطريقة ظاهرة مرئيّة من أنّنا لازلنا مخلصين لإيماننا.

١٢- حين اهتدى الملك عيزات الأديابينيّ (النصف الأوّل من القرن الأوّل الميلاديّ) إلى اليهوديّة، أكّد له تاجر يهوديّ في البداية أنّ ضرورة الختان تزول حين يتعلّق القلب بإيمان اليهوديّ. لكنّ المدعو أليازار الجليليّ أكّد أنّ قراءة الشريعة لا تكفي، فالأساس هو "تطبيق وصاياها". لهذا اختُتِن الملك (يوسف، تاريخ اليهود، ٢٠، ٣٨- XX ،١ ،٤).

-ألا يمكننا التصرّف بطريقة أخرى؟ سألتُ واحدًا من كبار معلّميكم يومًا ما هي أهمّ الوصايا فأجابني: "لا تفعل للآخرين ما لا تريد أن يفعلوه لك. هذه هي خلاصة التوراة. وما خلا ذلك فهو اجتهاد. اذهب واحفظ ذلك[١٣]". لِمَ كلّ هذه الشرائع؟ ما نفع الختان والممنوع في السبت؟

وجب عليّ أن أفكّر. هل يهتمّ متيليوس فعلاً بديننا؟ أم أنّه يبحث فيه عن تيّارات جديدة يمكنها أن تسهّل حلّ الصراع بين اليهود والوثنيّين؟ هل يسعى الرومانيّون إلى استخدام هذه التيّارات لأغراض سياسيّة؟ في آخر الأمر قلتُ له:

– ما الذي يحدث إن سمحنا ليهود بتزوّج نساء لا تؤمنّ بإيماننا؟ أو لوثنيّين غير مختتنين بتزوّج نسائنا؟ سيعود الشريك الوثنيّ بسرعة إلى عبادة آلهته القديمة، وسيربّي أولاده على إيمانه. فلا يصير إلهنا إلاّ إلهًا إلى جانب آخرين، حتّى وإن أقرّ بأنّه أسماها. لا يمكن للإيمان بإله واحد وحيد أن يقوم إلاّ إذا قَبِلَ الذين يتزوّجون من أسرة يهوديّة أن يمارسوا طقوسها. علينا أن نخالف بطريقة حياتنا الذين يجاورونا ما دام إيماننا يخالف إيمانهم.

– أليس على الشعوب كلّها أن تعرف يومًا الإله الحقيقيّ؟

– هذا ما نرجوه.

نهض متيليوس وأشار بإصبعه إلى النافذة المطلّة على الشارع:

– ولن يكون هؤلاء الحجاج القادمون من جميع البلاد يهودًا فقط بل من جميع الشعوب؟ سيحقّ للجميع دخول الهيكل[١٤]؟

١٣- تُنسب هذه العبارة إلى رابي هلال (حوالي سنة عشرين ميلاديّة). لكنّنا لسنا متيقّنين من أنّه قالها فعلاً. لكنّ ذكر هذه القاعدة الذهبيّة على لسان مشاهير المعلّمين يبيّن عظمة شأنها.

١٤- تفكّر الديانة اليهوديّة بأن الأزمنة المسيحانيّة ستشهد "حجًّا لجميع الأمم" إلى صهيون. راجع أشعيا ٢: ٢، ٥٦: ٧، ٦٠: ٣ ملاخي ٤: ٢ طوبيّا ١٣: ١٣

- الهيكل مفتوح لكلّ من يهتدي إلى الله منذ الآن.

شكرني متيليوس على المقابلة، ووعدني بطرح مشروعي في العفو على بيلاطس. وإن لزم الأمر، يستدعيني هذا ليسمعني. ثمّ استأذن منّي. آه لو كان جميع الرومانيّين مثله. على كلّ حال، هناك أمر لا يمكنني نسيانه. فمنذ لقائنا الأوّل، تبحّر تبحّرًا كبيرًا في فهم ديانتنا. أتُراه هو أيضًا بين جبهتين؟

ظل الجليلي

الفصل السادس عشر

الخوف الكبير لبيلاطس

كان اليوم التالي هو يوم عيد الفصح. فوجئتُ إذ استُدعيتُ باكرًا عند الصباح إلى عند بيلاطس. قال لي الرسول إنّ الأمر مستعجل. هل عزم بيلاطس على إعلان العفو؟ هل كُشِفَت علاقتي ببرأبّا؟ كانت مشاعري تتنقل من الرجاء إلى أعمق درجات الاكتئاب. كان يومًا صعبًا. كم أتمنّى لو أنّي لم أعشه.

بدا بيلاطس جادًّا. استقبلني بودّ وقادني إلى غرفة صغيرة لها نافذة واحدة. وصرف المرافقين آمرًا إيّاهم بأن ينتظروا عند الباب. يبدو أنّه لا يريد أن تسمع جميع الآذان كلامه. حين صرنا وحدنا بدأ بالكلام:

– علمتُ بمشروعك في العفو العامّ والمسامحة عن الديون. هذا يذكّرني بأمور شغفتني في أيّام شبابي: إنّه مشروع صولون في المسامحة بالديون لجميع أهل أثينا ونضال الغراكشيّان لحلّ الصراعات الاجتماعيّة[1]. لا أرفض أفكارك مسبقًا كما ترى. ولكن، لننظر إلى الواقع. إنّ العفو العامّ يفوق صلاحيّاتي. فأهمّيّته السياسيّة كبيرة والإمبراطور وحده يستطيع إعلانه.

لم أستطع إخفاء خيبة أملي. وتابع بيلاطس كلامه:

– أمّا الذي في حدود صلاحيّتي، فهو العفو عن حالات خاصّة. فالغيّورون الثلاثة الذين اعتقلناهم منذ بضعة أيّام يمثّلون حالة جديدة.

– بالإضافة إلى ذلك، اعتُقِلَ شخص رابع في الليلة المنصرمة، وسيُقدّم ملفّه لي اليوم. أنت تعرف هذا الشخص جيّدًا. إنّه يسوع الناصريّ. اتّهم بإثارة

---

[1]– بين السنوات ٥٩٤ و ٥٦٣ ق.م.، فرض صولون في أثينا إصلاحًا اجتماعيًّا. وألغى بشكل خاصّ العبوديّة التي تنتج عن الديون. لم يعد لأيّ دائن الحقّ في بيع مديونه كعبيد ولا أن يسخّر فلّاحه. وبين السنة ١٣٣ و ١٢٢/١٢٣، بذل الغراكشيّان جهدًا لدعم التوزيع العادل للأراضي في روما.

حركات مسيجانيّة. ويعتقد كبير الكهنة أنّه من الأفضل أن نسوّي المسألة قبل الفصح لكي لا نثير الانتباه.

فُجِعتُ بألم عميق. لقد اعتقلوا يسوع. جعل قلبي يطرق كالطبل، وسرت الرعشة في جميع أنحاء جسدي. فالوضع قلق جدًّا. وتابع بيلاطس كلامه:

– قرأتُ تحليلك عن يسوع هذا. لو صدّقتُ ما كتبتَ، لصنّفتُه مع المسالمين. على هذا البلد أن يعترف بحق الفلاسفة والرواة في الحياة. أمّا لو كان من الّذين يسعون إلى أن يصيروا مسحاء، فهو خطر على الدولة.

يجب عليّ هنا وزن كلماتي بعناية. لحسن الحظّ أنّي قلبتُ في رأسي الحجج التي تمكّنني من الدفاع عن يسوع مرّاتٍ ومرّات. وبدأتُ مباشرة بأهمّها:

– إنّ إحدى مبادئ يسوع الأولى هي عدم معارضة الأشرار: لو ضربك واحد على خدّك الأيمن حوّل له الأيسر. لا يمكن لمن يقول هذا أن يكون خطرًا.

ظلّ بيلاطس عديم التأثّر.

– لا يعرّض هذا السلوك الدولة إلى الخطر بالطريقة المألوفة. ولكن يمكنه أن يسبّب لها حرجًا كبيرًا . أجل، يمكنه أن يشلّ الدولة بمقدار ما يفعله لواء كامل من العصاة الغيّورين.

اعترضتُ:

– لو سلك جميع الناس مثل يسوع لن يكون هناك محاربوا مقاومين.

علّمتني الخبرة أشياء كثيرة. ما تقوله لي يذكّرني بقصّة مشؤومة حصلت في بداية عهدي بالحكم[2]. بعد أن عيّنني طيباريوس حاكمًاعلى اليهوديّة بوقت قصير، أدخلتُ إلى أورشليم ليلاً وبالسرّ صورًا للإمبراطور تُستخدم دلائل في المعارك. فأثار هذا الأمر في اليوم الثاني بلبلة عظيمة عند

٢– هذه القصّة المرويّة على لسان المتكلّم مأخوذة من يوسف، حرب اليهود ٢، ١٦٩.

اليهود. كانوا مقتنعين بأنّ شريعتهم ديسَت بالأقدام. فهي تمنع رفع الصور في المدينة. لم يثر سكّان المدينة وحسب، بل تدفّق أهل الريف أيضًا. وأسرعوا في الحضور إليّ في قيصريّة حشودًا ليرجوني بإبعاد الرايات عن المدينة وباحترام شريعة آبائهم. رفضتُ. عندئذ انبطحوا على الأرض أمام قصري، وظلّوا هكذا خمسة أيّام وخمس ليالٍ دون أن يغادروا أماكنهم. في اليوم السادس جلستُ على منصّة الحكم في الملعب الكبير وأحضرتهم كما لو كنتُ سأعطيهم ردًا. وكنتُ قد أمرتُ جنودي بأن يحاصروهم عند إطلاق الإشارة. حين وجدوا فجأة أنّ ثلاث صفوف من القطعات المسلّحة تحاصرهم تبلبلوا. فهدّدتُ بذبحهم إن استمرّوا في رفض صور الإمبراطور، وأعطيتُ إشارة إلى جنودي ليستلّوا سيوفهم. لكنّهم، وكأنّهم متّفقين على ذلك من قبل، رموا بأنفسهم أرضًا ومدّوا أعناقهم صارخين بأنّهم على استعداد لأن يموتوا بدل أن يخالفوا شريعة آبائهم. صُدِمتُ من حرارة إيمانهم، وأمرتُ بإبعاد الرايات عن أورشليم. لقد بدأتُ عملي هنا يا أندراوس بإخفاق لم يكن سببه فصيلة مسلّحة أو محاربين خطرين من المقاومة، وإنّما أناس عُزّل. لم يسعوا إلى أن يمدّوا لي الخدود بل الأعناق. لم يطلبوا منيّ أن أصفعهم فحسب، بل أن أقتلهم. لقد سبّبت لي بداية عملي التعسة هذه كثيرًا من المشاكل. بعد ذلك، وجب عليّ دائمًا أن أكون حريصًا لأحافظ على سلطتي. صدّقني، يمكن لدولة أن تجد نفسها عاجزة أمام أناس يأتون ليتظاهروا عزّلاً أكثر ممّا لو واجهت جحافل من الجنود.

– ولكن، ألم يقل يسوع الناصريّ: "لا تردّوا على المسيئين؟

– أحقًّا؟ لكنّه لم يلتزم بمبادئه. فمنذ بضعة أيّام، أثار بنفسه بلبلة في الهيكل. طرد منه الباعة وقلب طاولات الصيارفة وباعة الحمام. هذا تصرّف ضدّ الأشخاص والأملاك[٣]. أليس غيّورًا؟

– لكنّه ابتعد بوضوح عن الغيّورين. لقد أعلن بأنّه علينا ردّ ما للإمبراطور إلى الإمبراطور وما لله إلى الله[٤].

٣– راجع مرقس ١١: ١٥–١٧.

أجابني بيلاطس متضايقًا:

– نعم، نعم. قرأتُ تقريرك! ولكن، ما الذي يثبته هذا؟ ألا تتوافق قصّة المال هذه مع حادثة الهيكل؟ لقد هجم على الصيارفة. وهؤلاء هنا ليبدّلوا جميع أنواع العملات بعملة سوريّة، وهي الوحيدة المقبولة في هذا المكان المقدّس. بالطبع، لا تحمل القطع السوريّة صورة الإمبراطور، بل أسوأ من ذلك، فعلى أحد طرفيها صورة الإله السوري ملخار، وهو الذي نسمّيه هرقل. إذا كان علينا ردّ العملة الفضيّة للإمبراطور لأنّ صورته عليها، فمن المنطق أيضًا المطالبة بأن نعيد إلى ملخار قطعه النقديّة. يقول يسوع في الواقع، لا تعطوها لإلهنا في كلا الأحوال، لذلك الإله الذي في هيكل أورشليم والذي لا يطيق إلهًا بجانبه.

– ألا يمكننا الاستنتاج أيضًا أنّ يسوع لا يعارض إطلاقًا استعمال مال الهيكل لأغراض دنيويّة كجرّ المياه؟

بدأ بيلاطس يضحك:

– من وجهة النظر هذه، يمكننا الاستفادة من مبادئه.

ألحّيتُ:

– هناك وجهة نظر أخرى تتوافق مع الرومانيّين: إنّه يرفض حملة الغيّورين على دفع الضرائب.

هزّ بيلاطس كتفيه.

– وما الذي يثبته ذلك؟ لا تعني رغبته في ردّ المال للإمبراطور شيئًا. ففي نظركم، خالف الإمبراطور شريعة إلهكم. لقد صنع صورة لنفسه. فالاستعداد لردّ العملة الدنسة ليس برهانًا على الوفاء للدولة. يمكننا أن نرى الاحتقار في ذلك أيضًا: ردّوا لهذا الإمبراطور الكافر ماله الدنس. فالله أعظم من الإمبراطور. هذا ما أشكّ بوجوده وراء كلمات يسوع.

٤- راجع مرقس ١٢: ١٣-١٧

توجّب عليّ البدء مرّة أخرى من نقطة الانطلاق:

– مع أنّ يسوع يقترح الطريق الوحيد الذي يسمح لبلدنا بالخروج من الأزمة.

– الطريق الوحيد؟ يمكنني أن أقول لك بالضبط ما هو الطريق المضمون. بدل ثلاثة آلاف وخمسمائة جنديّ، يجب أن تقيم هنا فرقتا جيش. عندئذ يتعقّل الناس ويعود السلام إلى البلد.

– لكن البلد في خير بدون جيش؟

– لا يسير أمر في الإمبراطوريّة الرومانيّة بدون جيش.

– لكنّ الأمور سارت عندنا. فأصل الاضطرابات في البلد هو العداوة بين السكّان والغرباء: اليونانيّين والسوريّين في الجمهوريّات المجاورة والرومانيّين. يشعر يهود البلد بأنّهم مسحوقون فيكرهونهم. ولمّا هم في أزمات اقتصادية بينما تزدهر تجارة الآخرين، ساهم هذا الظرف في زيادة الكراهية. لنتخلّص منه ولنرَ كيف تختفي الأعمال الإرهابيّة والمظاهرات المعارضة وحتّى الاضطرابات الخفيفة. يقول الغرباء دائمًا إنّ الأمور ستتحسّن إذا اعترفنا، نحن اليهود، بآلهتهم. إذا قبلنا بأنّ إلهنا ينضمّ إلى المجموعة الكبيرة للآلهة، ننضمّ نحن أيضًا إلى جماعة الشعوب الكبيرة حيث يشعر الجميع بأنّهم أهل. لكنّ هذا ليس حلاً لنا. فديننا يجبرنا على التمسّك بهذا الإله الأحد، حتّى وإن عزلَنا ذلك عن الشعوب الأخرى.. لا شيء يمكنه أن يفصلنا عن إيماننا. خصوصًا وأنّ خيرة فلاسفتكم يعرفون حقّ المعرفة هم أيضًا أنّ الإله واحد.

– وكيف يحلّ هذا الإله محلّ جيوشنا؟

– يعلّم يسوع أنّه علينا ألاّ نحبّ مواطنينا وحسب، بل الغرباء أيضًا. إنّه يدعو إلى محبّة الأعداء. بالنسبة إليه يشرق اللّه شمسه على الجميع. على الرومانيّين وعلى اليونانيّين وعلى السوريّين وعلى اليهود. حين نزيل الحدود بين الشعوب نتشبّه به.

– حبّ الأعداء؟ هذا مستحيل. جميع الأطفال لدينا يعرفون ذلك: "الإنسان الفاضل يفعل الخير لأصدقائه ويسعى لتدمير أعدائه[٥]".

– أتى يسوع بعقيدة جديدة. أتراها مستحيلة لأنّها جديدة؟ بالنسبة إلينا، نحن اليهود، هذه وسيلة للحفاظ على إيماننا والانفتاح على الآخرين كما أعلنته وعودنا القديمة[٦]. لهذه العقيدة نصيب في النجاح عندنا.

– عندكم! لستم بحاجة إلى الدفاع عن بلدكم. فنحن الرومانيّين، نتكفّل بذلك. إنّه عمل جيشنا. لقد خدمتُ فيه بما فيه الكفاية لأعرف أنّ الضمان الوحيد للسلام هو مقاومة العدوّ بالقوّة. إنّ عقائد كتلك التي ليسوع يمكنها أن تلائم شعوبًا خاضعة. ولكن لا قيمة لها عندنا. فهي تحطّم جنودنا. لذلك، فإنّ يسوع هذا حلم فارغ. حلم فارغ خطر، لأنّ الناس يتهامسون بأنّه الملك الجديد.

اعترضتُ:

– كلّ ما اكتشفته عن يسوع يبيّن أنّه لا ينوي أن يكون ملكًا ولا مسيحًا.

– لكنّ آخرين يرجون ذلك، وهنا تكمن المشكلة. من جهتي، أقبل بأن يعتبر أيّ أبله نفسه ملكًا. لا أعارض. فهذا لا يصير خطرًا إلاّ حين يؤمن آخرون بذلك. إنّه خطر حتّى حين لا يؤمن المعنيّ بذلك. فالآمال المعقودة عليه تولّد القلاقل، لأنّ جميع الناس سيخالون أنّ زمن الانقلاب العظيم قد حان، حتّى البلهاء المسالمين يصيرون عندئذ خطرًا على الأمن.

– حسنًا، ربّما كان هذا حلمًا فارغًا. عليك إذًا أن تطلق سراحه لأجل ذلك. لا سرًّا، وإنّما ضمن إطار العفو. حتّى وإن رجا الناس أن يصير ملكًا جديدًا، أنّى له أن يكون خطرًا وهو يدافع عن عقيدة لها أثر هدّام على الجنود؟ أين يجد جيوشًا؟ وما نفع جيوش تحبّ أعداءها بدل أن تتصدّى لها؟

٥– على سبيل المثال، يمكننا ذكر ما ورد في كتاب كزينوفون "ذكريات سقراط ١١، ٦، ٣٥: يجب التفوّق على الأصدقاء بفعل الخير لهم، وعلى الأعداء بالشرّ الذي نبليهم به.

٦– راجع على سبيل المثال أشعيا ٢: ٢–٥. تعد النبوءة بيوم تذهب فيه جميع الشعوب حاجّة إلى أورشليم.

لم يعد بيلاطس يصغي إليّ البتّة. فقد نهض وذهب إلى النافذة. لاحظتُ أنّه شارد الذهن. تنظر عيونه نحوي ولكنّها لا تراني. يداه تتحرّكان بعصبيّة وكأنّهما تريدان التعبير عن شيء. ومع ذلك لم يخرج صوت من شفتيه. وفي النهاية، جلس ثانية على أريكته وتنهّد، وقال بصوت منخفض:

- أنا خائف ...

نظرتُ إليه دهشًا فتابع حديثه:

ذ- أنا خائف من أن أرى الأمور تفلت من يدي. لا! لا أستطيع.

أيحدثني أم يكلّم نفسه؟ وغاص في تفكيره. انتابني شعور بأنّه نسيني. ثمّ عاد البريق إلى نظراته، واستردّ صوته الثقة والحزم:

-تساءلتُ بجدّيّة هل عليّ، لمناسبة عيد الفصح، أن أطلق سراح السجناء الثلاثة الذين كلّمكتك فيهم منذ البداية. أجل، كنتُ أنوي فعل ذلك. عندها، علمتُ بأمر الحركة المسيحانيّة حول يسوع. العيد يقترب، والحشود تتوافد نحو أورشليم، ويمكن للموقف أن يكون حرجًا. المخاطر كبيرة.

- ألا يمكننا تأجيل إعدام المجرمين الثلاثة؟ لو انقضى العيد بهدوء، ربّما استطعنا رؤية الأمور من زاوية أخرى.

لاحظتُ وأنا أتكلّم عدم جدوى حديثي. هزّ بيلاطس رأسه:

- المخاطرة كبيرة. لا أستطيع إطلاق سراحهم جميعًا. يمكن تأويل هذا خطأً. أجل، يمكن لبعض المعتوهين أن يظنّوا أنّا ضعفنا. لا يحقّ لنا أن نجعلهم يظنّون ذلك، خصوصًا الآن. فالشعبُ في هيجان. ومع ذلك أنا من رأيك. لا كلّه، وإنّما جزء منه فقط. سأطلق سراح واحد. المخاطرة محدودة مع واحد. سأرى هل تجدي الرحمة.

حاولتُ أن أتدخّل مرّة أخرى:

- ألا يمكننا أن نحرّر اثنين؟ غيّور ويسوع؟ ستكون طريقة ترضي مختلف فئات الشعب.

– لا، واحد يكفي. سأدع الشعب يختار. سأضع في كفّتي الميزان يسوع وغيّور. عندئذ سأرى أيّهما أكثر شعبيّة بين الناس. سنرى هل ليسوع مع أفكاره حظّ هنا. أو هل عليّ أن أتوقّع امتداد فترة مقاومة الشعب.

أصيبتُ بالإحباط. سيستعمل بيلاطس فكرتي في العفو التي تصبو إلى المصالحة مع الشعب ليقوم باختبار يجعله يقدّر نصيبيه في السلطة. شعرتُ بانقباض في حلقي وبعرق بارد يسيل على ظهري. وجدتُ مرّة أخرى أنّي بين مخالب الوحش. حاولت إخفاء مشاعري. ألقى بيلاطس عليّ نظرة وقال لي:

– من العدل أن أعدمهم جميعًا. لكنّ محادثتنا جعلتني أفكّر أنّ هناك نوعين من مثيري البلبلة. أظنّ أنّ كلاهما خطر. سأقوم بتجربة لأعرف وراء مَن منهما يسير الشعب. إنّي أنفّذ فكرتك كما ترى.

– ومَن ستضع في الكفّة المقابلة ليسوع؟

– المدعو برأبّا.

شعرتُ بالعجز أمام المصيبة. بات من المستحيل أن أخفي هلعي. بدأت جميع أوصالي ترتجف. نظر إليّ بيلاطس دهشًا:

– يمكنك أن تكون سعيدًا حقًّا. أنت الذي أعطاني فكرة العفو. أقنعتني أنّ هناك حركتين مختلفتين. يجب الاختيار بينهما. فكرتك في التفضيل حسنة. حقًّا إنّها لفكرة حسنة.

استعدتُ اتّزاني ما استطعتُ. جمّعتُ كلّ قواي وشكرتُ بيلاطس لأنّه قبِل اقتراح العفو، ولعنتُ في داخلي هذه الفكرة التي قادتني إلى صراع لا مخرج منه. ووجد بيلاطس بعض عبارات العرفان بالجميل لعملي. فالحديث معي قبل البتّ في أمر يسوع أمر حسن.

لا أعرف كيف استطعت العودة من دار الحاكم إلى حيث أقيم. كانت الفوضى فيّ. فالأمر مريعٌ مهما سيحصل. ومع ذلك، كلّ شيء فيّ يثور على هذه النهاية. نهاية ساهمت فيها مساهمة فعّالة. نهاية لم أشأها. ومع ذلك قال لي بيلاطس: "إنّها فكرتك، وهي فكرة حسنة". لازال صوته يرنّ في أذنيّ فأرتعش

وكأنّ كلّ كلمة هي لسعة سوط. كانت البيوت تتراقص أمام عينيّ. أبوابها تنظر إليّ بحقد كعدو. كنتُ أسمع الناس يتهامسون في كلّ مكان، وأصواتهم تلاحقني: "أنظروا الخائن يفلّ. هو الذي ظنّ أنّه يستطيع الاحتيال على الرومانيّين. لقد سقط الآن بفخه. نجح حقًّا. لقد أفسد كلّ شيء".

أشعر بذنبي تجاه الذي ستقع القرعة عليه مهما كان الاختيار النهائيّ. ومع ذلك، لم أكفّ عن القول في نفسي: "لم تخنهم. لستَ الذي سجنهم. بذلت قصارى جهدك لأجلهم. أردتَ العفو عنهم. لستَ مذنبًا".

هل كنتُ بريئًا حقًّا؟ هل كان بيلاطس ينوي إطلاق سراح كلّ من يسوع وبرأبّا في بداية لقائنا؟ ألم تخطر بباله فكرة الاختيار في أثناء محادثتنا؟ لا مجال للشك. كنتُ سبب وضع يسوع وبرأبّا في كفّتي الميزان. هل أنا مذنب أيضًا؟ لا. صرختُ لا. كلّ ما فيّ يثور على هذه الفكرة. أنا بريء. لم أكفّ عن ترداد ذلك لنفسي. أنا بريء. ولكن، ما إن صرختُ هذا حتّى تردّدت أصوات أخرى فيّ وهمسَت: "إنّها غلطتك". ولم أتمكّن من إسكاتها. كانت عودتي عودة حقيقيّة.

دخلتُ إلى بيتي وأرسلتُ ملخوس ليستخبر عن مجريات الأحداث. كان عليه أن يبقى قريبًا من دار الحاكم ويعلمني بالقرار. كنتُ أشعر بالوهن ولا أستطيع حضور هذا كلّه بنفسي.

أمضيت عدّة ساعات في الغمّ. وعاد ملخوس أخيرًا مع الخبر. نزولاً عند رغبة الشعب، أُطلِقَ سراح برأبّا الذي سرعان ما اختفى، وصُلِبَ يسوع عند مخرج المدينة مع اثنين من الغيّورين. لقد صدر القرار. استعدتُ بعض الهدوء. شعرتُ أنّ لديّ قوّة كافية لكي أذهب إلى مخرج المدينة. أردتُ على الأقل أن أرى يسوع من بعيد. لقد تبعتُ آثاره في الجليل، لكنّي لم ألتقِه. أريد أن أراه الآن، هو الذي صُلب كلصّ. رافقني تيمون وملخوس.

نستطيع أن نرى مكان الإعدام من الجدار الثاني للمدينة. هناك رُفِعَت ثلاثة صلبان. ويُرى عليها ثلاثة رجال يتعذّبون ويختلجون، يتلوّون من همّ الاحتضار. كان الناس يتهامسون أنّ واحدهم قد مات. أعدمه الرومانيّون لأنّهم

خافوا أن يكون المسيح. نظرتُ من بعيد إلى الصليب الذي سُمِّر عليه يسوع. كان الصليب الأوسط. وكان الغيّوران على يساره ويمينه. أتُراهما الشابّان اللذان قادانا إلى خارج المغاور؟ من يدري؟ كانت السماء تتحدر فوقهم. إنّها تلمع بكامل أشعّتها الناريّة على صليب يسوع وصليبيّ الغيّورَين، على الميّت والمنازعَين. إنّها تنير الجنود والمشاهدين الذين تابعوا الأحداث، بعضهم من باب الفضول وبعضهم الآخر فجعًا.

كنّا واقفين في ظلّ الجليليّ. نشعر به. لم يكن هؤلاء الرجال مجرمين. لقد عرفنا الغيّورين. سمعنا عن يسوع. قال لي ملخوس:

– لو استطاعت الشمس أن ترى مثلنا وتشعر، كان لا بدّ لها أن تصير عتمة من الغضب. لو أحسّت الأرض بما نحسّه لاهتزّت.

لكنّ الشمس لم تغرب، ولا اهتزّت الأرض[7]. كان يومًا عاديًّا، لكنّه كان في داخلي ظلامًا. لم تحدث الهزّة إلاّ في أساسات حياتي. لم تكفّ أصوات عن الهمس: "إنّها غلطتك. إنّها غلطتك". كانت تعلو شيئًا فشيئًا. فقدتُ القدرة على مقاومتها. كانت تحبط جميع حججي. شعرتُ بدوار في رأسي. وفي آخر الأمر، فقدتُ الوعي.

قادني تيمون وملخوس إلى البيت، ورويا لي بعد ذلك أنّي مكثتُ محمومًا ثلاثة أيّامٍ وثلاث ليالٍ. هذيتُ وصرختُ طالبًا النجدة من وحش كان يهدّدني، ولم أكفّ عن مصارعته. لم تكن لديّ شخصيًّا إلاّ ذكريات مبهمة عن تلك اللحظات. تذكّرتُ سلسلة من المشاهد المريعة. كنتُ أجد نفسي دائمًا أمام المصلوبين الثلاثة، وأشعر بالغمّ لآلامهم. حين بدأتُ باستعادة هدوئي، بدأتُ أصلّي بعبارات متقطّعة وأندب[8]:

إلهي إلهي، لماذا تركتني؟

---

[7]– لا يتوافق هذا مع ما ذكره الإنجيليّون. يبدو أنّ المؤلّف سمح لنفسه هنا ببعض الحرّيّة (ملاحظة المترجم).

[8]– تسرد أناحيل الآلام أو تشير إلى مواضيع المزمور ٢٢.

لماذا تمكث صامتًا؟ لِمَ أنت بعيد؟

أستغيث بك ليل نهار فلا تلين.

أعرف أنّك أنقذتَ آباءنا، لكنّ هذه ذكرى لا جدوى فيها.

بالكاد بقي فيّ شيء من إنسانيّتي.

أنا كالحيوان، كالدودة، كالعدم.

الجميع يسخرون بي، الجميع يفخرون بهزيمتي.

أعداء كثيرون أحاطوا بي وطوّقوني.

أفواه الضواري تهدّدني.

سقطتُ في أيديهم فهلكتُ.

تفكّكت عظامي.

يؤلمني قلبي وجفّ حلقي،

ولساني لصق بفكّي.

أضطجع في التراب كالميّت.

من كلّ جانب هوجمتُ ولا منفذ للنجاة.

أنت دعوتني لأحيا، وبدونك لا روح فيّ.

كن قريبًا، فلا أحد يغيثني.

تأرجحتُ بين الحياة والموت طوال ثلاثة أيّام. وفي آخر الأمر وجدتُ شيئًا من السكينة. لقد أهلك القدر حياةً ولا ذنب لي في هذا. كان لابدّ من انقضاء زمن طويل لأقبل ذلك. لقد مزّقتني صور الأحداث الأخيرة زمنًا طويلاً. وثابر خيالي في تعذيبي. ظلّ خيّم على حياتي. ظللتُ أصرخ أحيانًا في الليل حين تخرج الكوابيس من نفسي المحمومة حيوانًا رهيبًا.

ظل الجليلي

الفصل السابع عشر

من كان مذنباً

مكثتُ ثلاثة أيّام إضافيّة في أورشليم. وإذ لم يرسل متيليوس في طلبي ولا بيلاطس، اعتبرتُ أنّ مهمّتي انتهت. حرصتُ على ألاّ أذهب إلى دار الحكومة بنفسي. ربّما استطعتُ الانسحاب من هذه القضيّة دون أن يلحظني أحد. كنتُ سعيدًا بالعودة إلى مشاغلي الاعتياديّة. تابعتُ التجوّل في البلد، تاجر حبوب وزيتون، ووجدتُ تسلية في عملي اليوميّ. لكنّي لم أتمكّن من التحرّر من توتّري الداخليّ. فلديّ الآن ثقلٌ يشلّ حياتي. كنتُ أمضي الوقت بالعمل الشاقّ حتّى الهلاك.

ذات يوم، وأنا في قيصريّة، ذهبتُ إلى المجمع للتعبّد. ففوجئتُ إذ لاحظتُ متيليوس هناك. أردتُ الاختباء لكنّه رآني. دهشتُ حين رأيته يتلو الـ "شِماع"، أو على الأقلّ، كانت شفتاه تتحرّكان في أثناء الاعتراف الإيمانيّ لكلّ اليهود بالإله الواحد الوحيد[1]:

"أسمع يا إسرائيل، الربّ الإله واحد. فعليك أن تخدم الربّ إلهك من كلّ قلبك ومن كلّ نفسك ومن كلّ قوّتك".

وفي الجزء الثاني من الخدمة، انتبه متيليوس إلى قراءة التوراة. تُليَ فصل من سفر العدد تلاه مقطع من الأنبياء. وأصغى بانتباه أيضًا إلى الشرح القصير للواعظ. هل صار ممّن يخافون الله؟ أو حتّى داعية[2]؟ أم أنّه هنا للتجسّس؟ هل يريد الاتّصال باليهود؟ لقد بدا لي غريبًا أن يحضر رئيس

١- شِماع (اسمع)، أوّل كلمة في قانون الإيمان اليهوديّ. وهي تفيد في الإشارة إلى الاعتراف الإيمانيّ بكامله. إنّها تُتلى ثلاث مرّات يوميًّا، ونجدها في طقس العبادة بالمجمع.

٢- كان بعض الذين يميلون إلى الدين اليهوديّ، وهم من الطبقة العالية، يصيرون من الذين "يخافون الله"، دون أن ينتموا تمامًا إلى اليهوديّة، أي دون أن يختتنوا. وكان قائد المئة كورنيليوس (أعمال الرسل ١٠، ١ وما يليها) من هؤلاء.

التجسّس الرومانيّ الخدمة الإلهيّة في مجمع يهوديّ. بعد العبادة حيّاني بودّ ودعاني "إلى جلسة خصوصيّة"عنده كما قال. لقد علم لتوّه أنّ الفرقة السادسة، "الفرّاتة"، فرقة الحديد، نُقِلت إلى أنطاكية، وكان سعيدًا بأن يستأذنني للانصراف.

كان منزله قريبًا جدًا من الميناء الذي أمر هيرودس ببنائه. نطلّ منه إطلالة رائعة على البحر والمدينة[3]. مدخل الميناء في الشمال، لأنّ الريح القادمة من هذا الاتّجاه هي أكثر الرياح ملاءمة. وعلى كلّ جانب من هذا المدخل ثلاثة تماثيل، أكبر من الحجم الطبيعيّ، منتصبة على عواميد. كانت البيوت المجاورة للمرفأ مبنيّة بالحجارة البيضاء، وشوارع المدينة المخطّطة بمسافات نظاميّة بينها تقود إليه. في الوجه المقابل، على قمّة هضبة، هناك هيكل مكرّس للإمبراطور، جماله وحجمه مدهشان. وينتصب في الداخل تمثال ضخم للإمبراطور أغسطس، يشبه كثيرًا تمثال زفس الأولمبي الذي نُقِلَ عنه، وتمثال آخر للإلهة رومة. ولمّا كان هيرودس قد بنى المدينة على شرف الإمبراطور، سمّاها قيصريّة. كان المنظر رائعًا حقًّا. وحيث إنّ قيصريّة مدينة جميلة بمسرحها وأسواقها، يستطيع الرومانيّون أن يشعروا بأنّهم حقًّا في بلدهم.

نادى متيليوس العبيد فأحضروا لنا فاكهة. وصرنا نتحادث ونحن نأكل، فاستجوبته:

– أتأتي إلى صلواتنا في المجمع؟

– لم لا؟ تعلّمتُ فهم العبريّة والآراميّة.

– أتفعل هذا لتفهم ديننا؟ كنوع من الدراسة؟

أخذتُ بَلَحَة. كان حلوها لذيذًا. أشار إليّ متيليوس موافقًا.

– هكذا بدأ الأمر. مهنيًّا، كان عليّ الاهتمام بإيمانكم. قرأتُ كتبكم المقدّسة، فشدّت انتباهي أشياء كثيرة. قبل كلّ شيء، الإيمان بإله واحد. إنّه

٣– الوصف الذي نعطيه هنا لقيصريّة يشبه كثيرًا وصف يوسف (حرب اليهود ١، ٤١٣ وما يليها).

ليس غريب علينا. طلب منّي واحد من فلاسفتنا أن أعود إلى كتابات كسينوفون اليونانيّ، الذي عاش تقريبًا في أيّام السيطرة الأتريّة على روما. لقد تكلّم على إله واحد– الأكبر بين الآلهة والناس– يختلف تمامًا عن الأشكال والأفكار التي يكوّنها الناس عنه[4]. إنّ كتبكم أكثر جذريّة أيضًا، لأنّها تقول: أنا الربّ ولا إله معي[5]. أمّا كسينوفون، فقد ظلّ يتكلّم على آلهة.

سألته بطريقة استفزازيّة:

– أتريد أن تصير يهوديًّا؟

أجابني:

– ليس بالضبط. سيصعب عليّ متابعة ممارسة مهنتي العسكريّة. كيف يمكنني أن أحترم السبت إذا كانت لديّ مهمّة في ذلك اليوم؟ كيف أتملّص من التقادم[6]؟ أنوي زيارة مجامعكم من وقت إلى آخر وآخذ منكم ما ينيرني: الإيمان بإله واحد. ولكن لديّ صعوبات في هذه النقطة أيضًا.

تردّد، ثمّ تابع كلامه:

– أيمكنني أن أطرح عليك سؤالاً؟ ربما لن يكون لديّ عن قريب أحد أحادثه عن دينكم.

أجبته:

– بالطبع.

ثمّ أضفتُ مبتسمًا:

– لكنّي لستُ أفضل مَن يتجادلون في هذا. بدون تكوين لاهوتيّ، وعضو في أسرة تخبّئ عندها دمى وثنيّة.

٤– كسينوفون، القطعة رقم ٢٣. عاش كسينوفون تقريبًا بين ٥٧٠ و ٤٧٠/٤٧٥ ق.م. وهو ممّن نسمّيهم "القبل سقراطيّون".

٥– أشعيا ٤٥: ٥. الفصول من ٤٠ إلى ٥٥ ليست لأشعيا بل لنبيّ مجهول من أيّام الجلاء (أشعيا الثاني). كان هذا أوّل نبيّ يعلن بشكل جذريّ عن الإيمان بوجود إله واحد وحيد.

٦– لهذا السبب كان اليهود معفيّين من الخدمة العسكريّة.

أجابني متيليوس مطمئنًا:

– لا ضير في هذا. ربما تفهم مشكلتي بوجه أفضل. علّمتني الفلسفة الرواقيّة أنّ كلّ الحقيقة مصبوغة بعقل إلهيّ، ويمكننا اكتشافه في كلّ شيء: في نظام الطبيعة، في تناوب الليل والنهار، في مسار الكواكب. نحن الرواقيّين، نسمّي العقل "الله". إنّه إله يمكننا معرفته. لكنّكم تقولون إنّ الله خلق العالم يومًا من العدم. كيف يمكن تصديق ذلك؟ لا يمكن لأحد أن يكون هناك يوم الخلق! لم يتمكّن أحد من أن يكون موجودًا ولا أن يرى ما يجري! لا يمكن لأحد أن يشهد على ذلك، بينما هذا ممكن بالنسبة إلى العقل الحاضر في كلّ مكان.

– أنت شاهد على الخلق في كلّ لحظة. يمكننا باستمرار أن نختبر الخلق انطلاقًا من العدم مثلما نختبر العقل الواعي في كلّ شيء.

– لم أفهم.

– الوصف صعب لشدّة بداهته. ومن كثرة بداهته لا يمكننا ملاحظته. لأنّ هذا الخلق يضمّ كلّ شيء: قدرتنا على الملاحظة، رؤيتنا، فكرنا، وحتّى وجودنا.

– مازلت لا أفهم.

– في كلّ لحظة، يتمّ الانتقال من الوجود إلى العدم. كلّ لحظة تتمّ حتّى قبل أن نحفظها. وحين ألاحظها تكون قد مرّت.

– لكنّها وجِدَت.

– ما كان حقيقة لم يعد له وجود. لقد انقضى نهائيًّا. كلّ شيء يغوص في العدم. أجدادنا الذين وجدوا في الماضي لم يعد لهم وجود. ونحن سنعبر. حتّى الجبال ستكفّ عن الوجود يومًا.

– لكنّ الخلق ظاهرة معاكسة: العبور من العدم إلى الوجود.

– على هذا أيضًا أنت شاهد في كلّ لحظة. لحظة المستقبل لم توجد بعد. نحن أنفسنا لسنا ما سنكون عليه. باستمرار هناك عبور من العدم إلى الوجود. هذا ما نريد قوله حين نؤكّد أنّ الله يخلق في كلّ لحظة من العدم، ويحافظ عليه حتى يسقط ثانية في العدم.

– أي كأنّه يمكن للأشياء في كلّ لحظة أن تكون غير ما هي. ومع ذلك تبقى على حالها. لهذا بالضبط، بحسب الفلسفة الرواقيّة، يظهر الفكر الإلهي: في الانتظام والنظام والقانون والديمومة.

– بحسب إيماننا، وضع الله نظام العالم أيضًا. وهو يعيد خلقه من جديد في كلّ لحظة، ولا يتركه يغوص في العدم أبدًا.

– أيمكنه تغيير الأشياء في كلّ لحظة؟

– يمكنه. نحن لا نؤمن بأنّ نظام الطبيعة نهائيّ. فالفكر الإلهي يظهر نفسه فيه. ولكن على هذا النظام أن يحقّق ذاته من جديد وباستمرار في العالم أجمع. فهو يصبو إلى ما هو أبعد من اللّحظة الحاضرة.

تنهّد متيليوس. مال إلى الطاولة التي جلسنا بالقرب منها والتقط عنقودًا من العنب الأسود. وبعد لحظة تابع الكلام:

– أشعر أحيانًا بدوار شديد أمام هذه الأسئلة. أفهم الناس الذين يقولون إنّ كلّ هذا تجريد لا معنى له في الحياة.

– له معانٍ كثيرة لنا. يقول الرواقيّ: من واجبي أن أعيش في الحياة بتجانس مع الطبيعة. أي بتجانس مع التشريع الإلهيّ الأبديّ الذي يُظهر نفسه من خلالها. إنّه يقبل العالم كما هو. أمّا نحن، فلا نؤمن بنظام أبديّ. هناك خلق باستمرار، وكلّ لحظة منتزعة من الخواء ومن العدم. نحن نؤمن بواجب الحياة بالتوافق مع الإله الحقيقيّ الذي تصبو خليقته إلى نظام آخر.

– لهذا السبب أنتم كثيرو الثورة. يمكن للإله الذي يخلق كلّ شيء من العدم أن يجعل أيضًا الخاسرين منتصرين، والفاتحين لاجئين.

– نعم. هذا هو تمامًا. لدينا نشيد ننشد فيه:

حطّ الأقوياء عن العروش

ورفع المتواضعين.

أشبع الجياع من الخيرات

والأغنياء صرفهم فارغين[7].

– أتفهم لماذا يجد ضابط رومانيّ صعوبات مع هذا الإله؟ ومع ذلك فيه شيء يجذبني. لا أدري ما هو. أريد أن أتبعه حتّى في بلد آخر.

– أتفضّل البقاء في فلسطين؟

– أحببتُ هذا البلد كثيرًا. ولكن، وهذا فيه تناقض، حين صرتُ أكنّ الودّ لإيمانه، أردتُ الرحيل عنه.

صمتُّ.

– إنّي عسكريّ رومانيّ، أعيش هنا في وسط يعادي اليهود. جنودنا ليسوا رومانيّين. إنّهم سوريّون ويونانيّون. وهم يكرهونكم. لو بوسعي إدلاء نصيحة للإمبراطور، ستكون بأن يرسلهم إلى أيّ مكان وليجعل مكانهم رومانيّين[8].

– أليس لديكم كثيرًا من العداء لليهود أيضًا؟

– بالطبع. لكنّ هذا تقليد راسخ. لقد سمعتُ من أين أتى هذا. أخضع آخر ملوك اليهود المستقلّين المدن اليونانيّة والسوريّة المجاورة، وجعلوا سكّانها عبيدًا. منذ ذلك الحين، لا تخشى هذه المدن شيئًا أكثر من مملكة يهوديّة قويّة. إنّهم حذرون بوجه خاص من الملوك اليهود.

– ولكن، لم يعد هناك ملوك يهود!

– ليس بشكل مباشر. فهناك مَن يعلن نفسه ملك اليهود المنتظر، أو ينتظر غيره أن يعلن نفسه ملكًا أو مسيحًا، مثل يسوع هذا الذي أعدمناه مؤخّرًا.

– أيكره جنودكم بهذا المقدار مَن يصبو إلى العرش؟

٧– مأخوذ من نشيد "تعظّم الربّ نفسي" في لوقا ١: ٥٢–٥٣.

٨– بعد حوالي خمس عشرة سنة من موت الملك اليهوديّ أغريبا الأوّل (٤٤ ميلاديّة)، عبّر الفوج الذي شارك في إعدام يسوع علنًا عن كراهيّته للملوك اليهود. كان جنوده يحملون صور بنت الملك إلى بيوت الدعارة ويحتفلون بموته نكاية في قيصريّة. ففكّر الإمبراطور كلاوديوس في ذلك الحين بجدّيّة في نقلهم. (راجع يوسف سيرة ذاتية، ١٩، ٣٥٦. ٣٦٤–٣٦٦).

– كثيرًا. ما الذي لم يفعله جنودنا للسخرية من يسوع؟ بعد الحكم عليه، ومع أنّه كان مشوّهًا من التعذيب، جمعوا السريّة بكاملها، وألبسوه وشاحًا أرجوانيًّا، وضفروا إكليلاً من الشوك ووضعوه على رأسه. ثمّ جعلوا يحيّونه: "سلام يا ملك اليهود". وضربوه بقصبة وبصقوا عليه، وجثوا أمامه احترامًا[٩]. لقد هزّأوا المسكين. لم يعبّروا، من فعلهم هذا، إلاّ عن حقدهم لليهود.

– ولماذا لم يتدخّل ضبّاطكم؟

– لا يفكّر الجميع مثلي. حتّى بيلاطس، لا يُسَرّ من الكلام على اليهود. لابدّ أنّ الرجل القويّ في روما، المدعو صيجان، عدوّهم اللدود.

صرختُ:

– إذًا، سبب إعدام يسوع هو الحقد على اليهود!

أجاب متيليوس:

– هذا أيضًا من الأسباب. ولكن هناك عدّة أسباب مجتمعة. أسباب ربّما تعرف عنها أكثر منّي.

توخّيتُ الحذر. أيريد أن يجعلني أتكلّم على يسوع؟ لابدّ أنّ الرومانيّين يبذلون جهدًا لجمع معلومات عن حركته. أيمكن لهذه أن تزدهر ثانية وتجمع مشيّعين؟ لكنّ متيليوس تابع كلامه:

– لماذا اختار شعب أورشليم برأبّا ولم يختر يسوع؟

هززتُ كتفيّ. لا أعلم حقًّا لماذا. فقال متيليوس:

– لقد علمتُ بعد ذلك أشياء كثيرة عن الحادث الغريب في الهيكل. لقد تنبّأ يسوع على المعبد: "سيُخرب هذا البيتُ الذي صنعته يد الإنسان، وسيقوم مكانه واحد لم تصنعه يد الإنسان[١٠]". كان يريد أن يبرهن على نبوءته حين طرد الصيارفة وباعة الحيوانات من الباحة. لكنّ نبوءات واستفزازات من هذا النوع

٩– مرقس ١٥: ١٦–٢٠.

١٠– مرقس ١٤: ٥٨.

لم تكسبه قطّ أصدقاء في أورشليم. فالمدينة تعيش بكاملها تقريبًا مــن الحـجّ. الكهنة وكبار الكهنة الّذين يستفيدون من التقادم للهيكل، وجميع العمّــال الّذيــن يعملون فيه، والفندقيّون الّذين يؤون الحجّاج، وباعة حيوانات التضحية، وحتّــى الدبّاغين الّذين يدبغون جلود الحيوانات المقدّمة. مَن يهاجم قدسيّة المكان يمــسّ الأساسات الاقتصاديّة لهؤلاء العمّال وعائلاتهم. لقد اختبر بيلاطس هذا الأمــر اختبارًا مرًّا حين أراد أن يدخل صور الإمبراطور إلى أورشليم، وأن يســتعمل مال صندوق الهيكل لأغراض دنيويّة.

فكّرتُ في أنّ عقيدة يسوع التي تخصّ الطــــاهر والنجــس قــد أقلقــت الكثيرين. لم يعد هناك طعام طاهر، ولا آنية طاهرة، ولا بضاعة طــاهرة، ولا أناس أطهار. ويمكن الشراء من عند الوثنيّين كما اليهود. فكّرتُ في تجارتنـــا الكثيرة الربح لزيت الزيتون الطاهر مع جماعات الشتات في المدن الســوريّة. لكنّي وجّهتُ المحادثة إلى نقطة أخرى:

– إنّ مجلس الأمّة اليهوديّ، السنهدريم، هو الّذي سلّم يسوع. أمــا كــان بوسعه تركه؟ لماذا تصرّف على هذا النحو؟

بالنسبة إلى متيليوس، لا يمكننا في هذا المجال إلاّ الافتراض:

– لاشكّ أنّ كثيرًا من أعضاء السنهدريم يستفيدون من الهيكل. جميع كبار الكهنة يعيشون من الأعشار والتقادم للهيكل، كما تنصّ عليه الشــريعة. كــان يهمّهم إذًا عدم المساس بقدسيّة الهيكل المقدّس والشريعة. وكان يســوع ينقــد الهيكل كثيرًا، ولا يعبأ لجميع تشريعاته. ألا يجدر بهم أن يخشوا رؤية الشريعة تزول، أي أساس وجودهم؟

– لكنّه مع ذلك أعدِمَ لدوافع سياسيّة على أنّه يدّعي المسيحانيّة؟

وافق متيليوس على هذا:

– بالضبط. لم يكن لنبوءته على الهيكل ولا لتصرّفه في الشؤون الدينيّــة أيّ دور أمام بيلاطس. فهذا حكم عليه لأنّه يعرّض الإمبراطوريّــة الرومانيّــة للخطر بادّعاءاته المسيحانيّة. ذلك كان السبب القاطع.

– ألتهمه كهذه سلّمه مجلس الأمّة اليهوديّ للرومانيّين؟ لماذا؟

– دوافع مجلس الأمّة واضحة جدًّا. إنّه يرغب في الحفاظ على سلطته مثل أيّ هيئة سياسيّة. إنّه يعرف أنّ سلطته محدودة. بالنسبة إلينا، نحن الرومانيّين، لا مبرّر لوجود السنهدريم إلاّ إذا ساهم في الحفاظ على هدوء البلد بوجه أفضل ممّا لو تسلّمنا نحن زمام الأمور. عليه أن يتفادى الاضطرابات إذًا مهما كلّف الأمر. إنّها مصلحته الأساسيّة.. لأنّه حين يكفّ عن السيطرة على الموقف، يتدخّل الرومانيّون. وفي حال الضرورة، يحلّون المجلس[١١].

– ولكن، هل لهذا الخوف مبرّر في حالة يسوع؟ هل هو مثير للاضطرابات حقًّا؟

– ربّما كان شديد المسالمة. لكنّ حركته تقود إلى الاضطرابات بسهولة. لقد حيّاه أناس أتوا معه إلى الفصح في أورشليم على أنّه مسيح[١٢]. أزعج الباعة في باحة الهيكل، وأثار الرجاء بأنّه سيتمّ أمر حاسم قريبًا. سيأتي ملكوت الله. كان الوضع متوتّرًا.

–إذًا، لَمْ يُعتبر خطِرًا بهذا المقدار؟

– لا. كان الخطر الحشد الكبير في عيد الفصح. لدينا خبرة في هذا. بسبب كميّة الناس هذه في أيّام العيد، يأتي الحاكم مع فوج ليدعّم قطعات الجيش المقيمة دائمًا، وليئد مسبقًا كلّ اضطراب. ألا تعلم قصّة الضرطة التي كادت تدلع حربًا[١٣].

أشرت برأسي نافيًا. فروى متيليوس الأمر لي:

١١– حول هذه النقطة، يبيّن إنجيل يوحنّا الأمور بواقعيّة كبيرة. فقد عادى السنهدريم يسوع للسبب التالي: "إذا تركناه وشأنه آمنوا به جميعًا، فيأتي الرومانيّون ويدمّرون حرَمَنا وأمّتنا" (يوحنّا ١١: ٤٨).

١٢– راجع مرقس ١١: ١ وما يليه.

١٣– ذكر يوسف الحادث التالي (حرب اليهود ٢، ٢٢٤)، وقد جرى أيّام النائب كومانوس (٤٨–٥٢ ميلاديّة).

- ذات يوم، كانت الجماهير مجتمعة في أورشليم لعيد الفطير. وتمركزت السريّة الرومانيّة على سقف الرواق حول الهيكل. وكما قلت لك، إنّهم مسلّحون دائمًا أيّام العيد، يراقبون تجمّع الشعب لتفادي كلّ بداية بلبلة. ورفع جنديّ رداءه وقرفص وأدار مؤخّرته لليهود بطريقة غير مؤدّبة وأصدر الضجّة الملائمة لهذه الوضعيّة. فاشتعل الشعب غضبًا، وأطلق ضوضاء عظيمة، وطالب الحاكم بمعاقبة الجنديّ. وسار للمعركة بعض الشبّان الذين لا يسيطرون على أنفسهم، وأناس آخرون يميلون إلى الثورة على كلّ حال. أخذوا حجارة وجعلوا يرمونها على الجنود. فخشي الحاكم عندئذ أن يهاجم الشعبُ كلّه، وجعل قوّة داعمة مدجّجة بالسلاح تتقدّم. وعند دخولهم إلى الباحة استولى ذعر شديد على اليهود. فأداروا ظهورهم وسعوا إلى الفرار من الهيكل إلى المدينة. بلغ تدافع الحشد المتجمّع على الباب مقدارًا جعل بعضهم يدوسون بعضهم الآخر ويخنقون أنفسهم بأنفسهم، مما أسقط ثلاثة آلاف قتيل. هذا ما يمكن حدوثه في كلّ عيد. الناس عصبيّون. لا شكّ أنّ الجنود يستطيعون إجبارهم على ضبط حماسهم. ولكن، من الجهة الأخرى، يُزيد تواجد الجنود من إثارة الناس. خصوصًا حين يتسلّى أولئك بتحريضات معادية لليهود. لهذا أظنّ أنّ على الإمبراطور أن يسحب هذه القطعات ويحلّ مكانها جنودًا رومانيّين. عندئذ تصير التحرّشات التي لا فائدة منها كهذه الضرطة نادرة جدًّا.

– لكنّ يسوع لم يحرّض الشعب قطّ بهذه الطريقة!

– لقد أظهر نفسه محرّضًا أيضًا حين بلبل تجارة حيوانات الذبائح والصرافة. بطريقة تختلف تمامًا بالطبع. لو كان اليسير يكفي لدلع حرب، ما الذي لا يحدث من مهاجمة تجّار فناء الهيكل! لقد أصاب مجلس الأمّة، السنهدريم، في تصرّفه إذ سلّم يسوع.

– هل اعتُقِلَ حالاً بعد حادث الهيكل؟

– لا. فهذا سيكون تهوّرًا. ولن يساهم إلاّ في مضاعفة الإثارة. نحن نعلم جيّدًا أنّ يسوع في حدّ ذاته لا يشكّل خطرًا. ولكن، لو كان هناك واحد هائج

بعض الشيء، يمكن أن ينتج عن هـذا أمـوراً لا يمكـن حسـبانها. اعتقلـه السنهدريم إذًا في ستار الليل، بينما كان وحده مع أقرب الناس إليه من أتباعه.

– كيف عُلِمَ مكان وجوده؟

– خانه واحد من تلاميذه من أجل المال.

سألتُ متيليوس:

– أتعتبر يسوع هذا مذنبًا؟ هل كان إعدامه عدلاً؟

تردّد متيليوس:

– أظنّه كان بريئًا. ربّما كان سيسبّب متاعب لكنّ هذا لم يكن جرمًا.

– ومَن المذنب في موته برأيك؟

فكّر متيليوس طويلاً ثمّ قال لي:

– من الخطأ أن نبحث عن مذنب. وربّما كان من العبث أن نتساءل عـن وجود خطيئة. لإعدامه عدّة أسباب. فهناك التوتّرات بين السوريّين واليـهود. لولا العداء لليهود الذي يسود الفوج وحتّى الحاكم، لتمّـت الأمـور بطريقـة مختلفة. السبب الآخر هو التوتّر بيـن اليـهود والرومـانيّين. لـولا خـوف الرومانيّون من كلّ اضطرابات مسيحانيّة، لما اعتُقِلَ يسوع. وسبب ثالث هـو التوتّرات بين أهل المدينة وأهل الريف. ربّما طلب شعب أورشـليم إطـلاق سراح الآخر لو لم يكن حذراً تجاه أنبياء الريف الذيـن يـهاجمون هيكلـهم. والسبب الدائم هو التوتّرات بيـن الأرسـتقراطيّة والشـعب البسـيط: تنـوي الأرستقراطيّة الحفاظ على سلطتها. لهذا تسلّم للرومانيّين مَن تشكّ فـي أنّـهم يثيرون الاضطرابات. ولهذا تسهر بحذر شديد على الشريعة، مصدر رزقـها وسلطتها. الكلّ يتضافر. لقد وجد يسوع نفسه فـي هـذا مسـحوقًا. طحنتـه التناقضات التي يتألّم منها الشعب كلّه.

– أليس المسؤول الأساسيّ في آخر الأمر هو بيلاطس؟ أليست غلطته؟

– لو بحثنا عن نوع من المسؤوليّة، فإنّه مسؤول. هو الذي أدلى بـالحكم. إنّه مسؤول على المستوى القضائيّ.

– ولماذا حكَم عليه؟ لماذا لم يدعه ينصرف كحلم أجوف[١٤]؟

– أظنّ أنّ بيلاطس خشي أن يشعر بأن تتراكم عليه هذه التوتّرات وهذه الصراعات. ففضّل أن يميت يسوع ويحيا هو.

– أتظنّه سينجح في هذا؟ أن يستطيع القيادة منذ الآن بدون همّ؟

هزّ متيليوس كتفيه.

– كثير من الأشياء لازالت غير واضحة في هذا البلد. كم مرّة كان عليّ أن أغيّر رأيي في الوضع! كم تعلّمتُ من أمور! لم أعد أجروء على التوقّع. لستُ واثقًا حتّى من أنّ مسألة يسوع منتهية منذ الآن.

– بما أنّه مات، ما الذي يمكنه أن يحدث؟

– لديه تلاميذ. لقد ظننّا أيضًا بعد موت المعمدان أنّ المسألة انتهت، فأتى يسوع بعدها.

- أتعرف شيئًا عن تلاميذه؟

– اجتمعوا في أورشليم. إنّهم يعتقدون أنّ يسوع لم يمت. يدّعون أنّهم شاهدوه في الرؤية.

– بعد موت المعمدان، كان هناك أناس يرون يسوع على أنّه المعمدان وقد قام من الأموات.

– إذًا ستعود هذه اللعبة المشؤومة إلى البداية من نقطة الصفر! لكنّ هؤلاء التلاميذ لا يؤمنون بأنّه عاد إلى الحياة. بالنسبة إليهم، لقد ذهب إلى الله. الربّ أقامه من بين الأموات.

١٤– لا شكّ في أنّه كان بوسع الرومان أن يطلقوا سراح مجنون. ففي السنة ٦٢ ميلاديّة، أتى نبيّ من الريف يدعى يسوع بن حنانيا، وأثار الفضيحة بإعلانه الويلات على أورشليم والهيكل والشعب. اعتقلته الأرستقراطيّة اليهوديّة وحاكمته وسلّمته للرومان. ووصل الحاكم إلى نتيجة وهي أنّ هذا النبيّ مجنون فأطلق سراحه. (يوسف، حرب اليهود، ٦، ٣٠٠-٣٠٩). من المستحيل عدم الإقرار بالتشابه مع حالة "يسوع الناصريّ". فهذا أيضًا أثار الفضيحة بنبوءته الناقدة للهيكل. وهو أيضًا قادم من الريف. وهو أيضًا مثل أمام محكمتين.

- هذا محال!

- لماذا؟ ليس أكثر استحالة من الإيمان بإله واحد يخلق في كلّ لحظة العالم من العدم. عليّ أن أعترف بأنّي حين سألتك عن الخلق من اللاشيء، كانت في رأسي فكرة هذا السؤال عن يسوع. أيمكننا التفكير بشيء كهذا: خلق الإنسان من الموت؟ هل من خلق في الزمن الحاضر؟ ربما قادتنا هذه الأفكار بعيدًا. ربما ليس في الأمر إلاّ ردّ فعل عنيد لتلاميذ لا يستطيعون قبول موت معلّمهم، أو شيء من هذا.

كان لمقابلتي مع متيليوس نتيجة إيجابيّة لي. كنت آمل أنّ نقلَه سيعفيني منذ الآن من كلّ مهمّة يوكلها الرومانيّون إليّ. سيأتي يوم يُستدعى فيه بيلاطس نفسه. ربما سيكون ذلك قريبًا إن لم يستطع فرض نفسه في كلّ هذه الصراعات الصغيرة والكبيرة. عندئذ سأصير حرًّا نهائيًّا.

ظل الجليلي

الفصل الثامن عشر

حلم الإنسان

أفهمني الحوار مع متيليوس شيئًا واحدًا: تسعى كلّ جماعة أو كلّ فرد إلى إثبات الذات على حساب الآخرين. تعلّمنا جميعنا واجب حماية الضعفاء. لكنّ الخوف من الهلاك في حال الصراع يدفعنا إلى التضحية بالآخرين لمصلحتنا. كان هذا بالضبط موقف مجلس الأمّة: "خير أن يموت رجل واحد من أن يفقد الشعب كلّه استقلاله". تمّت التضحية بشخص واحد إذًا لمصلحة الجماعة[1]. لقد تصرّف بيلاطس بحسب المبدأ نفسه. بالنسبة إليه، يُفضِّل الموت على تهديد سلطته. لقد خشي ألاّ يستطيع وضع جميع الحركات المسيحانيّة الممكنة تحت سيطرته إذا لم يقضِ على يسوع. ولم يفكّر الشعب في أمر غير هذا. طلب صلب المسيح ليحافظ على مصالحه. لقد خاف من الانهيار الاقتصاديّ الناتج عن إزالة قدسيّة الهيكل والمدينة التي يتدفّق إليها الحجّاج من العالم أجمع. وبرأبّا نفسه استفاد من هذا القانون. فقد مات آخر مكانه. وهكذا بدا لي العالم أجمع غائصًا في حاجته إلى تأمين معيشته على حساب الآخرين الذين يُنبَذون ويُحكم عليهم.

بالطبع، لم أمثّل في هذه اللعبة الرهيبة إلاّ دور الكومبارس. لكنّ هذه الملاحظة لم تُرِحني قط. ألسنا جميعنا وحوشًا تسعى بعناد إلى الحياة على حساب أبناء جنسنا الضعفاء؟ ألا نستمرّ جميعنا في التهام بعضنا بعضًا متابعين بهذا ما لا نلاحظه في الطبيعة غالبًا إلاّ بين الأنواع المختلفة؟ ما من إنسان يعيش إلا بأخذ مكان غيره! لا أحد يُستثنى من هذه القاعدة. ومع ذلك لن أقبلها أبدًا. ما من إنسان يجعلني أرضى بهذا حتّى وإن أثبتوا لي ألف مرّة أنّ الله نظّم العالم. لقد كرهتُ نفسي لأنّي شاركتُ في هذه اللعبة. وأشعر بالهلع حين أفكّر بأنّه عليّ الاستمرار فيها. لا أرى أيّ مفرّ اللهم إلاّ بانقلاب كامل لنظام هذا العالم. وهو بالضبط ما تكلّمتُ عليه مع متيليوس. لكنّ هذه الفكرة تبدو لي

١- راجع يوحنّا ١١: ٤٧-٥٠.

الآن غير معقولة. مَن بإمكانه أن يقوم بهذا التغيير؟ أعلينا، نحـــن البشـــر، أن نعيد النظر في الخلق؟ أم علينا أن ننتظر من الله أن يبنيه من جديد؟

عدتُ إلى مكان إقامتي وأفكار قاتمة تعتريني. لم أكفّ عن تعذيب روحـي بدون نتيجة. وذات مساء، وأنا في هذه الحالة ، زارني واحد. إنّـــه بـــاروك، واقف أمام بابي. لم نرَ بعضنا بعضًا منذ حوالي ستّة أشهر. لقد وصـــل فـــي اللحظة المناسبة. كان لنشاطي في خدمة الرومانيّين جانبًا إيجابيًّا على الأقـــل. فقد استطعتُ أن أعيد إليه طعم الحياة. وجدته في حالة إنسانيّة بالية. وها هـــو الآن هنا في صحّة جيّدة. في هذه المرّة، أنا هو التائه الضائع المنتهي.

جلسنا في الغرفة العلويّة. كان اللّيل قد حلّ. لم يكن لدينـــا للاســـتنارة إلاّ مصباح زيتيّ صغير. روى لي باروك أنّه بحث عنّي في صفورة ثـــمّ رحـــل يفتّش عنّي. وأحضر لي رسالة مختومة وضعها غريب في بيتي. وجعل يروي لي أشياء أخرى. كانت الكلمات تتدافع في فمه. لقد انضمّ إلى جماعة جديدة في أورشليم، يعيش أعضاؤها في الخفاء. وضعوا جميع أموالـــهم فـــي صنـــدوق مشترك، فشبع الجياع بينهم وتعزّى الحزانى. للرجال والنساء والعبيد والأحرار الحقوق نفسها[٢].

أتُرى باروك سقط في شرك بدعة؟ ألم أضيّع وقتي هنا أيضًا؟ ومع ذلـــك لم أعره إلاّ نصف إصغاء. كانت أفكاري في مكان آخر. أظنّني أعرف الخـــطّ على الرسالة. إنّها من برأبّا بدون شك. نزعتُ الختم بلهف، وبـــاروك يتـــابع روي حكايته لي. كان يتكلّم ويتكلّم على وجبات مشـــتركة، وعلـــى صداقـــة ومحبّة، وعلى روح إلهيّ، وعلى معجزات وشفاءات. شنّفتُ أذنيّ حين سمعته يقول:

– إنّ جماعتنا متعلّقة بيسوع الناصريّ الذي همّك في السابق أمره.

دافعتُ عن نفسي:

٢– راجع وصف الجماعة الأولى في سفر أعمال الرسل ٢: ٤٢–٤٧، ٤: ٣٢–٣٧ وبوجه عام في الفصـــول ١–٦.

– لقد مات يسوع! أخفق مثل كثير من الأنبياء.

فأكّد

– لا، لم يمت! لقد شوهد بهيئة جديدة تمامًا بعد موته[3]!

من المستحيل أن نوقف حماسته. لقد استطعتُ مرّة أن أعيده إلى الحياة، ولكن لا إلى حياة التاجر! لم أستطع أن أعطيه ما كان يبحث عنه قبلاً عند الأسّينيّين: الأمان في ظلّ جماعة خارجة عن شرور هذا العالم. لقد وجد الآن ما يتوق إليه. الحقّ يُقال، كان عليّ أن أفرح لحماسته. ألا يخالف تمامًا سلوكه في إهلاك نفسه بالصحراء؟ ولكن، أيبدي شيئًا آخر غير السقوط مرّة أخرى في الحلم بحياة مختلفة تمامًا، أي تلك التي حلم بها في قمران؟ أيريد جرّي إلى حلمه؟ في الواقع، لم يقم هذا الأمر إلاّ بإحياء شعوري بالضعف والعرضة للإساءة. لا يمكن لكلّ ما له علاقة بيسوع إلاّ أن يفتح جروحي ويؤلمني. فهو يذكّرني كيف يمكن لأطيب النيّات في العالم أن تقود في بعض الظروف إلى نقيضها. يستحيل على باروك أن يفهم ما يجري في داخلي. ربّما وجد برأبّا الحل؟ ربّما أعدتُه إلى الحياة على الأقل؟ وبدون أن أعير سيل كلمات باروك انتباهًا، قرأتُ رسالته.

برأبّا يتمنّى لأندراوس السلام!

أحرق هذه الرسالة ما إن تقرأها. لأنّه يجب ألاّ يجدها أحد عندك! يجب ألاّ يعرف أحد ما تحويه. قبل كلّ شيء، أكتب لك لأشكرك. سمعت بتدخّلك لصالحي. لقد نجوت من الموت في اللحظة الأخيرة. وهذا كلّف غاليًا. مات آخر مكاني. اثنان من أصدقائي صُلِبا معه. منذ ذلك الحين وأنا أتساءل لماذا أصاب الصلب الآخرين. لماذا يسوع وليس أنا؟

٣– أقدم تقليد عن الظهورات موجود في ١كورنثس ١٥: ٣-٧. يروي فيها بولس تقليدًا نُقِلَ إليه. فبعد ثلاث سنوات من هدايته، أي في الثلاثينات، عرف شخصيًّا الشهود الذين يذكرهم في النصّ، بطرس ويعقوب. لا يمكننا الشكّ قطعًا في صحّة هذا التقليد.

أعلم أنّ يسوع يهمّك كثيرًا. لقد دافعت عن الطريقة الوديعة لثورته ورفضتَ طريقتي في المقاومة. الآن أجد نفسي مربوطًا به رباطًا وثيقًا. لم أكفّ عن التفكير في ما يعنيه ذلك لي. لقد مات مكاني، وأنا مجبر منذ الآن على أن أعيش مكانه. ربّما تقول لي إنّه عليّ أن أقتدي به: لكنّي وصلتُ إلى استنتاج آخر. إنّ طريقينا متعاكسان، ومع ذلك، يقود أحدهما إلى الآخر. فلكي تؤخذ الثورة الوديعة التي دافع عنها يسوع على محمل الجدّ، على أقوياء هذا العالم أن يعرفوا أنّ بديلها الوحيد هو الثورة العنيفة التي لا يمكن حساب نتائجها. بدون هذا، لن يكون لأناس مثل يسوع أيّ نصيب في النجاح. لن يكون لهم وزن إلاّ إذا كنّا خلفهم.

العكس صحيح بالنسبة إلينا. لا نصيب في النجاح لطريقنا الصعب إلاّ إذا كان يمكن السير في الطريق الآخر. يمكننا هزّ النظام القائم، لكنّ طرقنا لا تسمح لنا بخلق أيّ نظام جديد. نحن معرّضون لخطر أن نجد نتائج عنفنا تطغى علينا. فالعنف يولّد العنف. لو نجحنا في فرض أنفسنا يومًا سنُجبر على الغفران والمصالحة. بتكميلنا الواحد للآخر يمكننا أن نتابع طريقينا. إنّهما مختلفان، وفي غالب الأحيان متعارضان. أعلم أن يسوع لا يسلك في طريقنا. لكنّا لسنا مرسلين إلى بعضنا بعضًا. ففي طريقه خطر أن يستفيد الأقوياء منه. ونحن في خطر الحياد عن غايتنا.

في آخر الأمر، نتابع طريقينا معًا على الرغم من ذلك. أجل، لقد التقيا. إثنان من إخوتي صُلبا في الوقت نفسه. إنّهما خاصّته. هو مات كـ "ملك اليهود" ومات صاحباذا بعده[٤]. أقرّ بأنّه أعلى منّا، لكنّه بحاجة إلينا. إنّه بحاجة إلى قذارة عملنا. إنّه بحاجة إلينا بين أتباعه. فبينما تركه تلاميذه، كنّا نموت معه. لو سقطتُ بين أيدي الرومانيّين يومًا وكان عليّ أن أتبع مصيره، سأصير متّحدًا به.

ليرحمنا الله جميعًا.

٤- صلب لصان في الآن نفسه مع يسوع (مرقس ١٥: ٢٦ وما يليها).

صديقك

برأبّا.

لم يكفّ باروك عن الكلام في أثناء قراءتي. لم أعره انتباهًا البتّة. صار صوت برأبّا البعيد قريبًا وصوته بعيدًا. ومع ذلك ظلّ مهمًّا. فلولاه لاستولى عليّ اليأس. لأنّي تكهّنتُ مباشرة بأنّ برأبّا سينتهي يومًا مثل يسوع. فطريقه ليس أسلك. أنا أيضًا، لم تكن أفكاري الجميلة إلاّ وهمًا. حلمتُ بالإصلاح. لهذا لزم تسلّم السلطة. لكنّ هذه في أيدي الرومانيّين. وطالما هؤلاء يؤمنون بقدرتهم على خنق الاستياء بواسطة جيوشهم، لن يجدوا أيّة فائدة من تحسين الوضع. كلّ شيء يسير معوجًّا. كلّ شيء غير معقول. لا يمكننا فعل شيء. لحسن الحظّ أستطيع في هذه اللحظة أن أفعل شيئاً على الأقل. أن أحرق الرسالة. مددتُ ورقة البردي على لهب مصباح زيتيّ، فجعل اللهب يرتفع. وجعلت انعكاسات متقطّعة ترقص في الغرفة. واهتزّ وجه باروك المذعور في الظلّ العابر. لقد لاحظ وللمرّة الأولى أنّي شارد الذهن. فسألني فجعًا:

– ما الذي تفعله؟

– أحرق هذه الرسالة.

كنت أحترق أنا نفسي من القرف والذعر، وأحوّل جميع معتقداتي إلى رماد. كنتُ أشعر برغبة في تدمير كلّ شيء. قلتُ له:

– يا باروك، في بعض الأحيان، يجب تدمير رسالة بالإضافة إلى الإيمان.

– ما الذي تعنيه؟

ما أكثر ما تُبعِدُنا أفكارنا الواحد عن الآخر! هل يمكن أن نتفاهم هذا المساء؟ أشكّ في ذلك. رددتُ:

– يا باروك، لا تنسَ لماذا طردك الأسّينيّون. لقد بيّنتَ أنّ الإشاعات عن كنزهم ليست إلاّ خيالاً. لقد فهمتَ أنّها لا تُستخدَم إلاّ لجعل الناس تحت سلطة الجماعة، ولحثّهم على أن يهبوا لها ما يملكون! ألا ترى أنّ تلاميذ يسوع يعيشون من خيالٍ مشابه؟

– ولكن، ولا واحد منهم يدّعي حيازة كنز مخبّأ!

– لهذا يتكلّمون على كنز في السماء. يؤمنون بميّت حجز لهم السلطان فوق. بدون هذا الإيمان لا يمكنهم حثّ أحد على وهب جميع أملاكه للجماعة بكلّ طيبة خاطر.

– إنّ الذي نال لنا السلطان في السماء وعلى الأرض حيّ. إذا كان الله يستطيع أن يعيد الحياة لميت، ألا يمكنه أيضًا أن يحيي قلوبنا بروح الحياة فيجعلنا قادرين على فعل ما لا يعتقد إنسان بأنّه ممكن؟

– وأين الفارق إذًا بين كنز مخفيّ في الأرض ومندوب مخفيّ في السماء؟ فكلاهما لا يمكن التحقّق منهما! يمكن لكليهما أن يكونا وهمًا! كلّ جماعة تحتاج إلى بعض الكذب في مسألة الوجود ليبقى الناس معًا، سواء عند الأسّينيّين أو عندكم.

– أنت تنسى فارق واحد: لم يرَ أحد قطّ كنز الأسّينيّين. لكنّ الذين رأوا يسوع كثيرون. ووجد كثيرون الحقيقة في كلماته. لقد ظهر لعديدين بعد موته.

– وإذا لم تكن هذه الظهورات إلاّ تخيّلاً وهلوسة؟

– ولماذا لا يستعمل الله التخيّل والهلوسة لينقل إلينا خبره السار؟

– أيّ خبر سارّ؟

– أنّ الله مع يسوع حتّى بعد موته.

– ألا يجدر القول، إنّ تلاميذه أخذوا مكانهم على جانبيّ يسوع؟

– دفعهم روح الله على فعل ذلك.

– وكيف تعرف أنّه روح الله؟

– لأنّ الله تصرّف معنا دائمًا على هذا النحو. في جميع الأزمنة اختار الضعفاء والمنبوذين. وبالطريقة نفسها بالضبط اختار المصلوب.

– أشكّ في أنّ روح الله يتمكّن يومًا من الاستيلاء على جماعة بشر. فكلّ مجموعة تحتاج إلى ضحايا وهامشيّين. ألستُ أجد نفسي مرميًّا في الصحراءعندكم، كما صار فيك مع الأسّينيّين، بسبب أسئلتي الشكوكة؟

احتجّ باروك:

– ليس لدينا أيّ كنزٍ لمدّ الطُعم للعالم. بالفعل، حدث يومًا أن أراد زوجان إخفاء كنز. لكنّ أمرهم كُشِفَ.

– وما الذي حصل لهما؟

– باعا حقلاً وادّعيا أنّهما قدّما الثمن كلّه للجماعة، لكنّهما في الحقيقة احتفظا بالنصف. وفي أثناء اجتماع للجماعة، لاحظنا أنّهما أخطأا تجاه روح كنيستنا[٥].

– وهل سومِحا؟

– سقط الحكم عليهما كالسيف، فماتا في بضعة دقائق.

قفزتُ من مكاني غاضبًا وصرختُ:

– ألم تختبر بنفسك ما يحدث حين يخطئ واحد تجاه روح الجماعة؟ حُكِمَ عليك بالموت جوعًا، وتميتون اثنين من أعضائكم لأنّهما لم يتصرّفا بالكمال الذي شئتموه؟

– لم يشأ أحد موتهما. لقد تمّ الأمر وحدَه.

صرختُ:

– يا باروك! كيف يمكنك الانتساب إلى جماعة من هذا النوع؟ أيوافق هذا روح يسوع؟ ألم يجلس غالبًا إلى المائدة مع عشّارين لا يكفّون عن إخفاء المال؟ هل استعمل قدرته ليهلك الناس؟

وجم باروك، وقال بصوت منخفض:

– ربّما كان الحقّ معك. نحن أيضًا لسنا كاملين، مع أنّ في جماعتنا كثيرًا من المحبّة والتعاون. لِمَ تتكلّم عليها بهذه الكراهية؟ أتريد أن تنتشلني منها أيضًا؟

أريد ذلك حقًّا؟ لماذا سعيتُ بحماسة كبيرة إلى جرح باروك في إيمانه؟ احتجتُ إلى فترة كافية لأجيب:

٥– أعمال الرسل ٥: ١ وما يليها.

– كان الأمر يختلف تمامًا حين انتشلتك من الجماعة الأسّينيّة. كنتَ وقتئذ في حالة يرثى لها. اليوم، أنا الذي يعاني من المشاكل. لقد تحطّم شيء فيّ مع يسوع هذا. كنتُ أنتظر منه أشياء كثيرة بما فيها مشاكل شخصيّة. والآن فقدت جميع أوهامي ولا أريد الخضوع لغيرها!

كلّ هذا واضح تمامًا لباروك. وطاب لي أن سمعته يقول لي: "تعال إلينا إذًا". هززتُ رأسي وقلتُ:

– أنا لا ألائم جماعتكم. أنا تاجر ثريّ. ما الّذي بوسعي فعله في جماعة تحتقر تكديس الأموال وتسخر من الّذين يملكونها؟

كان هناك فرق شاسع بين حماسة باروك وانهياري. سعينا إلى تخفيف مرارة حوار الصمّ بيننا بعض الشيء من خلال الاهتمام بتفاصيل الحياة اليوميّة عديمة الأهميّة. واستمرّ لقاؤنا حتّى ساعة متأخّرة من اللّيل. وفي آخر الأمر افترقنا لننام، باروك في الطبقة الأرضيّة وأنا في الطبقة الأولى. لكنّي كنتُ أعلم أنّي لن أنام بسرعة على الرغم من التعب. مكثتُ طويلاً أحدّق باللّيل. كانت السماء فوقي تلمع بالنجوم البرّاقة. ملايين الكواكب تتلألأ على مسافة لا متناهية بعيدًا عنّي. كانت حياتي ضئيلة جدًّا. حبّة تراب على الأرض. مَن هو العالم إذًا بإجماليّته؟ أهو غير كتلة ثانويّة من الطين والتراب، من النور والظلام، من الماء واليابسة؟ فيها تعيش جماعات مختلفة صُنِعَت من التراب، وقام بعضها على بعضها في صراع للبقاء، كلّ واحد يسعى إلى سحق الآخر، إلى استغلاله، إلى خفض شأنه، إلى التضحية به. والناس الّذين يعون ذلك ييأسون. يثورون ويسعون إلى الفرار. البعض يثور بعنف فيسقطون بأنفسهم في دوّامة العنف وعكسه، والبعض الآخر يسقطون في شرك الأحلام الدمويّة، فيهلكون العالم باللّهب مسبّبين بذلك ألمًا أعظم من الّذي يستوجبه العالم نتيجة الحكم عليه! وآخرون ينسحبون إلى الصحراء، ويبنون مجتمعًا معاكسًا، ويسعون إلى أن يصيروا قدّيسين في دوّامة العالم الملعونة. ومع ذلك يرسل هؤلاء أيضًا كباش الفداء إلى الصحراء عند الضرورة. ولا تزداد الضحايا من هذا علمًا! ولا تثور حين يُضَحّى بالآخرين. وجميع الذين

يشاركون بهذه اللعبة الرهيبة يجدون فيها أسبابًا وجيهة. فالبعض يقصدون منها ضمان الراحة والسلام، والبعض الآخر فرض العدالة، وثالثون إتمام شرائع الله. ما من يُبَرِّرُ فعله! الجميع يقحمون أنفسهم في المنطق الرهيب لهذا العالم.

استولى عليّ القرف مرّة أخرى، ومرّة أخرى خطرت ببالي كلمات من الكتاب المقدّس:

ثمّ التفتُ فرأيتُ جميع المظالم التي تُرتكب تحت الشمس

وإذا بدموع المظلومين ولا معزّي لهم

وفي أيدي ظالميهم قدرة ولا معزّي لهم.

فهنّأتُ الأموات الذين ماتوا

ولا الأحياء الّذين لا يزالون أحياء.

وخير منهم جميعًا مَن لم يوجد حتّى الآن

لأنّه لم يرَ العمل الشرّير الذي يُعمَلُ تحت الشمس.

ورأيتُ أنّ كلّ التعب وكلّ نجاح العمل

إنّما هو حسد الإنسان لقريبه:

هذا أيضًا باطل وسعي وراء الريح[٦].

أهذه هي الحقيقة؟ لو كانت هذه هي الحقيقة، كلّ الحقيقة، علامَ المشاركة باللعبة غير المعقولة؟ لمَ عدم الإضراب؟ لمَ لا يُقال: لا أريد هذه الحياة؟ أنسحب منها بحرّيّة؟ أليس هذا منطقيًا لو أنّ الموتى أسعد من الأحياء؟ نظرتُ إلى كفّي وتخيّلت كيف سيكون شكلها في الموت. تلمّستُ وجهي لألحظ شكل الجمجمة الميتة التي ستصيرها. جرّبتُ أن أتخيّل جسدي باردًا وبدون حياة. ولكنّي حين لمستُ جسدي، شعرتُ بأنّه حارّ. قلبي ينبض بانتظام. عيناي تشاهدان السماء تلمع بالنجوم. أذناي تسمعان هدير البحر. أنفي يشمّ رائحة الرمل والماء المالح. أرى وأسمع وأشمّ الروائح. أعيش وأتنفّس وأشعر. أليس

٦- الجامعة ٤: ١-٤.

هذا معجزة، أن التراب والأرض يعيشان ويفكّران ويشعران ويشكّان وحتّى يستطيعان أن ييأسا؟ كم من المسبّبات عليها أن ترتبط تمامًا الواحدة بالأخرى في جسمي لكي أتمكّن من أن أعيش هذه اللحظة بدون ألم جسدي؟ ولو لم تكن هذه إلاّ لحظة عابرة، هل تفقد لذلك قيمتها كلّها؟

فكّرتُ ببرأبّا. ألا يجدر أن تكون لديه هو أيضًا أفكار مشابهة؟ ما هو مصير هذا الجسد المملوء حياة الآن لكنّ مآله العقاب الأكبر؟ لقد رأى صديقي نفسه مرّة أخرى يكافأ بالحياة. أليس هذا أمرًا حسنًا، حتّى وإن بدا كلّ ما أدّى إلى هذه النتيجة أمرًا غير معقول؟ أليس عطاء الحياة الذي يتجدّد دائمًا شيئًا رائعًا حتّى وإن كان له المقابل العاتم من الضحايا: جميع أولئك الذين تمزّقهم صراعات العالم مثل يسوع؟

لقد عرفت الأمر: حياتي جزء من حياة سُلِّفَت لي. فيّ يستمرّ شيء من حياة كلّ البشريّة، المحظوظين والتعسين، من يسوع وهو يتجوّل بحرّيّة كاملة في الجليل ومن يسوع الضحيّة المصلوب. أدركتُ واجب الحفاظ على هذه الحياة. أليس رفضها خيانة؟ وإذا ضُحّي بوجودي في معتقلات الرومانيّين أو مغاور الإرهاب، ألا تستمرّ عبر جميع الّذين يرفضون قبول إمكانية للحياة غير تلك الّتي على حساب الآخرين؟ أليس في عمق أعماقي شعور بحياة لا تعارض الحيوات الأخرى، بل تجد كمالها في الشركة معهم؟ أين يجد الجميع، من السعداء والتعساء، أنّهم جميعًا مرتبطون بعمق كما ترتبط الأعضاء بالجسد؟ أين سيتحقّق حلم باروك الذي يكون فيه الكلّ للجميع؟

نمتُ. وفي نومي رأيتُ ثانية الحلم الّذي لاحقني زمنًا طويلاً. حتّى الآن، لم يأخذ قطّ غير شكل أجزاء. الآن اتّحد وصار متوافقًا[٧].

٧- هذا الحلم تكرار بتصرّف لما ورد في سفر دانيال ٧. الحيوانات الأخرى المذكورة في كتاب دانيال تمثّل الإمبراطوريّات الأربع العظمى: البابليّين والماديّين والفرس واليونانيّين. وتروي كتابة رؤيويّة يهوديّة من نهاية القرن الأوّل – وهي ما نسمّيها "الكتاب الرابع لموشع" – هذا الحلم بطريقة ثانية. في آخر هذا المؤلّف، ينتهي الحلم بالرومانيّين.

كنتُ على شاطئ البحر والعاصفة تثير المياه. كانت الأمواج المزبدة تتسارع وترتطم على الرمل. ثمّ خرج من الخواء شكل يمكننا تمييز ملامحه: أسد بلبدة كثّة وافرة يتقدّم نحو الشاطئ، ينشب مخالبه ويزأر: "البلد لي. لي وليس لأحد سواي!" نظرتُ حولي فرأيت كميّة من الناس مرهوبين يختبئون من الوحش. لكنّ بعضهم ظلّ واقفًا. عندئذ قفز الأسد عليهم وأمسك بواحد وطحنه بأسنانه بينما كانت استغاثته تخفت بأسى. للحال ارتمى الآخرون على الأرض وسألوا الرحمة. تغطرس الأسد بفخر أمام إجلالهم. ثمّ لاحظ مجموعة لم تحنِ ركبها. فغضب وجعل يبصق عليهم. حين رأوه يقترب، حاول اثنان منهم الفرار. لكنّه أمسكهما وقتلهما. بهذا بلغ غايته: فالجميع ارتموا عند أقدامه. انتصب الأسد وزمجر: "لستُ وحشًا! لستُ وحشًا! أنا أحلّ السلام، السلام على الأرض!" ثمّ اختفت صورته.

وجدتُ نفسي على شاطئ البحر الهادر ثانية. ومن وسط الأمواج المتلاطمة قام وحش آخر: خرج دبّ عريض الكتفين من المياه بخطوات ثقيلة. وانقضّ على الناس وأجبرهم على أن ينقسموا إلى مجموعتين. فأعطى الأولى سياطًا وكبّل الآخرين. وجعل الذين معهم السياط يجبرون الآخرين على العمل. ومن حين إلى آخر، يُشاهَد واحد من عمّال السخرة ينهار من الإرهاق. فيسرع الدبّ إليه حالاً ويلتهمه. ونجح آخرون في فكّ قيودهم. وحاولوا الفرار إلى أجمة دون أن يلحظهم أحد. لكنّ الدبّ بلغهم ببضع قفزات وقتلهم. في بعض الأحيان، كانت المجموعتان تلتقيان فترمى السياط والسلاسل ويسعى الجميع إلى الفرار. لكنّ الدبّ كان أسرع. وبحركات غضب، يعيدهم إلى مجموعتين مسيلاً حمّامًا من الدم. ثمّ انتصب وهدر: "أنا أقيم النظام! النظام! أخلق عالم نظام!"

مرّة أخرى، وجدتُ نفسي على شاطئ البحر الهادر. كانت الأمواج تتقذف نحو الأعلى وكأنّها تريد غمر السماء. وولّدت وحشًا آخر: انبثق من الماء نسر يمسك بمخالبه كرة يعلوها صليب أطرافه منحنية نحو الأسفل. مدّ جناحيه فغطّى بظلّهما البلد كلّه. فاستولى الذعر على الناس وتشتّتوا، وجعلوا يبحثون

عن ملجأ في المغاور والحفر وهم يصرخون. ولم يستطع الجميع أن يجدوا ملجأ. وحاول بعضهم أن يندسّ بين الّذين سبقوهم إلى المغاور والحفر، فدُفِعوا بالقوّة: لا أحد يريد استقبالهم. فصاروا يتيهون ضالّين هنا وهناك في السهول المكشوفة. رجال ونساء وأطفال وشيوخ. وكان نادراً أن نرى أحداً يفتح لهم ملجأه أو يختطف واحدًا ليأويه فيه. حلّق النسر زمنًا طويلاً فوق المشرّدين مهدّدًا حتّى جمدوا تمامًا من الذعر. ثمّ ألقى الكرة، فسُمع في السهل دويّ لانهيار عنيف. وعتّم السماء دخان أسود، وانتشرت رائحة عفن ودم. وحين تبدّد الدخان، ظهر السهل وقد غطته جثث وعظام. وصرّ النسر: "أنا أخلق الأماكن الحيويّة! مكان للحياة! للحياة على هذه الأرض!" ثمّ غاصت صورته في العدم.

لكنّ الرعب لم يبلغ نهايته بعد. هاج البحر واصطدم بالأرض ثانية، دائماً بالثورة نفسها. ومرّة أخرى، زحفت الوحوش على الشاطئ. في هذه المرّة، كان هناك أخطبوطان عظيمان قد استقرّ الواحد بجانب الآخر وسعيا بمجسّاتهما إلى الاستيلاء على العالم أجمع. كان في طرف كلّ مجسّ من مجسّاتهما فتحتان، واحدة صغيرة وواحدة كبيرة، يحرسهما مراقبون. بإجبار من هؤلاء، كان الناس يلهثون من حمل المال ليدسّوه في الفتحات الكبيرة. والأخطبوطان يشرقانه بنهم. وكان قليل من المال يتدحرج للمراقبين من الفتحات الصغيرة. لكي ينالوه، وجب عليهم جلد الآخرين وإجبارهم على تغذية الأخطبوطين. كان كثير من الناس يموتون جوعًا وكثيرون مرضى وآخرون عراة. كان بعضهم يتيه في الاغتراب. وحدث أنّ بعض الّذين تُساء معاملتهم، تستولي عليهم شجاعة اليأس فيمسكون بمراقبيهم. فيرسل عندئذ الأخطبوطان لشرطتهم سيوفاً ورماحًا يتمكّنون بفضلها أن يعيدوا النظام السابق. وسُجن بعض الثائرين، وقُتِلَ كثير منهم. وأعيدت خدمة مجسّات الأخطبوطين. وحدث أيضًا من حين إلى آخر أن تُستبدل مجموعة المراقبين بأخرى. عندئذ يُدخل واحد من الأخطبوطين مجسّه بحيث يستطيع الآخر أن يدخل مجسّه في الفتحة التي تشكّلت من هذا. ويستند الوحشان إلى بعضهما بعضًا ويشبّان ويسعيان إلى الإذلال بحركات

تهديد. لقد أخرجا من البحر وحوشًا صغيرة كثيرة. في البداية، يمكن رؤية خِطَم بشكل الخراطيم. ثمّ رؤوس كرويّة تدور ببطء هنا وهناك على جذوع خاملة. كانت هذه تنانين أو ضفادع ضخمة تزحف نحو الأرض. اصطفّت في مجموعتين متقابلتين. كلّما نالت إحدى المجموعتين دعمًا بوصول ضفدعة ضخمة، تجلب الأخرى بدورها دعمًا. وازداد عدد الوحوش المدرّعة للقتال أكثر فأكثر. كانت تبصق نارًا. واللهب ينطلق من جميع الخراطيم. فهدّد حريق بالتهام الأرض، واستولى الاضطراب على الناس الّذين كانوا يحتمون حتّى تلك اللّحظة وراء الوحوش المدرّعة. وجعلوا يفرّون مذعورين في جميع الاتّجاهات. فتوقّعتُ كارثة كبيرة.

وفجأة، حجبت الظلمة النظر. ولم يُرَ شيء في أثناء لحظة، لا الأرض ولا البحر ولا النجوم ولا القمر ولا الشجر ولا الأحراش. وانقطعت تذمّرات الناس واختفت الحيوانات. وفي البلد ارتفع انعكاس في السماء. يمكن رؤية شكل إنسان ونور حارّ ينتشر حوله. بفضل إشعاعه، يمكن رؤية الأرض ثانية. رأيتُ الوحوش في قعر الهوّة. كانت ميتة. وكان الأخطبوطان قد أدخلا مجسّاتهما وتقوقعا على نفسيهما. كانت الوحوش المدرّعة متجعّدة. ونهض من كلّ مكان أناس واستعادوا الحياة. ونظروا مملوئين بالرجاء إلى الشكل في السماء. لم أكن أستطيع بعد أن أتعرّف إليه، على الرغم من شعوري بأنّي رأيته قبلاً. وفجأة ظهر خيط نور. إنّه الرجل الّذي حلمتُ به في سجن بيلاطس. هو الّذي انتشلني من مخالب الوحش في الحلم. وسقط عن عينيّ ما يشبه الحراشف، بينما كنتُ أسمع صوتًا يعلن:

طوبى للساعين إلى السلام فإنّهم أبناء الله يُدعون.

تعالوا يا مباركيّ أبي،

رثوا الملكوت المعدّ لكم منذ إنشاء العالم.

لأنّي جعتُ فأطعمتموني، وعطشتُ فسقيتموني،

وكنتُ غريبًا فآويتموني، وعُريانًا فكسوتموني،

ومريضًا فعُدتموني، وسجينًا فجئتم إليّ[8].

إنّه يسوع. يسوع متغيّر. لم أره إلاّ مرّة واحدة من سور أورشليم. كان في ذلك الحين معلّقًا على الصليب ميتًا. الآن يشعّ حياة وسلامًا وحرّيّة. انتهى مُلك الوحش!

استيقظتُ سعيدًا وحائرًا. نهضتُ وخرجتُ إلى الشرفة، ونظرتُ إلى البحر من الطبقة. بعد حزام الرمل الأبيض، كانت هناك ظلمة تنتشر أكثر فأكثر نحو الغرب من حيث خرجت أحلامي الفوضويّة. لم تعد أيّة عاصفة تحرّك مياه البحر، ولا موجة صغيرة تزمجر على الشاطئ. وجعل النور ينتشر على البلد. وحيث تلتقي السماء مع الأرض يُرى الأفق يرتسم في شريط شاحب وظلال ملوّنة ترفرف أمام الشمس في صدد الشروق، لكنّها غير مرئيّة حتّى اللّحظة. اخترقت أشعّتها كلّ شيء في شرق الأرض. وظهرت لمّاعة على الهضاب وأغرقت البحر بنورها الوهّاج. وعكست المدينة نورها بضعف، ثمّ برزت المباني من ظلمات الشوارع شيئًا فشيئًا، وأنير المعبد والمجمع وبيوت اليهود والوثنيّون بنور الشمس المولودة. لقد ارتفع النجم على الأخيار والأشرار، على الصالحين والظالمين. وكلّ شيء فيّ كان حرارة ونورًا.

لقد غُلِبت الوحوش اللّيليّة الخارجة من الخواء. وزالت الرهبة أيضًا أمام قساوة الحياة. انتهى مُلك الوحش فيّ. لقد ظهر لي الإنسان الحقيقيّ، وعرفتُ فيه سيماء يسوع. أعاد إليّ الأرض. لم تتحسّن منذ الأمس. ومثل البارحة، سنرى استمرار الصراع من أجل الحياة. لكنّ هذه ليست كلّ شيء. على هذه المعركة ألاّ تمتصّ كلّ نشاطي وجميع حواسّي. لقد عقدتُ عهدًا جديدًا مع الحياة. شعرتُ بوضوح أنّ صوتًا يرتفع من كلّ مكان يعرض عليّ هذا العهد. لن ألعن الأرض أبدًا ولن أنبذ الحياة أبدًا! لن أدع وحوش الهوّة تسودني أبدًا! سمعتُ أصوات الأشياء وهي تختلط مع صوت يسوع. أنا واثق منه: حيثما ذهبتُ، سيرافقني دائمًا. لن أستطيع أن أتخلّص منه أبدًا. أجبته مصلّيًا:

٨- متّى ٥: ٩ و ٢٥: ٣٤-٣٦.

يا رب،

قد سبرتني فعرفتني عرفت جلوسي وقيامي.

فطنتَ من بعيد لأفكاري قدّرتَ حركاتي وسكناتي

وألِفتَ جميع طرقي.

قبل أن يكون الكلام على لساني أنت ياربّ عرفته كلّه

من وراءٍ ومن قدّام طوّقتني وجعلتَ عليَّ يدك.

عِلمٌ عجيب فوق طاقتي أرفع من أن أدركه.

أين أذهب من روحك وأين أهرب من وجهك؟

إن صعدتُ إلى السماء فأنت هناك

وإن اضّجعتُ في مثوى الأموات فأنت حاضر.

إن اتّخذتُ أجنحة الفجر وسكنتُ أقاصي البحر

فهناك أيضًا يدك تهديني ويمينك تمسكني.

وإن قلتُ: "لتغطّني الظلمة وليكن اللّيل زنّارًا حولي"

حتّى الظلمة ليست ظلمة عندكواللّيل يضيء كالنهار.

أنت الّذي كوّن كليتيّ ونسجني في بطن أمّي.

أحمدك لأنّك أعجزت فأدهشت. عجيبة أعمالك.[9]

ظللتُ واقفًا فترة طويلة أمام بيتنا، وتركتُ حلم الإنسان يتردّد صداه فيّ. لا يمكن لملكوت الوحش أن يدوم أبدًا. سيظهر الإنسان يومًا، الإنسان الحقيقيّ. والجميع سيعرفون فيه سيماء يسوع.

ثمّ ذهبتُ إلى الغرفة السفليّة وأيقظتُ باروك. أكلنا معًا، تشاركنا الخبز وشربنا من الكأس نفسها وسعدنا لكوننا معًا.

٩- المزمور ١٣٩: ١-١٤.

لم ألتقِ يسوع قطّ طوال سفري في الجليل. كنت أجد آثاراً له في كلّ مكان: طرائف وحكايات وتقاليد وروايات. وظلّ هو يفلت منّي. لكنّ ما عرفته عنه يتوافق مع بعضه بعضاً. حتى أكثر القصص مبالغة عنه كان لها طابعاً مميّزاً. لم تُروَ أشياء كهذه في شخص آخر. كانت رسالتي أن اكتشف هل يشكّل يسوع خطراً على الأمن. ما من شك في هذا: إنّه خطراً! جميع الذين يتبعون ضميرهم بدل ما تمليه الشريعة عليهم، جميع الذين يرفضون اعتبار توزيع السلطة والمال أمراً نهائياً، جميع الذين يمنحون صغار الناس عقليّة الأمراء، هم خطرون على المجتمع القائم. يستحيل أن أقول شيئاً من هذا للرومانيّين! لا أشعر البتّة بأنّي مرغم على تلبية رغباتهم. إذا كنّا نقرّر قبول وصيّة الله في الراحة يوم السبت أو رفضها فكم بالحري حين يتعلق الأمر بالنظام الرومانيّ. كيف يمكن إخفاء يسوع؟ كيف أجعل من هذا الثائر واعظاً مسالماً؟ يجب أن يتوافق ما أنقله مع الأحداث. عليّ أن أقدّم يسوع بحيث أمنحه في نظر الرومانيين هيئة معروفة توافق أفكارهم. فعندنا، حين نريد أن يفهم الغرباء تيّاراً دينياً، نقارنه بسهولة مع المدارس الفلسفية الفرّيسيّون مع الرواقيين، الأسّينيّيون مع الفيثاغورثيّين، الصدّوقيون مع الشكوكين.

لماذا لا أظهر يسوع على أنّه فيلسوف جوّال من المدرسة الكلبيّة؟ أليس في الواقع فيلسوفاً جوّالاً؟ عليّ أن أقدم عقيدته عموماً بحيث تتوافق في كثير من النقاط مع أقوال الكتاب اليونانّيين والرومانّيين فلهذا مفعول مهدّئ. ربّما استطعت أيضاً أن أعلنه راوياً؟ ألا يروي كثيراً من القصص والأمثال؟ الأمر واضح: عليّ أن أكثّر نقاط التقارب بين أقواله والكتابات الوثنيّة. إنه مشروع مهمّة صعبة.


Bibliotheca Alexadrina
مكتبة الإسكندرية
0300375
92
7

لوجوس